المحتويات





مقدمة

لا خلاف في أن الفترة التي سبقت بعثة محمد ﷺ كانت أشد الفترات التي مرت بها البشرية ظلمة وانحطاطًا وانحرافًا عن الحق، فقد كان العالم في القرن الخامس الميلادي، وما يليه يموج بالشر، ويضطرب بالفتن، فقد عجز العقل أن يحل مشاكل الوجود، أو أن يقود الإنسان إلى الحق والخير والسلام، بل إنه اتُّخذ مطيَّة لتسويغ الباطل، وتزييف الحق، والعبث بميراث الأنبياء والمرسلين؛ فحُرِّفت ديانة موسى وديانة عيسى ـ عليهما السلام ـ على أيدي الأحبار والرهبان والقساوسة، وعمَّت الوثنية المشركة مشارق الأرض ومغاربها، وظهر الفساد في البر والبحر.

وسط هذه الدياجير كان لا بد للبشرية من منقذ ومخلِّص لها من هذا الضلال الذي يمضي بها إلى الهاوية.

وقد شاءت إرادة الله تعالى أن يكون خلاص البشرية، وإنقاذها، وإخراجها من الظلمات إلى النور، ومن ضلالات الشرك إلى هداية الإيمان على يد محمد بن عبد الله ﷺ العربي الأمي، الذي اختاره ربه على علم، وربَّاه على عينه، وشرّفه بأكمل الأوصاف، واصطفاه لحمل الرسالة الخاتمة إلى الناس أجمعين. فما أعظمها من رسالة! وما أثقلها من مهمة! وما أضخمها من مسئولية!

ومنذ أن وقف النبي ﷺ على جبل الصفا في مكة معلنًا: أنه مرسل من رب العالمين بشيرًا ونذيرًا إلى الناس أجمعين. منذ ذلك الحين ـ وإلى الآن ـ وقُوَى الشر تتضافر وتتحد، ويساند بعضها بعضًا لهدم هذه النبوة، وتقويض أركانها، وصدّ الناس عنها، فحاولوا إيقاف مدها بقوة السلاح فلم يفلحوا، فأخذوا يثيرون الشبهات حول هذه النبوة، ويرمون رسول الله ﷺ بالافتراءات والأباطيل، فأنكروا نبوته، واتهموه باختلاق الإسلام، وتأليف القرآن، ووصموه بكل نقيصة يمكن أن تقدح في نبوته ﷺ، واتخذوا لذلك أخسَّ الوسائل وشتَّى الحيل؛ من تزييف للحق، وتزيين للباطل، وصرف للنصوص عن مدلولاتها، وقلب لأحداث التاريخ حسبما يتوافق مع أغراضهم وأهوائهم الناقمة على صاحب الرسالة محمد ﷺ، كل ذلك لإطفاء شمس الحق شمس نبوة محمد ﷺ، ولكن هيهات أن تطفئ أفواه الجاحدين شمس النبوة، وأن يحجب ما يثيرونه من غبار نورها الساطع: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (الصف).

والمتأمل فيما أثاره هؤلاء من شبهات حول نبوته ﷺ يجد أن كثيرًا منها قد أُثير على ألسنة أعداء الدعوة من معاصريه ﷺ من مشركين ويهود، ولكن العجيب أن هذه الشبهات التي أثيرت على ألسنة العرب الجاهليين في القرن السابع الميلادي، هي نفسها الشبهات التي لا يفتأ خصوم الرسالة المحمدية يرددونها حتى الآن، بل إن المتأخرين منهم أجرأ على الباطل، وأشد تعصبًا من أسلافهم، كما يجد المتأمل لهذه الشبهات ــ وإن ظهرت في أشكال شتى وحيل متعددة ـ أن فحواها واحد وهو إنكار نبوة محمد ﷺ والتشكيك فيما صاحبها من خصائص، وكذلك فإن هدفهم واحد وهو هدم بنيان الإسلام من أساسه والقضاء عليه، ولا عجب. فماذا يبقى من الإسلام إذا أُنكرت نبوة محمد ﷺ؟!

ومن هذا المنطلق كان لزامًا أن يُتصدَّى لمثل هذه الافتراءات والأباطيل، وكشف زيفها، وإظهار وجه الحق الناصع، فجاء هذا المؤلَّف للرد على الشبهات المثارة حول نبوته ﷺ، ولما كانت النبوة من المفاهيم المشتركة بين المسلمين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، أوردنا الرد على الشبهات المثارة حول علاقة النبي ﷺ بأهل الكتاب بعد إيراد الرد على الشبهات المثارة حول نبوته ﷺ ومن ثمَّ قُسِّم هذا الجزء إلى محورين هما:

الأول: الرد على الشبهات المثارة حول نبوته ﷺ وخصائصها مثل: ادعاء أنه ﷺ لم يتصف بصفات الأنبياء؛ لأنه ليس من نسل إسحاق عليه السلام، والزعم أنه ﷺ كان مصلحًا اجتماعيًّا لا نبيًّا، وإنكار أمية النبي ﷺ... إلخ.

الآخر: الرد على الشبهات المثارة حول علاقته ﷺ بأهل الكتاب: وهما شبهتان: الزعم أنه ﷺ كان يقدِّر المسيح وأمه ـ عليهما السلام ـ لنفوذ النصارى وسطوتهم في مكة، والزعم أنه ﷺ تنكر لأهل الكتاب وغيَّر معاملته لهم.

هذا، وقد أكدنا من خلال معالجة شبهات هذا المؤلَّف على عدة حقائق يمكن إيجازها في النقاط الآتية:

- ثبوت البشارات بمبعث النبي ﷺ في التوراة والإنجيل على الرغم من تحريفهما، ومحاولات صرف أهل الكتاب دلالات هذه البشارات عنه ﷺ.
- من الثابت أن النبي ﷺ كان أميًّا، وهذه الأمية ليست منقصة في حقه ﷺ، بل هي دليل على صدق نبوته، وأن مصدر القرآن الكريم مصدر إلهي لا دخل للنبي ﷺ فيه، وأن الأمية في حقه ﷺ معجزة وفي حق أمته منقصة جاء ليمحوها ويطمس معالمها، لذا كانت أول كلمة في الكتاب الذي نُزِّل عليه ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ (العلق).
- لم يكن النبي ﷺ مصلحًا اجتماعيًّا ولا طالب ملك أو جاه، بل كان ﷺ رسولًا بعثه الله لهداية البشر، وإخراجهم من الظلمات إلى النور.
- لقد اختص الله تعالى نبيه ﷺ بأنه خاتم النبيين والمرسلين فلا نبي بعده، وأنه أرسل للناس كافة؛ لهذا كان ﷺ في مرتبة تفضل مرتبة سائر الأنبياء والمرسلين.
- كانت علاقته ﷺ بأهل الكتاب قائمة على التسامح والعدالة والبر، وهذه العلاقة لم تتبدل في أية مرحلة من مراحل حياته ﷺ.

وفي النهاية لا يسعنا إلا القول بأن تاريخ البشرية لم يشهد عملًا أدق وأعقد ومسئولية أعظم من مسئولية محمد ﷺ باعتباره نبيًّا مرسلًا، كما أنه لم يعرف غرسًا أثمر مثل غرسه، وسعيًا تكلّل بالنجاح مثل سعيه، وهذا يدل على تأييد الله ﷻ له، وأنه ﷺ نبي مرسل من عند الله حقًّا.

الشبهة الأولى

نفي تبشير الكتاب المقدس بنبوة محمد ﷺ(*)

مضمون الشبهة:

ينفي بعض المغالطين تبشير الكتاب المقدس[1] - بعهديه - بنبوة محمد ﷺ زاعمين أن صيغ التبشير التي نصَّت على اسم النبي "أحمد" ليس لها أثر في أناجيلهم، ولم تُذْكَر إلا في القرآن في قوله ﷻ: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾(الصف: ٦). مدَّعين أن أحدًا من اليهود أو النصارى لم يَمْحُ اسم النبي ﷺ من الكتاب المقدس؛ مستدلِّين على ذلك بعدم وجود النسخ التي ذُكر فيها اسمه ﷺ لتشهد على مثل هذا التحريف، وبما يرفضه العقل من تواطؤ اليهود والنصارى في شتى البقاع والأزمنة على هذا التحريف! ويرمون من وراء ذلك إلى التشكيك في نبوة النبي محمد ﷺ، ونفي التبشير بها في التوارة والإنجيل، وتبرئة اليهود والنصارى مما قاموا به من تحريف وما أوقعوه من تزييف.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إن عدم ذِكْر اسم "أحمد" في أحد عهدي الكتاب المقدس - على فرض صحته - لا ينفي تبشيرهما به ﷺ مُطْلَقًا؛ ذاك أنه محمد ولم يدعه أحد بأحمد لا قبل النبوة ولا بعدها، فربما كان التبشير بما اشتهر به لا بما أطلق على طريقة التغليب من أحمد وغيره من الأسماء ليكون أدل وأوقع، فضلًا عن أن قوله ﷻ: ﴿اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ له معنيان - غير الظاهر - لا يمكن إغفالهما.

٢) هناك العديد من البراهين والأدلة التي تستند إلى روايات تاريخية صحيحة ترويها كتب الحديث النبوي الصحيحة، وكتب السيرة، ودواوين التاريخ، ويؤيدها القرآن الكريم، كلها تؤكد البشارات الصريحة بنبوة محمد ﷺ الموجودة في التوراة والإنجيل.

٣) لقد ثبت تحريف الكتاب المقدس، ليس بشهادة القرآن والمسلمين فحسب، بل بشهادة الكتاب المقدس ذاته وعلماء اللاهوت أنفسهم، فلا عجب أن يمحو اليهود والنصارى اسمه ﷺ من كتبهم.

٤) على الرغم من كل ما أُصيب به الكتاب المقدس من تحريف، وما مُنِي به من تزييف إلا أنه لم يخل تمامًا من جملة المبشرات بالنبي محمد ﷺ، وهذا نفسه يدل - إلى جانب حقيقة التبشير نفسها - على أن ما وصل إلينا طرف مما حُرِّف وكتم وحُذف، وأنه لولا ما أصابه لكان لدينا الآن من المبشرات أضعاف ما بأيدينا!!

التفصيل:

أولا. على فرض صحة زعمهم في عدم ذكر اسم "أحمد" في أي من عهدي الكتاب المقدس فهذا لا يدل على عدم التبشير بالنبي ﷺ:

يفصِّل الشيخ الطاهر ابن عاشور الكلام في معنى هذه الآية ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾(الصف: ٦)

(*) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن القيم، تحقيق: أحمد حجازي السقا، المكتبة القيمة، القاهرة، ١٤٠٧هـ. موجز دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة مستشرقين، مركز الشارقة، الإمارات، ١٤١٨هـ/ ١٩٨٨م.

١. الكتاب المقدس: عند اليهود هو العهد القديم الذي يضم أسفار التوراة وأسفار أنبياء بني إسرائيل قبل المسيح، وعند النصارى هو مجموع العهدين: القديم والجديد الذي يضم الأناجيل التي كُتبت بعد المسيح.

فيقول: التبشير هو: الإخبار بحادث يَسرُّ، وأُطْلِقَ هنا على الإخبار بأمر عظيم النفع لهم؛ لأنه يلزمه السرور، فإن مجيء الرسول محمد ﷺ إلى الناس نعمة عظيمة.

ووجه إيثار هذا اللفظ: الإشارة إلى ما وقع في الإنجيل من وصف رسالة الرسول الموعود به بأنها "بشارة الملكوت".

ولا يُحمَل قوله تعالى: ﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ على ما يتبادر من لفظ "اسم" من أنه: العَلَمُ المجهول للدلالة على ذات معينة؛ لتمييزه من بين من لا يشاركها في ذلك الاسم؛ لأن هذا الحمل يمنع منه، وأنه ليس بمطابق للواقع؛ لأن الرسول الموعود به لم يدعه الناس "أحمد" فلم يكن أحد يدعو النبي محمدًا ﷺ باسم "أحمد" لا قبل نبوته، ولا بعدها، ولا يُعرف ذلك.

وأما ما جاء عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال: "لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب"[1][2]. فتأويله أنه أطلق الأسماء على ما يشمل الاسم العَلَم والصفة الخاصة به على طريقة التغليب وقد رويت له أسماء غيرها استقصاها أبو بكر ابن العربي في العارضة والقَبس.

فالذي نُوقِن به أن محمل قوله "اسمه أحمد" يجري على جميع ما يحمله رُكْنَا هذه الجملة من المعاني. فأما لفظ "اسم" فأشهر استعماله في كلام العرب ثلاثة استعمالات:

١. أن يكون بمعنى المُسَمَّى: قال أبو عبيدة: الاسم هو المُسَمَّى، ونسب ثعلب إلى سيبويه أن الاسم غير المسمى؛ أي إذا أُطلق لفظ "اسم" في الكلام فالمعنيُّ به: مسمى ذلك الاسم.

٢. أن يكون الاسم بمعنى شهرة في الخير وأنشد ثعلب من الطويل:

لأعظمها قدرًا وأكرمها أبًا

وأحسنها وجهًا وأعلنها سُمَى[3]

٣. أن يُطلق على لفظٍ جُعِلَ دالًّا على ذات لتُمَيَّزَ من كثير من أمثالها، وهذا هو العَلَم.

ونحن نجري على الأصل في حمل ألفاظ القرآن على جميع المعاني التي يسمح بها الاستعمال الفصيح؛ فنحمل الاسم في قوله: "اسمه أحمد" على ما يجمع بين هذه الاستعمالات الثلاثة - أي: مسمّاه "أحمد"، وذكْره أحمد، وعَلَمُه أحمد - ولنحمل لفظ "أحمد" على ما لا يأباه واحد من استعمالات "اسم" الثلاثة إذا قرن به وهو أن "أحمد" اسم تفضيل يجوز أن يكون مسلوب المفاضلة معنيًّا به القوة فيما هو مشتق منه، أي: الحمد وهو الثناء، فيكون أحمد هنا مستعملًا في قوة مفعولية الحمد، أي: حَمْد الناس إياه، وهذا مثل قولهم: "العود أحمد" - أي: محمود كثيرًا، فالوصف بـ "أحمد" بالنسبة إلى المعنى الأول في "اسم" أن مسمى هذا الرسول ونفسه موصوفة بأقوى ما يُحمَد عليه محمود؛ فيشمل ذلك جميع صفات الكمال النفسانية والخُلقية والخَلقية

---

١. العاقِب: خاتم الأنبياء الذي لا نبي بعده.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ (٣٣٣٩)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب في أسمائه ﷺ (٦٢٥٢).

٣. سُمَى: لغة في اسم.

والنَّسَبية والقومية وغير ذلك مما هو معدود من الكمالات الذاتية والعَرَضية.

ويصح اعتبار "أحمد" تفضيلًا حقيقيًّا في كلام سيدناعيسى عليه السلام؛ أي مُسَمَّاه أحمدُ منِّي، أي أفضل في رسالته وشريعته، وعبارات الإنجيل تُشْعر بهذا التفضيل؛ ففي إنجيل يوحنا: "وأنا أطلب من الآب فيعطيكم مُعزِّيًا آخر ليمكث معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله؛ لأنه لا يراه ولا يعرفه... إن أحبني أحد يحفظ كلامي، ويحبه أبي، وإليه نأتي، وعنده نصنع منزلًا. الذي لا يحبني لا يحفظ كلامي. والكلام الذي تسمعونه ليس لي، بل للآب الذي أرسلني. بهذا كلمتكم وأنا عندكم. وأما المعزِّي، الروح القدس، الذي سيرسله الآب باسمي، فهو يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل ما قلته لكم". (يوحنا ١٤: ١٦ـ ٢٦)، أي في جملة ما يعلِّمكم أن يذكِّركم بكل ما قلتُه لكم، وهذا يفيد تفضيله على عيسى بفضيلة دوام شريعته المعبر عنها بقول الإنجيل: "ليمكث معكم إلى الأبد"، وبفضيلة عموم شرعه للأحكام المعبَّر عنه بقوله: "يعلمكم كل شيء".

والوصف بـ "أحمد" على المعنى الثاني في الاسم، أن سمعته وذكره في جيله والأجيال بعده موصوف بأنه أشد ذكرٍ محمودٍ وسمعةٍ محمودةٍ.

ووصف "أحمد" بالنسبة إلى المعنى الثالث في الاسم رمز إلى أن اسمه العَلَم يكون بمعنى: أحمد؛ فإن لفظ "محمد" اسم مفعول من "حَمَّد"، الدال على كثرة حمد الحامدين إياه، كما قالوا: فلان مُمَدَّح؛ إذا تكرر مدحه من مادحين كثيرين.

فاسم "محمد" يفيد معنى: المحمود حمدًا كثيرًا، ورمز إليه بأحمد.

وهذه الكلمة الجامعة التي أوحى الله تعالى بها إلى عيسى عليه السلام أراد الله بها أن تكون شعارًا لجماع صفات الرسول الموعود به ﷺ، صيغت بأقصى صيغة تدل على ذلك إجمالًا، بحسب ما تسمح اللغة بجمعه من معان، ووكل تفصيلها إلى ما يظهر من شمائله قبل بعثته وبعدها ليتوسمها المتوسمون ويتدبر مطاويها الراسخون عند المشاهدة والتجربة[1].

ثانيًا. بالنظر لمجمل الروايات التاريخية الثابتة ولعموم آيات القرآن المؤيدة لفحواها يتأكد لدينا ما كان من بشارات صريحة بنبوة محمد ﷺ في التوراة والإنجيل:

وفي هذا الصدد قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (الأعراف).

تؤكد هذه الآية الكريمة أن الرسول ﷺ مكتوب عندهم في كتبهم كما أن صفات النبي محمد ﷺ ثابتة في كتب الأنبياء السابقين الذين بشروا أممهم به، ليؤمنوا به ويتبعوه، ولا تزال هذه الصفات مدوّنة في كتبهم، يعرفها علماؤهم إلا أنهم يتواصَوْن بكتمانها، أو يؤوِّلونها

١. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، د. ت، مج١٣، ج٢٨، ص١٨١: ١٨٥ بتصرف يسير.

تأويلات فاسدة.

يقول الإمام الرازي في "مفاتيح الغيب" عند تفسير الآية: "وهذا يدل على أن نعته وصحة نبوته مكتوب في التوراة والإنجيل؛ لأن ذلك لو لم يكن مكتوبًا لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفِّرات لليهود والنصارى عن قبول قوله؛ لأن الإصرار على الكذب، والبهتان من أعظم المنفرات، والعاقل لا يسعى فيما يوجب نقصان حاله، وينفر الناس عن قبول قوله؛ فلما قال ذلك دلّ هذا على أن ذلك النعت، كان مذكورًا في التوراة والإنجيل، وذلك من أعظم الدلائل".

ومنه قوله ﷻ: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) ﴾ (الصف).

بين الله ﷻ في هذه الآية حقيقة دعوة عيسى ﵇، وهي أنه جاء مصدقًا لما في التوراة، ومبشرًا برسول يأتي من بعده اسمه "أحمد"، فهذه بشارة صريحة من نبي الله عيسى ﵇ سواء وُجدتْ هذه البشارة في الأناجيل، أم طمست من قِبل الحاقدين الحاسدين.

يقول الأستاذ سيد قطب في "الظلال" عند تفسير هذه الآية: "هذه الآية تصور حلقات الرسالة المترابطة يسلم بعضها إلى بعض، وهي متماسكة في حقيقتها، واحدة في اتجاهها، ممتدة من السماء إلى الأرض حلقة بعد حلقة في السلسلة الطويلة المتصلة"[1].

ومنه قوله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ (٥٣) ﴾ (القصص).

الآية الكريمة تصف حال طائفة من أهل الكتاب ـ النصارى ـ استجابت للدعوة الجديدة؛ فآمنت بالنبي الأمي إيمانًا عميقًا، جعل الدموع تجري من العيون؛ من شدة تأثرهم بالحق الذي سمعوه من فم رسول الله ﷺ، وتبين الآية الكريمة أن سر إيمانهم برسول الله ﷺ وما جاء به هو معرفتهم السابقة من خلال الكتب المقدسة عندهم بأن نبيًّا من العرب سيخرج آخر الزمان: ﴿ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ (٥٣) ﴾. وهكذا كانت المعرفة السابقة سببًا في الإيمان بهذا الدين الجديد[2].

وبالجملة نقول إن هذه الآيات وغيرها أصدق دليل على ما جاء في كتب النصارى من البشارات العظيمة ببعثة النبي ﷺ، ومن المسلَّم به أن القرآن الكريم بما نصَّ عليه من آيات في هذا الصدد محفوظة مستوثق من صدقها بمقتضى تعهّد الله بحفظه؛ في قوله ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ (٩) ﴾ (الحجر).

والمتأمل في سيرة النبي ﷺ وكتب الحديث، يجد العديد من الأدلة على تواطؤ اليهود والنصارى على محو اسم النبي ﷺ من كتبهم، وكذلك إخفاء البشارات الصريحة بمبعثه ﷺ والتي اعتمد عليها هؤلاء اليهود والنصارى في التبشير به ﷺ وتتبع أخباره وعلاماته، والهجرة إلى بلاده التي سيظهر فيها، وهي المدينة المنورة، وتركهم بلاد الشام بخيراتها إلى بلاد شبه

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج٦، ص٣٥٥٦.

٢. الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، دار الفرقان، الأردن، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٢١ وما بعدها.

الجزيرة العربية المجدبة، كل هذا يدل بها لا يدع مجالًا للشك على كثرة المبشرات بنبوة نبينا محمد ﷺ ووضوحها.

وقد أخبر النبي ﷺ اليهود والنصارى مشافهة أنه مذكورٌ عندهم وأنهم وُعدوا به وأن الأنبياء بشَّرت به، واحتج عليهم بذلك، ولو كان هذا الأمر من البشارات به غير موجود لكذَّبوه، ونفَّروا من اتِّباعه، وشهدوا على دعوته بالبطلان، وهذا ما لم يكن.

وهناك العديد من الدلائل في السيرة النبوية تشير إلى وجود هذه المبشرات بالنبي ﷺ في التوراة والإنجيل، والتي حرَّفها اليهود والنصارى بعد ذلك وتواصوا بكتمانها، نذكر منها ما يأتي:

- روى الواقدي عن ثعلبة بن أبي مالك أن عمر بن الخطاب ﷺ سأل أبا مالك ثعلبة بن هلال، وكان من أحبار اليهود، فقال: أخبرني عن صفات النبي ﷺ في التوراة، فقال: إن صفته في توراة بني هارون التي لم تُغيَّر ولم تُبدَّل، هي: "أحمد من ولد إسماعيل بن إبراهيم، وهو آخر الأنبياء، وهو النبي العربي الذي يأتي بدين إبراهيم الحنيف، يأتزر على وسطه ويغسل أطرافه، في عينيه حمرة وبين كتفيه ختم النبوة، ليس بالقصير ولا بالطويل، يلبس الشملة ويجتزئ بالبُلْغَة[1]، يركب الحمار ويمشي في الأسواق، سيفه على عاتقه لا يُبالي من لقي من الناس، معه صلاة لو كانت في قوم نوح ما أُهلكوا بالطوفان، ولو كانت في عاد ما أُهلكوا بالريح، ولو كانت في ثمود ما أهلكوا بالصيحة، يولد بمكة وهو أمي لا يكتب ولا يقرأ المكتوب، وهو الحمّاد ويحمد الله شدة ورخاء، سلطانه بالشام وصاحبه من الملائكة جبريل، يلقى من قومه أذى شديدًا ثم يدال عليهم[2] فيحصدهم حصدًا، تكون الواقعات بيثرب منها عليه ومنه عليها ثم له العاقبة، معه قوم هم أسرع إلى الموت من الماء من رأس الجبل إلى أسفله، صدورهم أناجيلهم وقربانهم دماؤهم، ليوث النهار رهبان الليل، يرعب عدوه مسيرة شهر، يباشر القتال بنفسه ثم يخرج ويحكم لا شرط معه ولا حرس، الله يحرسه".

عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني عن صفات رسول الله ﷺ في التوراة، فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي، إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا[3] للأميين، أنت عبدي ورسولي، سمَّيتك المتوكل، لا بفظٍّ، ولا غليظ، ولا سخَّاب[4] في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به المِلَّة العوجاء[5]، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غُلفًا[6][7].

ورواه ابن جرير، وزاد: قال عطاء: فلقيت كعبًا، فسألته عن ذلك، فما اختلفنا في حرف.

---

١. يجتزِئ بالبُلْغَة: يقنع بما يكفي لسدِّ حاجته ولا يفضل عنها.

٢. يُدال عليهم: تكون له الدولة، أي النُّصرة عليهم.

٣. الحرز: الحافظ.

٤. سخَّاب: عالي الصوت. ويقال أيضًا: صخاب بالصاد.

٥. المِلَّة العوجاء: ملة العرب، سُمِّيت بالعوجاء لما دخلها من عبادة الأصنام.

٦. قلوب غُلْف: كأن عليها غطاء فهي لا تستمع إلى الحق.

٧. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كراهية السخب في السوق (٢٠١٨)، وفي موضع آخر.

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص قد وجد يوم اليرموك زاملتين[١] من كتب أهل الكتاب، وكان يُحدِّث عنهما كثيرًا. وأما كعب الأحبار، فقد كان من كبار علماء اليهود وأحبارهم، ثم شرح الله صدره للإسلام، وكان بعد إسلامه يُحدِّث بصفات النبي ﷺ الموجودة في التوراة.

وقد روى ابن سعد في "الطبقات" عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه سأل كعب الأحبار: كيف تجد نعت رسول الله ﷺ في التوراة؟ فقال: نجده "محمد بن عبد الله، مولده بمكة، ومهاجره إلى طابة[٢]، ويكون ملكه بالشام، ليس بفحّاش ولا صخّاب في الأسواق، ولا يكافئ بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر".

وجاء عن أبي صالح قال: قال كعب: "نجد مكتوبًا محمد رسول الله لا فظ، ولا غليظ، ولا صخّاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، وأمته الحمّادون يكبرون الله ﷻ على كل نجد ويحمدونه في كل منزلة، ويأتزرون على أنصافهم، ويتوضئون على أطرافهم، مناديهم في جو السماء، صفُّهم في القتال وصفُّهم في الصلاة سواء، لهم بالليل دوي كدوي النحل، ومولده بمكة، ومهاجره بطيبة، وملكه بالشام" [٣].

وجاء عن رجل من الأعراب أنه قال: جلبت جَلُوبة[٤] إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ، فلما فرغت من بيعي قلت: لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه. قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون، فتبعتهم، حتى أتوا على رجل من اليهود ناشرًا التوراة يقرؤها، يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأحسن الفتيان وأجملهم، فقال رسول الله ﷺ: "أنشدك بالذي أنزل التوراة، هل تجدني في كتابك ذا صفتي ومخرجي"؟ فقال برأسه هكذا، أي: لا، فقال ابنه: إي والذي أنزل التوراة، إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. فقال: "أقيموا اليهودي عن أخيكم"، ثم وَلِيَ كفنه وحنطه وصلى عليه[٥].

وعن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: انطلق النبي ﷺ يومًا وأنا معه، حتى دخلنا كنيسة اليهود بالمدينة يوم عيد لهم، فكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: "يا معشر اليهود، أروني اثني عشر رجلًا يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، يحطُّ الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي غضب عليه"، قال: فأسكتوا، ما أجابه منهم أحد، ثم ردَّ عليهم، فلم يجبه منهم أحد، فقال: "أبيتم؟! فوالله، إني لأنا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا النبي المصطفى، آمنتم أو كذبتم".

ثم انصرف وأنا معه حتى إذا كدنا أن نخرج، نادى رجل من خلفنا: كما أنت يا محمد! فقال ذلك الرجل: أي رجل تعلمون فيكم يا معشر اليهود؟ قالوا: والله ما نعلم أنه كان فينا رجل أعلم بكتاب الله منك، ولا أفقه منك، ولا من أبيك قبلك، ولا من جدك قبل أبيك.

١. الزاملة: ما يُحمل عليه من الإبل وغيرها.
٢. طابة: طيبة، وهي من أسماء المدينة المنورة.
٣. إسناده صحيح: أخرجه الدارمي في سننه، المقدمة، باب صفة النبي ﷺ في الكتب قبل مبعثه (٥)، وصحح إسناده حسين سليم أسد في تعليقه على مسند الدارمي.
٤. الجَلُوبة: ما يُجلب من إبل وغنم ومتاع للتجارة.
٥. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ (٢٣٥٣٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٢٦٩).

قال: فإني أشهد له بالله أنه نبي الله الذي تجدونه في التوراة. فقالوا: كذبت ثم ردوا عليه قوله، وقالوا فيه شرًّا، فقال رسول الله ﷺ: "كذبتم، لن يقبل قولكم، أما آنفًا فتثنون عليه من الخير ما أثنيتم، وأما إذا آمن فكذبتموه وقلتم، فلن يقبل قولكم".

قال: فخرجنا ونحن ثلاثة: رسول الله ﷺ، وأنا، وعبد الله بن سلام وأنزل الله تعالى فيه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ (الأحقاف)[1].

ويحدثنا ابن سعد في طبقاته عن بعض الأنصار أن يهود بني قريظة كانوا يدرسون ذكر رسول الله ﷺ في كتبهم، ويعلمونه الولدان بصفته واسمه ومهاجره إلينا، فلما ظهر رسول الله ﷺ حسدوا وبغوا وقالوا: ليس به.

وكان المشركون يرون أن أهل الكتاب أعلم بهذا الشأن فكانوا يسألونهم، وكان هؤلاء يخبرون بما عندهم، روى ابن سعد عن ابن عباس، قال: بعثت قريش النضر بن الحارث بن علقمة، وعقبة بن أبي معيط وغيرهما إلى يهود يثرب، وقالوا لهم: سلوهم عن محمد، فقدموا المدينة فقالوا: أتيناكم لأمر حدث فينا، منا غلام يتيم فقير يقول قولًا عظيمًا، يزعم أنه رسول الرحمن، ولا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، قالوا: صفوا لنا صفته، فوصفوه لهم، قالوا: فمن تبعه منكم؟ قالوا: سِفْلَتُنا، فضحك حبر منهم، قال: هذا النبي الذي نجد نعته ونجد قومه أشد الناس له عداوة[2].

وقال ابن إسحاق: وكانت الأحبار من يهود والرهبان من النصارى والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه لما تقارب زمانه، أما الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى فعمّا وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم منه، ثم بيّن ابن إسحاق عن جماعة من الأنصار ما كان يتحدث به يهود يثرب عن رسول الله ﷺ وسبب بغيهم وحسدهم وإنكارهم ما كانوا يعلنونه ويتدارسونه من ذكره، فقال: "وحدثنا عاصم بن عمرو بن قتادة عن رجال من قومه، قالوا: إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه ما كنا نسمع من رجال يهود، كنا أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب وعندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيرًا ما نسمع منهم ذلك، فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبنا حين دعانا إلى الله تعالى وعرفنا ما كانوا يتوعّدوننا به، فبادرناهم إليه، فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزلت هذه الآية من البقرة: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ (البقرة) "[3].

---

1. إسناده صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث عوف بن مالك الأشجعي الأنصاري ﷺ (٢٤٠٣٠)، وابن حبان في صحيحه، كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة (٧١٦٢)، وصحح إسناده الأرنؤوط في تعليقات مسند أحمد.

2. أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى، ذكر علامات النبوة في رسول الله ﷺ قبل أن يوحى إليه (١/ ١٦٥).

3. عظمة الرسول ﷺ، الشيخ محمد بيومي، دار مكة للنشر والتوزيع، مصر، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٩٤: ١٠٦.

إن ما ذكرناه آنفًا من أدلة على معرفة أهل الكتاب للنبي ﷺ من خلال كتبهم كان يتعلق باليهود، وعلمائها، أما ما يتعلق بالنصارى فقصة إسلام سلمان الفارسي خير دليل على معرفة رهبان النصارى بصفات النبي ﷺ وبلاده ووقت مبعثه، فقد قال الراهب النصراني الذي كان يلازمه سلمان الفارسي قبل موته: "أي بني، والله ما أعلمه أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب، مهاجرًا بين حرتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى، يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل" [1] [2].

ولا يمكن لمثل هذا الراهب النصراني أن يقول ما قاله إلا من خلال ما علمه بما في الإنجيل من بشارات بالنبي ﷺ وصفاته.

ودليل آخر على معرفة النصارى للنبي ﷺ من خلال الإنجيل، ما قاله النجاشي للمهاجرين المسلمين بعد أن أخبروه قولهم في عيسى ابن مريم، كما يروي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: فرفع عودًا من الأرض، ثم قال: "يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما سوى هذا، مرحبًا بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي نجد في الإنجيل، وأنه الرسول الذي بشر به عيسى ابن مريم، انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا الذي أحمل نعليه وأوضئه" [3].

ومثل ما قاله النجاشي لجعفر بن أبي طالب، قاله هرقل ملك الروم لأبي سفيان حين سأله عن النبي ﷺ فقال له: "فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدميَّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت[4] لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه" [5].

هذه بعض من الدلائل على كثرة البشارات بالنبي ﷺ في التوراة والإنجيل واضحة لم تصل إليها يد التحريف كما هي عليه الآن، ونستطيع أن نستخلص من هذا كما يقول ابن القيم: أن الأخبار والبشارة بنبوته ﷺ في الكتب المتقدمة عُرفت من عدة طرق:

الأولى: ما ذكرناه آنفًا من أخبار، وهو قليل من كثير وغيض من فيض.

الثانية: إخباره ﷺ لهم أنه مذكور عندهم، وأنهم وُعدوا به وأن الأنبياء بشّرت به، واحتجاجه عليهم بذلك، ولو كان هذا الأمر لا وجود له ألبتة لكان مغريًا لهم بتكذيبه منفرًا لاتباعه محتجًا على دعواه بما يشهد ببطلانها.

---

١. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث رفاعة بن شداد عن عمرو بن الحمق رضي الله عنه (٢٣٧٨٨)، والبزار في مسنده، مسند سلمان الفارسي (٢٥٠٠)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٩٤).

٢. عظمة الرسول ﷺ، الشيخ محمد بيومي، مرجع سابق، ص٩٠، ٩١.

٣. إسناده جيد: أخرجه سعيد بن منصور في سننه، كتاب الوصايا، باب رسائل النبي ﷺ ودعوته (٢٤٨١)، وأحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (٤٤٠٠)، وجوَّد إسناده الألباني في صحيح السيرة النبوية (١/ ٦٦).

٤. تجَشَّم: قصد.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧)، واللفظ للبخاري.

الثالثة: أن هاتين الأمتين معترفتين بأن الكتب القديمة بشرت بنبي عظيم الشأن يخرج في آخر الزمان نعته كيت وكيت، وهذا مما اتفق عليه المسلمون واليهود والنصارى؛ فأما المسلمون فلما جاءهم آمنوا به وصدقوه، وعرفوا أنه الحق من ربهم. وأما اليهود فعلماؤهم عرفوه وتيقنوا أنه محمد بن عبد الله، فمنهم من آمن به، ومنهم من جحد نبوته وقالوا لأتباعهم: إنه لم يخرج بعد. وأما النصارى فوضعوا بشارات التوراة والنبوات التي بعدها على المسيح، ولا ريب أن بعضها صريح فيها، وبعضها ممتنع حمله عليه، وبعضها محتمل، وأما بشارات المسيح فحملوها كلها على الحواريين، وإذا جاءهم ما يستحيل انطباقه عليهم حرفوه أو سكتوا عنه وقالوا: لا ندري من المراد به.

الرابعة: اعتراف من أسلم منهم بذلك، وأنه صريح في كتبهم، وعن المسلمين الصادقين منهم تلقّى المسلمون هذه البشارات وتيقنوا صدقها وصحتها بشهادة المسلمين منهم بها مع تباين أعصارهم وأمصارهم وكثرتهم واتفاقهم على لفظها، وهذا يفيد القطع بصحتها، ولو لم يقر بها أهل الكتاب. فكيف وهم مقرون بها لا يجحدونها وإنما يغالطون في تأويلها والمراد بها؟!

وكل واحد من هذه الطرق الأربع كاف في العلم بصحة هذه البشارات، وقد سبق أن أشرنا إلى إقدامه ﷺ على إخبار الصحابة وأعدائه بأنه مذكور في كتبهم بنعته وصفته، وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وتكراره ذلك عليهم مرة بعد مرة في كل مجمع وتعريفهم بذلك، وتوبيخهم والنداء عليهم به من أقوى الأدلة القطعية على وجوده من وجهين:

أحدهما: قيام الدليل القطعي على صدقه.

الثاني: دعوته لهم بذلك إلى تصديقه، ولو لم يكن له وجود لكان ذلك من أعظم دواعي تكذيبه والتنفير منه.

وهذه الطرق يسلكها من يساعدهم على أنهم لم يحرفوا ألفاظ التوراة والإنجيل، ولم يبدلوا شيئًا منها فيسلكها بعض نظار المسلمين معهم من غير تعرض إلى التبديل والتحريف.

وطائفة أخرى تزعم أنهم بدلوا، وحرفوا كثيرًا من ألفاظ الكتابين، مع أن الغرض الحامل لهم على ذلك دون الغرض الحامل لهم على تبديل البشارة برسول الله ﷺ بكثير، وإن البشارات لكثرتها لم يمكنهم إخفاؤها كلها وتبديلها، ففضحهم ما عجزوا عن كتمانه أو تبديله[1].

ومن ثم فلا يحق لأحد أن يشكك في اعتقاد المسلمين بتحريف التوراة والإنجيل، ومحو اسمه ﷺ من هذه الكتب؛ لأن الشواهد التاريخية على ذلك كثيرة جدًّا، وقد تضمنتها كتب السنة والحديث، وكتب التاريخ، وصدَّق كل ذلك القرآن الكريم.

ثالثًا. تحريف الكتاب المقدس ثابت ليس بالقرآن فحسب، بل بشهادة الكتاب المقدس ذاته وعلماء اللاهوت أنفسهم:

يحسن بنا في البداية أن نشير إلى الحقيقة الجلية، التي لا يكاد ينكرها أحد من علماء أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ تلك الحقيقة هي ثبوت تحريف الكتاب

---

١. عظمة الرسول ﷺ، الشيخ محمد بيومي، مرجع سابق، ص١١٠، ١١١.

المقدس بعهديه؛ القديم (التوراة) والجديد (الإنجيل).

وقد سجَّل القرآن الكريم هذه الحقيقة في آيات عديدة تدل على وجود هذا التحريف، يقول الله ﷻ: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾(البقرة). ثم يقول ﷻ: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾(البقرة).

وواضح هنا أن التحريف المذكور في الآيات كان على الحقيقة، وليس تحريفًا للمعاني فقط، مما يدل على أن تحريف الكلم المذكور كان واقعًا ملموسًا ومعايشًا، يقول ﷻ: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾(آل عمران) [1].

وكما نصَّ القرآن الكريم على تحريف التوراة والإنجيل، فقد نص كذلك على نصوص مفقودة من التوراة والإنجيل؛ يقول تعالى في القرآن عن التوراة الحقيقية وكذلك الإنجيل الحقيقي: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ ﴾(الأعراف). إن تسجيل القرآن هذا في مقابل فقداننا هذه الإشارة إليه ﷺ؛ لدليل على ما أصابها من تحريف.

فلو كانت التوراة أو الإنجيل بين أيدينا صحيحين غير محرَّفين؛ لوجدنا هذا الذي نصَّ القرآن على ذِكْره فيهما، وهذا دليل على أن النُّسخ الموجودة محرّفة لا محالة، ودليل أيضًا على أن أهل الكتاب قد أخفوا التوراة الحقيقية، بما فيها من ذكر النبي ﷺ.

ولمزيد من الشفافية ولكي لا تبقى لمحتج حجة فإننا نقدم لهم الأدلة التي تثبت هذا التحريف وذاك الإخفاء لبعض النصوص، ومنها البشارة بالنبي ﷺ في كتبهم تلك؛ وها هو ذا الكتاب المقدس ينص على ذلك التحريف:

ففي سِفر إرميا نجد غضب الرب على الكهنة، ومن يتنبئون ويقولون للشعب الكذب بدلًا من كلام الرب الإله: "لأن الأنبياء والكهنة تنجسوا جميعًا، بل في بيتي وجدت شرهم يقول الرب: لذلك يكون طريقهم لهم كمزالق في ظلامٍ دامسٍ، فيطردون ويسقطون فيها، لأني أجلبُ عليهم شرًّا سنة عقابهم، يقولُ الرَّب: وقد رأيت من أنبياء السامرة حماقةً. تنبئوا بالبعل وأضلوا شعبي إسرائيل، وفي أنبياء أورشليم رأيت ما يقشعر منهُ، يفسقون ويسلكون بالكذب، وَيُشَدِّدون أيادي فاعلي الشرَّ حتى لا يرجعوا الواحد عن شره، صاروا لي كلهم كسدوم، وسكانها كعمورة، لذلك هكذا قال رب الجنود عن الأنبياء: هأنذا أُطْعِمُهُمْ أَفْسِنْتينًا وأسقيهم ماء العَلْقَم؛ لأنه من عند أنبياء أورشليم خرج نفاقٌ في كل الأرض، هكذا قال رب الجنود، لا تسمعوا لكلام الأنبياء الذين يتنبئون لكم، فإنهم يجعلونكم باطلًا يتكلَّمون برؤيا قلبهم لا عن فم الرَّب، قائلين قولًا لمحتقريَّ: قال الربُّ يكون لكم سلامٌ! ويقولون لكل من يسير في عِنَادِ قلبه لا يأتي

1. ردُّ القرآن والكتاب المقدس على أكاذيب القمص زكريا بطرس، إيهاب حسن عبده، مكتبة النافذة، القاهرة، ط1، 1426هـ/ 2005م، ص83، 84 بتصرف.

عليكم شرٌّ". (إرميا ٢٣: ١١ ـ ١٧).

وفيه أيضًا: "لم أُرسل الأنبياء، بل هم جَروا. لم أتكلّم معهم، بل هم تنبئوا. ولو وقفوا في مجلسي لأخبروا شعبي بكلامي وَرَدُّوهُمْ عن طريقهم الرديء وعن شر أعمالهم، ألعلّي إلهٌ من قريب ـ يقول الرَّبُّ ـ ولست إلهًا من بعيدٍ، إذا اختبأ إنسانٌ في أماكن مستترةٍ أفما أراه أنا؟ يقولُ الرب. أما أملأ أنا السماوات والأرض؟ يقول الرب: قد سمعتُ ما قالته الأنبياء الذين تنبَّئوا باسمي بالكذب قائلين: حَلِمتُ، حلمت. حتى متى يوجد في قلب الأنبياء المُتنبئين بالكذب، بل هم أنبياء خداعِ قلبهم. الذين يفكرون أن يُنَسُّوا شعبي اسمي بأحلامهم التي يقصُّونها الرجل على صاحبه كما نَسِي آباؤهم اسمي لأجل البَعْل. النبي الذي معه حلمٌ فليقصَّ حُلمًا، والذي معه كلمتي فليتكلم بكلمتي بالحق، ما للتِّبن مع الحِنْطَة؟ يقول الرب. أليست هكذا كلمتي كنارٍ ـ يقول الربُّ ـ وكمِطرَقة تحطِّم الصَّخر؟ لذلك هأنذا على الأنبياء ـ يقول الرب ـ الذين يسرقون كلمتي بعضهم من بعض. هأنذا على الأنبياء ـ يقول الرب ـ الذين يأخذون لسانهم ويقولون: قال. هأنذا على الذين يتنبّئون بأحلامٍ كاذبةٍ ـ يقول الربُّ ـ الذين يقصُّونها ويضلون شعبي بأكاذيبهم ومفاخراتهم، وأنا لم أرسلهم ولا أمرتهم، فلم يفيدوا هذا الشَّعب فائدةً؟! يقول الرب. أما وحيُ الرَّب فلا تذكروه بَعْدُ؛ لأنَّ كلمة كل إنسانٍ تكون وحيه، إذ قد حرَّفتم كلام الإله الحيّ رب الجنود إلهنا". (إرميا ٢٣: ٢١ ـ ٣٦).

ونجد فيه أيضًا: "كيف تقولون نحن حكماء. وشريعةُ الرب معنا؟ حقًّا إنه إلى الكذب حوَّلها قلم الكتبة الكاذبُ". (إرميا ٨: ٨).

وفي سفر إشعياء نجد تغيير وتبديل الشرائع: "والأرض تدنَّست تحت سكانها؛ لأنهم تعدّوا الشرائع، غيَّروا الفريضة، نكثوا العهد الأبديَّ. لذلك لعنةٌ أَكَلت الأرض وعُوقب الساكنون فيها، لذلك احترق سكان الأرض وبقي أناسٌ قلائل". (إشعياء ٢٤: ٥، ٦)[1].

هذه هي نصوص التوراة نفسها، قد أقرت بوجود التحريف فيها، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فلا يوجد في التوراة نفسها أية إشارة إلى عصمتها من التحريف أوالتبديل أو كتمان بعض النصوص. ومن ثم فلا عجب أن يجحد اليهود نبوة محمد ﷺ وإنكار بشارة الأنبياء به، ويكتموا هذه البشارات ويحرفوا المقصود منها.

يقول ابن القيم: "وكيف ينكر من هذه الأمة الغضبية قتلة الأنبياء الذين رموهم بالعظائم، أن يكتموا نعت رسول الله ﷺ وصفته، وقد جحدوا نبوة المسيح ورموه وأمه بالعظائم، ونعته والبشارة به موجود في كتبهم؟ ومع هذا أطبقوا على جحد نبوته، وإنكار بشارة الأنبياء به، وهو الذي لم يفعل بهم ما فعله بهم محمد ﷺ من القتل والسبي وغنيمة الأموال، وتخريب الديار، وإجلائهم منها، فكيف لا تتواصى هذه الأمة بكتمان نعته وصفته، وتبدله من كتبها؟

وقد عاب الله سبحانه عليهم ذلك في غير ما موضع من كتابه الكريم، ولعنهم عليه، ومن العجيب أنهم والنصارى يقرون أن التوراة كانت طول مملكة بني إسرائيل عند الكاهن الأكبر الهاروني وحده، واليهود تقر أن السبعين كاهنًا اجتمعوا على اتفاق من جميعهم

١. المرجع السابق، ص٨٨، ٨٩ بتصرف.

على تبديل ثلاثة عشر حرفًا من التوراة، وذلك بعد المسيح في عهد القياصرة الذين كانوا تحت قهرهم، حيث زال الملك عنهم ولم يبق لهم مَلِك يخافونه ويأخذ على أيديهم، ومن رضي بتبديل موضع واحد من كتاب الله، فلا يؤمن منه تحريف غيره، واليهود تقرُّ ـ أيضًا ـ أن السامرة حرفوا مواضع من التوراة، وبدلوها تبديلًا ظاهرًا، وزادوا ونقصوا، والسامرة تدَّعي ذلك عليهم".

وأما الإنجيل فإن الذي بأيدي النصارى منه أربعة كتب مختلفة من تأليف أربعة رجال: متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا. فكيف يُنكر تطرق التبديل والتحريف إليهما[1]؟

ماذا يقول علماؤهم؟

وهذه هي بعض من آراء علماء اليهود والنصارى وأحبارهم، تعترف بتحريف الكتاب المقدس ؛ ففي كتاب له بعنوان "هل الكتاب المقدس كلام الله"، وإجابة عن هذا السؤال، يقول عالم مسيحي مشهور، هو د. جراهام سكروغي من معهد مودي في مدينة شيكاغو: "إنه من وضع البشر إلا أنه سماوي"، ويقول أيضًا: "نعم، إن الكتاب المقدس من وضع البشر، ولو أن البعض ينكرون ذلك لشدة تعصبهم. لقد مرت هذه الأسفار في عقول البشر وكتبت بلغة البشر ودبّجت بأقلامهم وبأساليبهم الخاصة".

ويقول عالم مسيحي آخر مشهور هو كنث كراغ مطران القدس الإنجليكاني في كتابه "نداء المئذنة" عن الكتاب المقدس ما نصُّه: "إنه نتاج ملخص، مكثف، محرر، مختار، منسوخ، وكلمات شهود في أسفار العهد الجديد. إن هذه الأسفار خلاصة تجربة وتاريخ". إن لهذه الكلمات معاني واضحة، فهل نحتاج إلى إيضاح أكثر لمعرفة الحقيقة؟[2].

ويقول مجموعة من علماء المسيحية عن الكتاب المقدس "نسخة الملك جيمس"، التي تعدُّ من أدق النسخ، وقد لاقت ثناءً كبيرًا من علماء اللاهوت: "إلا أن في نسخة الملك جيمس هذه عيوبًا خطيرة مُهلكة وهي عديدة، مما يستدعي إعادة التعديل والتنقيح". ليس هذا الكلام لنا، بل هي أقوال لعلماء المسيحية، بل لأكثر علمائهم شهرة؛ فمن أفواههم ندينهم[3]!

ويؤكد تشيندورف الذي عثر على نسخة سيناء ـ أهم النسخ للكتاب المقدس ـ في دير سانت كاترين عام ١٨٤٤م، والتي ترجع إلى القرن الرابع: "إنها تحتوي على الأقل على ١٦٠٠٠ تصحيح ترجع على الأقل إلى سبعة مصححين أو معالجين للنص، بل قد وجد أن بعض المواقع قد تم كشطها ثلاث مرات وكتب عليها للمرة الرابعة".

وقد اكتشف ديلتش أحد خبراء العهد القديم، وأستاذ متخصص في اللغة العبرية، حوالي ٣٠٠٠ خطأ مختلف في نصوص العهد القديم التي عالجها بإجلال وتحفظ.

ويقول القس شورر: "إن الهدف من القول بالوحي الكامل للكتاب المقدس، والمفهوم الرامي إلى أن يكون الله هو مؤلفه هو زعم باطل ويتعارض مع المبادئ الأساسية لعقل الإنسان السليم، الأمر الذي تؤكده لنا

١. هداية الحيارى، ابن القيم، مرجع سابق، ص٢٠٧، ٢٠٨.

٢. أضواء على المسيحية، أحمد ديدات، ترجمة: عادل جلول، دار القارئ، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٨٩.

٣. المرجع السابق، ص٩٦ بتصرف.

الاختلافات البيّنة للنصوص؛ لذلك لا يمكن أن يتبنى هذا الرأي إلا إنجيليون جاهلون، أو من كانت ثقافتهم ضَحْلة".

وحتى أشهر آباء الكنيسة أوجستين قد صرح بعدم الثقة في الكتاب المقدس لكثرة الأخطاء التي تحتويها المخطوطات اليدوية[1].

وقد ذكرت مجلة "استيقظوا" وهي مجلة طائفة مسيحية تُدْعى "شهود يهوه" تصدر في نيويورك في مقال بعنوان: "٥٠٠٠٠ خطأ في الكتاب المقدس" أنه: "ربما هناك خمسون ألف خطأ ـ ربما تسرب الخطأ إلى نصوص الكتاب المقدس ـ خمسون ألف عيب خطير، لكن الكتاب المقدس ككل فهو صحيح" [2]!

والجدير بالذكر في موضوع التحريفات هذا أن علماء اللاهوت يُجْمِعون اليوم على أن أجزاء مختلفة من الكتاب المقدس لم يكتبها المؤلفون الذين يُعزَى إليهم أسماء هذه الكتب.

لذلك يعقد الإجماع اليوم على أنه: لم تكتب كتب موسى ـ وهي الكتب الأولى من الكتاب المقدس: التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، والتثنية ـ بواسطته على الرغم من أن موسى يتكلم إلى حد ما بضمير المتكلم. كذلك يطلق كثيرًا في الكتاب المقدس على الزبور "زبور داود"، والتي لا يمكن أن يكون داود عليه السلام هو قائلها. كذلك لا ينبغي أن تنسب أقوال سليمان إليه. ومن المسلَّم به أيضًا أن جزءًا يسيرًا فقط من كتاب إشعياء يمكن أن يُنسب إليه. وكذلك يبدو أن إنجيل يوحنا لم يكتبه يوحنا الحواري. كذلك لم يكتب القديس بطرس الخطابات التي نُسبت إليه لإعلاء مكانتها. ويمكن أن يقال الشيء نفسه على خطاب يهوذا وعلى خطابات بولس الوهمية المختلقة.

وهذا الواقع يكفي لإثبات التحريفات الكبيرة البيِّنة والمعتمَّدة التي لحقت بالنصوص، والتي لا يمكن لإنسان عاقل أن يدَّعي أن الله ﷻ ـ تبعًا للتعاليم الكاثوليكية: هو مؤلف كل أجزاء هذا الكتاب المقدس ـ قد أوحى بكل هذه التحريفات إلى كاتبيها، أو يدَّعي أنه لم يعرفها أفضل من ذلك[3].

هذه هي شهادات القوم على كتابهم المقدس، وإن كنا نعتقد اعتقادًا جازمًا أن ما ذكره القرآن وحده كاف لإثبات تحريف الكتاب المقدس، ومن ثم فلا عجب أن يتواصى أحبار اليهود، ورهبان النصارى بإخفاء المبشرات الصريحة بالنبي ﷺ وأن يتفقوا على محو اسمه من كتبهم، بسبب الحقد على نبي الإسلام وعداوتهم له؛ لأن من تجرّأ على تحريف موضع واحد من كتاب الله، ليس بعيدًا عليه أن يحرِّف غيره من المواضع، وقد صدق الله تعالى حين قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾ (البقرة) ®.

---

١. حقيقة الكتاب المقدس تحت مجهر علماء اللاهوت، د. روبرت كيل تسلر، ترجمة: علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، مصر، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٨ بتصرف.

٢. أضواء على المسيحية، أحمد ديدات، مرجع سابق، ص٩٩ بتصرف.

٣. حقيقة الكتاب المقدس تحت مجهر علماء اللاهوت، د. روبرت كيل تسلر، مرجع سابق، ص٣٢، ٣٣.

® في "**وقوع التحريف في التوراة والإنجيل**" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الرابعة عشرة، من الجزء الرابع (دعوة النبي ﷺ وتبليغه الوحي).

رابعًا. على الرغم من تحريف الكتاب المقدس، فإنه لا يخلو من البشارات برسول الله ﷺ:

ابتداءً لا يظننَّ أحد أننا حين نتحدث عن بشارات الكتب السابقة برسول الإسلام، إنما نتلمس أدلة نحن في حاجة إليها لإثبات صدق رسول الإسلام في دعواه الرسالة، فرسول الإسلام ليس في حاجة إلى تلك البشارات، حتى ولو سلَّم لنا الخصوم بوجودها؛ فله من أدلة الصدق ما لم يحظ به رسول غيره[1].

البشارات في التوراة:

تعددت البشارات برسول الإسلام في التوراة وملحقاتها، ولكن اليهود أزالوا عنها كل معنى صريح، وصيرَّوها نصوصًا احتمالية تسمح لهم بصرفها عنه ﷺ ومع هذا فقد بقيت بعد تعديلها وتحريفها قوية الدلالة على معناها "الأصلي" من حملها على رسول الله ﷺ؛ لأن حملها على غيره متعذر، أو متعسر، أو محال.

فهي أشبه ما تكون برسالة مغلقة مُحي عنوانها، ولكن صاحب الرسالة قادر ـ بعد فضها ـ أن يثبت اختصاصها به ﷺ؛ لأن الكلام الداخلي الذي فيها يقطع بأنها له دون سواه؛ لما فيها من قرائن وبينات واضحة نعرض ـ فيما يأتي ـ بعضًا منها:

"وهذه هي البركةُ التي بارك بها موسى ـ رجُلُ الله ـ بني إسرائيل قبل موته، فقال: جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من ساعير، وتلألأ من جبل فَارَانَ". (التثنية ٣٣: ١، ٢). في هذا النص إشارة إلى ثلاث نبوات:

الأولى: نبوة الكليم موسى عليه السلام التي تلقَّاها على جبل سيناء.

الثانية: نبوة عيسى عليه السلام وساعير هي قرية مجاورة لبيت المقدس، حيث تلقَّى عيسى عليه السلام أمر رسالته.

الثالثة: نبوة محمد ﷺ وجبل فاران هو المكان الذي تلّقى فيه ﷺ أول ما نزل عليه من الوحي، وفاران هي مكة المكرمة مولد محمد ﷺ ومنشؤه ومبعثه.

ومع ما في النص من بشارتين، فإن موقف اليهود منهما النفي، فلا الأولى بشارة بعيسى ابن مريم ولا الثانية بشارة برسول الإسلام.

أما موقف النصارى فإن النفي ـ عندهم ـ خاص ببشارة رسول الإسلام، ولهم في ذلك مغالطات عجيبة، حيث قالوا إن فاران هي إيلات وليست مكة، وأجمع على هذا الباطل واضعو كتاب قاموس الكتاب المقدس، وهدفهم منه واضح، إذ لو سلَّموا بأن فاران هي مكة المكرمة، للزمهم إما التصديق برسالة رسول الإسلام، وقطع الرقاب عندهم أسهل عليهم من الإذعان له، أو يلزمهم مخالفة كتابهم المقدس.

ولم يقتصر ورود ذكر فاران على هذا الموضع من كتب العهد القديم؛ فقد ورد في قصة إسماعيل عليه السلام مع أمه هاجر؛ تقول التوراة: إن إبراهيم عليه السلام استجاب لسارة بعد ولادة هاجر ابنها إسماعيل وطردها هي وابنها، فنزلت وسكنت في برية فاران على أنه يلزم من دعوى واضعي قاموس الكتاب المقدس من تفسيرهم فاران بإيلات، أن الكذب باعترافهم وارد في التوراة؛ لأنه لم يبعث نبي من إيلات حتى تكون البشارة صادقة، ومستحيل أن يكون هو عيسى عليه السلام؛ لأن العبارة تتحدث عن بدء الرسالات وعيسى تلقى الإنجيل بساعير، وليس بإيلات.

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٤، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٣٢١ بتصرف يسير.

فليست فاران إلا مكة المكرمة باعتراف الكثير منهم، وجبل فاران هو جبل النور الذي به غار حراء، الذي تلقَّى فيه رسول الإسلام ﷺ بدء الوحي. وهجرة إسماعيل وأمه هاجر إلى مكة المكرمة فاران أشهر من الشمس.

ثم إن ترتيب الأحداث الثلاثة في العبارة المذكورة: جاء من سيناء، وأشرق من ساعير، وتلألأ من فاران، هذا الترتيب الزمني دليل ثالث على أن عبارة: "تلألأ من جبل فاران" تبشير قطعي برسول الله ﷺ. وفي بعض النسخ كانت العبارة: "واستعلن من جبل فاران" بدل "تلألأ".

وأيًّا ما كان اللفظ فإن "تلألأ" و "استعلن" أقوى دلالة من "جاء" و "أشرق" وقوة الدلالة هنا ترجع إلى المدلولات الثلاثة، فالإشراق جزء من مفهوم المجيء، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (الزمر) وهكذا كانت رسالة عيسى ابن مريم بالنسبة لرسالة موسى عليهما السلام. أما تلألأ واستعلن فهذا هو واقع الإسلام، رسولًا ورسالة وأمة، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

هذه المغالطة ـ فاران هي إيلات ـ لها مثيل فيما زعمته التوراة من أن هاجر أم إسماعيل عندما أجهدها العطش هي وابنها إسماعيل بعد أن طُردا من وجه سارة طلبت الماء فلم تجده إلا بعد أن لقيا ملاك الرب في المكان المعروف الآن ببئر سبع، وأنها سُمِّيت بذلك لذلك، وكما كذَّبت فاران دعوى إيلات كذَّبت زمزم الطهور دعوى بئر سبع، وستظل فاران ـ مكة المكرمة ـ وزمزم الطهور عملاقين تتحطم على صخورهما كل مزاعم الحقد والهوى.

ويجيء نص آخر في التوراة لا محمل له إلا البشارة برسول الإسلام ﷺ مهما غالط المغالطون، وهو قول الله لموسى حسب ما تروي التوراة: "أقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه". (التثنية ١٨: ١٨، ١٩).

حدث هذا حسب روايات التوراة، وعدًا من الله لموسى في آخر عهده بالرسالة، وكان يهمه أمر بني إسرائيل من بعده، فأعلمه الله ﷻ ـ حسب هذه الرواية التوراتية ـ أنه سيبعث فيهم رسولًا مثل موسى عليه السلام.

ولقوة دلالة النص على نبوة محمد ﷺ فقد وقف أهل الكتابين ـ اليهود والنصارى ـ موقفين مختلفين هدفهما واحد، وهو أن النص ليس بشارة برسول الإسلام. أما اليهود فلهم فيه رأيان:

الرأي الأول: أن العبارة نفسها ليست خبرًا، بل هي نفي، ويقدِّرون قبل الفعل "أقيم" همزة استفهام ويكون الاستفهام معها إنكاريًّا، وتقدير النص عندهم هكذا: "أأقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك.."؟! ويكون المعنى عليه: كيف أقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم؟ أي: لا أفعل هذا.

وهذا الرأي باطل ولن نذهب في بيان بطلانه إلى أكثر من كلام التوراة نفسها؛ وذلك لأنه لو كان النص كما ذكروا بهمزة استفهام إنكاري محذوفة هي في قوة المذكور لكان الكلام نفيًا فعلًا، ولو كان الكلام نفيًا لما صح أن يعطف عليه قوله بعد ذلك:

"ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه". فهذا المقطع إثبات قطعًا؛ فهو مرتب على إقامة النبي الذي وعد به المقطع الذي قبله، فدل هذا العطف على أن المقطع السابق وعد خبري ثابت لا نفي، ويترتب على ذلك بطلان القول الذاهب إلى تقدير الاستفهام.

الرأي الثاني: وفيه استشعار من اليهود ببطلان القول بالاستفهام فاحتاطوا للأمر وقالوا: لا مانع أن يكون النص خبرًا ووعدًا مثبتًا، ولكنه ليس المقصود به عيسى ابن مريم عليه السلام ولا محمد بن عبد الله رسول الإسلام ﷺ، بل المراد به نبي من أنبياء إسرائيل، يوشع بن نون فتى موسى، أو صموئيل!!

موقف النصارى: أما النصارى فيحملون البشارة في النص على عيسى عليه السلام وينفون أن يكون المراد بها رسول الإسلام ﷺ، وقد علمنا من قبل أن اليهود ينفون أن تكون لعيسى عليه السلام.

وللنصارى مغالطات عجيبة في ذلك إذ يقولون إن النبي الموعود به ليس من بني إسماعيل، بل من بني إسرائيل، ومحمد إسماعيلي فكيف يرسل الله إلى بني إسرائيل رجلًا ليس منهم؟!

والواقع أن كل ما ذهب إليه اليهود والنصارى باطل باطل، ولن نذهب في بيان بطلانه إلى أبعد من دلالة النص المتنازع عليه نفسه، أما الحق الذي لا جدال فيه فإن هذا النص ليس له محمل مقبول إلا البشارة برسول الإسلام ﷺ؛ لأنه يقيِّد البشارة بالنبي الموعود به فيه بشرطين:

أحدهما: أنه من وسط إخوة بني إسرائيل.

وثانيهما: أنه مثل موسى عليه السلام صاحب شريعة وجهاد لأعداء الله، وهذان الشرطان لا وجود لهما لا في يوشع بن نون، ولا في صموئيل كما يدعي اليهود في أحد قوليهم. ولا في عيسى عليه السلام كما يدعي النصارى.

أما انتفاء الشرط الأول فلأن يوشع وصموئيل وعيسى من بني إسرائيل ليسوا من وسط إخوة بني إسرائيل، ولو كان المراد واحدًا منهم لقال في الوعد: أقيم لهم نبيًّا منهم ؟! هذا هو منهج الوحي في مثل هذه الأمور كما قال في شأن النبي ﷺ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ (الجمعة: ٢). وكما حكى القرآن على لسان إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ (البقرة: ١٢٩).

وأما انتفاء الشرط الثاني فلأنه لا صموئيل، ولا يوشع، ولا عيسى ابن مريم كانوا مثل موسى عليه السلام؛ فموسى كان صاحب شريعة، ويوشع وصموئيل وعيسى وجميع الرسل الذين جاءوا بعد موسى عليه السلام من بني إسرائيل لم يكن واحد منهم صاحب شريعة، وإنما كانوا على شريعة موسى عليه السلام، وحتى عيسى ما جاء بشريعة، ولكن جاء متممًا ومعدلًا، فشريعة موسى هي الأصل.

إن عيسى عليه السلام كان مُذَكِّرًا لبني إسرائيل، ومجددًا الدعوة إلى الله على هدى من شريعة موسى عليه السلام!! فالمثلية بين هؤلاء ـ وهي أحد شرطي البشارة ـ وبين موسى عليه السلام لا وجود لها.

وبنفس القوة والوضوح اللذين انتفى الشرطان بهما عمن ذكروا من الأنبياء ثبت ذلك الشرطان لمحمد بن عبد الله ﷺ، فهو من نسل إسماعيل، وإسماعيل أخو إسحاق، الذي هو أبو يعقوب المسمَّى إسرائيل، فهو

من وسط إخوة بني إسرائيل - بني عمومتهم - وليس من بني إسرائيل أنفسهم؛ وبهذا تحقق الشرط الأول من شرطي البشارة.

ومحمد ﷺ صاحب شريعة جليلة الشأن لها سلطانها الخاص بها، جمعت فأوعت، مثلما كان موسى أكبر رسل بني إسرائيل صاحب شريعة مستقلة لها منزلتها التي لم تُضارَع فيها قبل من بدء عهد الرسالات إلى مبعث عيسى عليه السلام.

وبهذا يتحقق الشرط الثاني من شرطي البشارة وهو المثلية بين موسى عليه السلام ومحمد ﷺ، فعلى القارئ أن يتأمل ثم يحكم.

لقد ورد في المزامير المنسوبة إلى داود عليه السلام كثير من العبارات التي لا يصح حمل معناها إلا على رسول الإسلام ﷺ، ومن ذلك قول داود كما تروي التوراة: "أنت أبرع جمالًا من بني البشر. انسكبت النعمةُ على شفتيك، لذلك باركك الله إلى الأبد. تقلَّد سيفك على فَخْذك أيها الجبار، جلالك وبهاءك. وبجلالك اقتحِمْ. اركب. من أجل الحق والدَّعَة والبِر، فتُرِيك يمينك مخاوف. نَبْلُك المسنونة في قلب أعداء المَلِك. شعوبٌ تحتك يسقطون. كرسيُّك يا الله إلى دهر الدهور. قضيب استقامة قضيب ملكك. أحببتَ البر وأبغضت الإثم، من أجل ذلك مسحك الله إلهك بدُهن الابتهاج أكثر من رُفقائك...

اسمعي يا بنت وانظري، وأميلي أذنك، وانسَي شعبك وبيت أبيك، فيشتهي الملك حُسنك، لأنه هو سيدك فاسجدي له. وبنت صور أغنى الشعوب تترضَّى وجهك بهدية. كلها مجدٌ ابنة الملك في خِدرها. منسوجة بذهب ملابسها. بملابس مُطرَّزة تحضر إلى الملك. في إثرها عذارى صاحباتها. مقدمات إليك. يُحضرنَ بفرح وابتهاج. يدخلن إلى قصر الملك. عوضًا عن آبائك يكون بنوك، تقيمهم رؤساء في كل الأرض. أذكر اسمك في كل دَور فدور. من أجل ذلك تحمدك الشعوب إلى الدهر والأبد". (المزامير ٤٥: ٢ - ١٧).

وقفة مع هذا الكلام:

في المقطع الأول: لا تنطبق الأوصاف التي ذكرها داود إلا على رسول الإسلام ﷺ، فهو الذي قاتل بسيفه في سبيل الله، وسقطت أمامه شعوب عظيمة كالفرس والروم.

وهو الممسوح بالبركة أكثر من رفقائه الأنبياء؛ لأنه خاتم النبيين، ورسالته عامة خالدة: قال ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنبياء).

ولم يترك رسولٌ هدًى وبيانًا مثلما ترك رسول الإسلام في القرآن الحكيم، وفي أحاديثه وتوجيهاته التي بلغت مئات الآلاف وتعددت المصادر التي سجلتها، وفيها من روائع البيان، وصفاء الألفاظ، وشرف المعاني ما ليس في غيرها.

أما **المقطع الثاني**: فهو أوصاف للكعبة الشريفة، فهي التي تترضاها الأمم بهدايا، وهي ذات الملابس المنسوجة بالذهب والمطرزة، وهي التي يذكر اسمها في كل دور فدور، وتأتيها قوافل الحجيج رجالًا ونساء من كل مكان فيدخل الجميع في قصر الملك، ويحمدها الناس إلى الأبد؛ لأن الرسالة المرتبطة بها رسالة عامة: لكل شعوب الأرض الإنس والجن، وفي مواسم الحج يأتيها القاصدون من جميع بقاع الأرض مسلمين، ورعايا مسلمين من بلاد ليست مسلمة.

ورسالة خالدة لم ينته العمل بها بوفاة رسولها، كما هو الحال فيما تقدم، وإنما هي دين الله تعالى إلى الأبد الأبيد.

إشعياء وسفره من أطول أسفار العهد القديم مليء بالإشارات الواضحة التي تبشر برسول الإسلام ﷺ، ولولا التطويل لذكرنا من ذلك الكثير، ولذا فإننا نكتفي بهذا المقطع لدلالته القوية على ما نقول: "قُومي استنيري، لأنه قد جاء نوركِ، ومجد الرب أشرق عليكِ. لأنه ها هي الظُّلمة تغطي الأرض والظلام الدامس الأمم. أما عليك فيشرق الرب، ومجده عليك يُرى. فتسير الأمم في نورك، والملوك في ضياء إشراقك.

ارفعي عينيك حواليك وانظري. قد اجتمعوا كلهم. جاءوا إليك. يأتي بنوك من بعيد وتحمل بناتك على الأيدي. حينئذ تنظرين وتنيرين ويخفق قلبك ويتسع؛ لأنه تتحوَّل إليك ثروة البحر، ويأتي إليك غنى الأمم. تغطيك كثرة الجِمال، بُكْران مِدْيان وعِيفة كلها تأتي من شَبَا. تحمل ذهبًا ولبانًا، وتبشر بتسابيح الرب. كل غنم قِيدار تجتمع إليك. كِباش نبايوت تخدمك. تصعد مقبولة على مذبحي، وأزيِّن بيت جمالي. من هؤلاء الطائرون كسحاب وكالحمام إلى بيوتها؟ إن الجزائر تنتظرني، وسُفُن تَرشِيش في الأول، لتأتي ببنيك من بعيد وفِضَّتهم وذهبهم معهم، لاسم الرب إلهك وقدُّوس إسرائيل، لأنه قد مجدك. وبنو الغريب يبنون أسوارك، وملوكهم يخدمونك. لأني بغضبي ضربتك، وبرضواني رحمتك. وتنفتح أبوابك دائمًا. نهارًا وليلًا لا تغلق. ليؤتى إليك بغنى الأمم، وتقاد ملوكهم". (إشعياء ٦٠: ١ ـ ١١).

وبلا أدنى ريب نقول: إن هذا الكلام المنسوب إلى إشعياء وصف لمكة المكرمة وكعبتها الشامخة؛ فالمقطع الأول إنما هو حديث عن موسم الحج المبارك فيه يجتمع بنوها حولها من كل مكان، وفيه لمحة قوية جدًّا إلى نحر الهدي صبيحة العيد. ألم يشر النص إلى غنم قيدار، وقيدار هو ولد إسماعيل عليه السلام الذي تشعبت منه قبائل العرب؟ ثم ألم ينص على المذبح الذي تنحر عليه الذبائح؟

كما أشار النص ثلاث إشارات تعد من أوضح الأدلة على أن المراد بهذا النص مكة المكرمة، وتلك الإشارات هي طرق حضور الحجاج إليه، ففي القديم كانت وسائل النقل: ركوب الجمال، ثم السفن، أما في العصر الحديث فقد جدت وسيلة النقل الجوي "الطائرات"، وبشارة إشعياء تضمنت هذه الوسائل الثلاث على النحو الآتي:

الجِمال: قال فيها: تغطيك كثرة الجمال.

السُّفُن: قال فيها: وسفن ترشيش تأتي ببنيك من بعيد.

النقل الجوي: وفيه يقول: من هؤلاء الطائرون كسحاب وكالحمام إلى بيوتها.

أليس هذا أوضح من الشمس في كبد السماء؟!

هذا والنص مليء بعد ذلك بالدقائق والأسرار، ومنها أن مكة مفتوحة الأبواب ليلًا ونهارًا لكل قادم في حج أو عمرة. ومنها أن خيرات الأمم تُجبى إليها من كل مكان، والقرآن يقرر هذا المعنى في قول الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (القصص: ٥٧).

ومنها أن بني الغريب ـ يعني غير العرب ـ يبنون

أسوارها، وكم من الأيدي العاملة الآن، وذوي الخبرات يعملون فيها ويشيدون قلاعها فوق الأرض، وتحت الأرض، ومنها أنه ما من عاصمة من عواصم العالم إلا دخلت في محنة من أهلها، أو من غير أهلها إلا هذه العاصمة المقدسة، فظلت بمأمن من غارات الغائرين، وكيد الكائدين، ومثلها المدينة المنورة.

ومنها كثرة الثروات التي منَّ الله بها عليها. أليس البترول من ثروات البحر العُظْمى التي تفجرت أرض الحجاز وشبه الجزيرة منه عيونًا دفاقة بمعدل لم تصل إليه أمة من الأمم؟ أضف إلى ذلك سبائك الذهب والفضة.

والحديث عن مكة المكرمة حديث عن رسول الإسلام؛ لأن مجدها لم يأت إلا على يدي بعثته ﷺ.

هذه الحقائق لا تقبل الجدل، ومع هذا فإن أهل الكتاب ـ وخاصة اليهود ـ يحملون هذه الأوصاف على مدينة صهيون، ولهذا فإنهم عمدوا إلى النص وعدّلوه ليصلح لهذا الزعم. ولكننا نضع الأمر بين يدي المنصفين من كل ملة: أهذه الأوصاف يمكن أن تُطلق على مدينة صهيون؟

لقد خُرِّب بيت الرب في القدس مرارًا وتعرض لأعمال شنيعة على كل العصور، أما الكعبة الشريفة والمسجد الحرام فلم يصل أحد إليهما بسوء، ثم أين ثروات البحر والبر التي تُجبى إلى تلك المدينة، وأهلُها ـ إلى الآن ـ يعيشون عالة على صدقات الأمم؟!

وأين هي المواكب التي تأتي إليها برًّا، وبحرًا، وجوًّا؟ وهل أبوابها مفتوحة ليلًا ونهارًا؟ وأين هم بنوها الذين اجتمعوا حولها؟! وما صلة غنم قيدار وكباش مدين بها، وأين هو التسبيح الذي يشق عنان السماء منها؟! وأين.. وأين؟

إن هذه المغالطات لا تثبت أمام قوة الحق، ونحن يكفينا أن نقيم هذه الأدلة من كتبهم على صدق الدعوى، ولا يهمنا أن يذعن القوم لما نقول، فحسبك من خصمك أن تثبت باطل ما يدعيه أمام الحق الذي تدافع عنه. والفاصل بيننا ـ في النهاية ـ هو الله الذي لا يُبدّلُ القولُ لديه.

وتنسب التوراة إلى نبي يُدْعى "حَبقوق" من أنبياء العهد القديم، وله سفر صغير قوامه ثلاثة إصحاحات، تنسب إليه التوراة نصوصًا كان يصلِّي بها. تضمنها الإصحاح الثالث من سفره، وهذا الإصحاح يكاد يكون كله بشارة برسول الإسلام ﷺ، وإليكم مقاطع منه: "الله جاء من تِيمان، والقدُّوس من جبل فَارَان ـ سِلاه ـ جَلالُه غطَّى السماوات، والأرض امتلأت من تسبيحه. وكان لمعانٌ كالنُّور. له من يده شعاعٌ، وهناك استتار قدرته. قُدَّامه ذهب الوَبَأ. وعند رجليه خرجت الحُمَّى، وقف وقاسَ الأرض، نظر فرَجَفَ الأمم، ودُكَّت الجبال الدهرية، وخَسَفت آكامُ القدم. مسالك الأزل له... الشمس والقمر وقفا في بروجهما لنور سهامك الطائرة، للمعان برق مجدك، بغضبٍ خطرتَ في الأرض، بسخطٍ دُسْتَ الأمم، خرجت لخلاص شعبك، لخلاص مسيحك، سحقتَ رأس بيت الشرير معرِّيًا الأساس حتى العُنُق ـ سلاه ـ ثقبتَ بسهامه رأس قبائله، عصفوا لتشتيتي. ابتهاجهم كما لأكل المسكين في الخُفيَة، سلكتَ البحر بخيلك". (حبقوق ٣: ٣ ـ ١٥).

ولا يستطيع عاقل عالم بتاريخ الرسالات، ومعاني التراكيب أن يصرف هذه النصوص على غير البشارة برسول الإسلام ﷺ، فالجهتان المذكورتان في مطلع هذا

المقطع وهما: تيمان: يعني اليمن، وجبل فاران: يعني جبل النور الذي بمكة المكرمة التي هي فاران، هاتان الجهتان عربيتان، وهما رمزان لشبه الجزيرة العربية التي كانت مسرحًا أوليًّا لرسالة محمد ﷺ.

فليس المراد إذن نبيًّا من بني إسرائيل؛ لأنه معلوم أن رسل بني إسرائيل كانت تأتي من جهة الشام شمالًا، لا من جهة بلاد العرب، وهذه البشارة أتت مؤكدة للبشارة المماثِلة التي تقدم ذكرها من سفر التثنية، وقد ذكرت أن الله: تلألأ أو استعلن من جبل فاران.

بيد أن بشارة التثنية شملت الإخبار بمقدم موسى عليه السلام والتبشير بعيسى عليه السلام وبمحمد ﷺ، أما بشارة حبقوق فهي خاصة برسول الإسلام ﷺ، ولو لم يكن في كلام حبقوق إلا هذا التحديد لكان ذلك كافيًا في اختصاص بشارته برسول الإسلام ﷺ، ومع هذا فقد اشتمل كلام حبقوق على دلائل أخرى ذات مغزى.

منها: الإشارة إلى كثرة التسبيح حتى امتلأت منه الأرض.

ومنها: دكه ﷺ لعروش الظلم والطغيان، وقهر الممالك الجائرة.

ومنها: أن خيل جيوشه ركبت البحر، وهذا لم يحدث إلا في ظل رسالة الإسلام[1].

البشارات الإنجيلية:

جاء في إنجيل يوحنا: قال المسيح: "وأما الآن فأنا ماضٍ إلى الذي أرسلني، وليس أحدٌ منكم يسألني: أين تمضي؟ لكن لأني قلت لكم، هذا قد ملأ الحزن قلوبكم، لكني أقول لكم الحقَّ: إنه خيرٌ لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المُعزِّي، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم". (يوحنا ١٦: ٥ ـ ٧)، ويأتي المُعزّي: بمعنى روح الحق الذي يفرق بين الحق والباطل.

أجل.. إن رسول الله هو روح الحق؛ ذلك لأن القلوب الميتة لا تحيا إلا بالحق الذي جاء به، وقد بذل كل شيء، وكافح لكي يوصل الهداية إلى الناس، ولم يتميز الحق عن الباطل إلا بعد هذا الجهاد وهذا الكفاح، إذن، فقد جاء المعزِّي الذي بشر به المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام وهو خاتم النبيين والمرسلين محمد رسول الله ﷺ.

وجاء في إنجيل يوحنا أيضًا: "إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الآب فيعطيكم مُعزِّيًا آخر ليمكث معكم إلى الأبد". (يوحنا ١٤: ١٥، ١٦). والآن لنتأمل هذه الفقرات: "وأما المُعزِّي ـ الروح القدس ـ الذي سيرسله الآب باسمي، فهو يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل ما قلته لكم". (يوحنا ١٤: ٢٦).

"ومتى جاء المُعزِّي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب، روح الحق، الذي من عند الآب ينبثق، فهو يشهد لي، وتشهدون أنتم أيضًا؛ لأنكم معي من الابتداء". (يوحنا ١٥: ٢٦، ٢٧).

"لكني أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أنطلق؛ لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المُعزِّي، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم". (يوحنا ١٦: ٧)[2].

جاء في إنجيل يوحنا قول المسيح عيسى عليه السلام: "لا

١. المرجع السابق، ص٣٢١: ٣٣٣ بتصرف.

٢. انظر: النبي المرتقب: الانتظار والقدوم، محمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل، القاهرة، ط٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، ص٦٤.

أتكلم أيضًا معكم كثيرًا؛ لأن رئيس هذا العالم يأتي وليس لهفيَّ شيء". (يوحنا ١٤: ٣٠). ونجد أيضًا في الزبور: "ويملك من البحر إلى البحر، ومن النهر إلى أقاصي الأرض، أمامه تجثو أهل البرِّيَّة، وأعداؤه يلحسون التراب، ملوك تَرشِيش والجزائر يرسلون تقدمةً، ملوك شَبَا وسبأٍ يُقدمون هديةً، ويسجد له كل الملوك، كل الأمم تتعبد له؛ لأنه يُنجي الفقير المستغيث، والمسكين إذ لا معين له، يُشفق على المسكين والبائس، ويخلص أنفس الفقراء، من الظلم والخطف يفدي أنفسهم، ويكرم دمهم في عينيه، ويعيش ويعطيه من ذهب شبا، ويصلي لأجله دائما، اليوم كله يباركه". (المزمور ٧٢: ٨ـ١٥).

يقول عيسى عليه السلام للحواريين: "إن لي أمورًا كثيرة أيضًا لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك ـ روح الحق ـ فهو يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية". (يوحنا ١٦: ١٢ ـ ١٤).

ولعلك أيها القارئ العزيز تستطيع أن تجمع بين قول عيسى في هذه الفقرة، وقول موسى في الفقرة التي وردت آنفًا: "وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به". فتجد الأضواء تسلط على نبي سيأتي، من هذا النبي؟ لم يكن موسى عليه السلام، ولم يكن عيسى ابن مريم عليه السلام، فمن هذا النبي الكريم؟ إن الأضواء تتجمع في بؤرة واحدة لتكشف عن شخصية هذا النبي إنه محمد ﷺ.

وبعدما ذكرناه من هذه البشارات الواضحة الدلالة بالنبي ﷺ في التوراة والإنجيل، فإننا لا نملك إلا القول: بأنه على الرغم من جميع محاولات النصارى واليهود حاليًّا أو في الماضي من الذين تغلغل الغل والحسد إلى عروقهم ونفوسهم، وعلى الرغم من جميع محاولات التحريف التي قاموا بها، فإن التوراة والإنجيل الموجودين حاليًّا ـ يحفلان بالكثير من البشارات حول نبوة محمد ﷺ والعديد من الإشارات إليه، ونعتقد أنه بمجهود المنصفين من المؤرخين قد نعثر على نسخ التوراة والإنجيل والزبور الأقل تعُّرضًا للتحريف، وعندئذ سيرى فيها الجميع، حتى العامة من الناس الإشارات الواضحة التي لا تحتاج إلى أي تفسير أو تأويل حول نبوة رسول الله ﷺ[1].

الخلاصة:

- إن قول الله عز وجل: ﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ لا يُحمَل على ما يتبادر من لفظ "اسم" من أنه "العَلَم"، فكلمة "اسم" لها عدة استعمالات عند العرب، وتختلف دلالة الوصف "أحمد" مع كل استعمال منها؛ فقد يكون معناه: أحمد مني، أي: أفضل من عيسى عليه السلام في رسالته وشريعته، أو أن المعنى: أن سمعته محمودة ذكره محمود في كل الأجيال، وقد يكون المعنى أن اسمه العلم يكون بمعنى أحمد، أي: المحمود حمدًا كثيرًا.
- لقد أشار القرآن في آيات عديدة إلى تحريف التوراة والإنجيل، سواء كان هذا التحريف تحريفًا للفظ أو تحريفًا للمعنى، كما نص على وجود أجزاء كتمها اليهود والنصارى من التوراة والإنجيل كما في قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ (الأعراف: ١٥٧)،

١. المرجع السابق، ص٦٦، ٦٧ بتصرف.

وكما شهد القرآن والمسلمون بتحريف الكتاب المقدس شهد كذلك الكتاب المقدس على نفسه في مواضع كثيرة بثبوت تحريفه.

- كما توصل مجموعة كبيرة من علماء اللاهوت أنفسهم إلى أن الكتاب المقدس يحتوي على أخطاء مُهلكة وآلاف من التغييرات والتزويرات، فلا عجب أن يمحو أهل الكتاب من اليهود والنصارى اسم النبي محمد ﷺ من كتبهم المقدسة وأن يكتموا البشارات الصريحة به ﷺ.

- إن المتأمل في السيرة النبوية المطهرة وكتب الحديث ودواوين التاريخ يجد العديد من الأدلة على تواطؤ اليهود والنصارى على محو اسم النبي محمد ﷺ من التوراة والإنجيل باعتراف من أسلم منهم؛ كعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، والنجاشي، وغيرهم، وقد سأل عمر بن الخطاب أبا مالك بن ثعلبة بن هلال، وكان من أحبار اليهود عن صفات النبي في التوراة، فقال: "إن صفته في كتاب بني هارون الذي لم يبدل ولم يغير أحمد من ولد إسماعيل يأتي بدين الحنيفية دين إبراهيم يأتزر على وسطه ويغسل أطرافه وهو آخر الأنبياء"[1].

- على الرغم من تحريف الكتاب المقدس، فإنه ما يزال به العديد من البشارات بالرسول ﷺ والتي أخفى اليهود والنصارى عنوانها، وحاولوا صَرْف دلالاتها عن البشارة به ﷺ، ولكن على الرغم من هذا، فقد ظلت عشرات المبشرات التي لا يمكن أن تنطبق على أحد إلا على محمد ﷺ في التوراة والإنجيل، والتي لم يستطع اليهود والنصارى إخفاءها أو تبديلها، وستظل مثل هذه المبشرات التي عجزوا عن إخفائها شاهدةً على تلك التي أخفوها.

الشبهة الثانية

إنكار تبشير سيف بن ذي يزن لعبد المطلب جدّ النبي ﷺ بمبعث نبي من نسله(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المشككين القصة التي وردت في المصادر التاريخية الصحيحة، والتي تقول: إن عبد المطلب جد النبي ﷺ سافر في وفد من قريش إلى اليمن، لتهنئة سيف بن ذي يزن بتوليه مُلْك اليمن، وفي هذه المناسبة بشَّر سيف بن ذي يزن عبدَ المطلب بنبيٍّ من نسله وأوصاه بكتمان هذا الأمر عن قومه.

وجها إبطال الشبهة:

١) قصة سيف بن ذي يزن وبشارته لعبد المطلب بنبيٍّ من نسله ثابتةٌ من الناحية التاريخية، ومدونةٌ في أوثق المصادر التاريخية، ولا يمكن التشكيك في ثبوتها مطلقًا.

٢) قصة سيف بن ذي يزن مع عبد المطلب ليست فريدةً في بابها، فالمبشرات بميلاد النبي ﷺ ومبعثه كثيرة جدًّا، وقد أفاضت في ذكرها أحاديث الناس قبل مبعثه ﷺ بزمن.

---

١. الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ، ج٧، ص٣٥٧.

(*) محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

التفصيل:

أولا. بشارة سيف بن ذي يزن لعبد المطلب بالنبي ﷺ ثابتة في أوثق المصادر التاريخية:

في البدء لا بد أن نشير إلى حقيقة مهمة تتعلق بالبشارات الخاصة بالنبي ﷺ مؤداها أن هذه البشارات من الأمور التي خالفت مجاري العادات، وما ألف الناس في كل مولود، فليس النبي ﷺ مثل كل مولود، فلا يصح لعاقل أن يقول إن هذه أوهام سيطرت، وخيالات خُيِّلت، وظنون ظُنت، لمخالفتها ما ألفه الناس[1].

ومع ذلك فإننا نرجِّح صدق هذه البشارات، ولا نلزم الناس بالإيمان بها؛ لأن هذه الأمور ليست جزءًا مما دعا النبي ﷺ إلى الإيمان به، إذ إن ما يجب الإيمان به هو ما دعا إليه ﷺ وما تكلم به عن الله ﷻ، وما نطق به القرآن الكريم، وحكم به الديَّان.

ونحن إذا تأملنا قصة سيف بن ذي يزن، والتي بُشِّر فيها عبد المطلب بأن النبيَّ المرتقب سيكون من نسله ـ نجدها قد وردت في أوثق المصادر التاريخية، وقد تنوعت هذه المصادر، مما لا يدع مجالًا للشك فيها، كما أنه لا يوجد أي مانع عقلي في تصديق هذه القصة، وإليكم هذه القصة كما ذكرها البيهقي في كتابه دلائل النبوة، والتي ينتهي رواتها إلى أبي زرعة بن سيف بن ذي يزن نفسه يقول:

"لما ظهر سيف بن ذي يزن على الحبشة، وذلك بعد مولد النبي ﷺ بسنتين، أتته وفود العرب وأشرافها وشعراؤها لتهنئته، وتذكر ما كان من بلائه وطلبه بثأر قومه، وأتاه وفد قريش منهم: عبد المطلب بن هاشم، وأُميَّة بن عبد شمس، وعبد الله بن جُدْعان، وأسد بن عبد العزَّى، ووهب بن عبد مناف، وقصي بن عبد الدار، فدخل عليه آذنه وهو في رأس قصر يقال له: غُمْدَان، وهو الذي يقول فيه أمية بن أبي الصلت:

اشرب هَنيئًا عَلَيكَ التاجُ مُرتَفِقًا ... في رَأسِ غُمدانَ دَارًا مِنكَ مِحلالَا[2]

وَاشرب هنيئًا إِذ شالَت نَعامَتُهُم[3] ... وأَسبِلِ اليَومَ في بُرْدَيكَ إِسْبالَا[4]

تِلكَ المَكارِمُ لا قُعْبانِ[5] مِن لَبَنٍ ... شِيبَا[6] بِماءٍ فَعادا بَعدُ أَبْوالَا

قال: والملك مُتضمِّخ[7] بالعبير، يلصف وَبِيص[8] المسك في مفرق رأسه، وعليه بردان أخضران مرتديًا بأحدهما متَّزرًا بالآخر، سيفه بين يديه، وعن يمينه وشماله الملوك والمقاول[9]، فأُخبر بمكانهم فأذن لهم، فدخلوا عليه ودنا منه عبد المطلب، فاستأذنه في الكلام فقال: إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك فقد أذنَّا لك.

فقال: إن الله ﷻ أحلَّك أيها الملك محلًّا رفيعًا شامخًا

---

١. خاتم النبيين ﷺ، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص١٠٦ بتصرف.

٢. المحلال: المكان كثير الرواد.

٣. شالت نعامتهم: ولَّت أمورهم أو تفرقوا.

٤. الإسبال: إرخاء الثوب.

٥. القُعْبان: مثنى قُعْب، وهو إناء كبير مصنوع من الفخار.

٦. شاب الشيء: خلطه.

٧. المُتضمِّخ: المتلطِّخ بالطِّيب.

٨. يلصف وَبِيص: يبرق بريق.

٩. المقاول: جمع قيل، وهو الملك من ملوك حمير دون الملك الأعظم، وهو بمنزلة الوزير.

باذخًا منيعًا، وأنبتك نباتًا طابت أَرُومته، وعظمت جُرثُومته[1]، وثبت أصله وبسق فرعه، في أطيب موضع وأكرم معدن، وأنت ـ أَبَيْتَ اللعن[2] ـ ملك العرب الذي له تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومَعْقِلها[3] الذي يلجأ إليه العباد، سلفك خير سلف، وأنت لنا منهم خير خلف، فلن يهلك ذكر من أنت خَلَفُه، ولن يخمل ذكر من أنت سلفه. نحن أهل حرم الله ﷻ وسَدَنَة[4] بيت الله، أشخصنا إليك الذي أبهجنا من كشفك الكَرْبَ الذي فَدَحَنا[5]، فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزأة[6].

قال له الملك: ومن أنت أيها المتكلم؟ قال: أنا عبد المطلب بن هاشم، قال: ابن أختنا. قال: نعم. قال: آذنْه، ثم أقبل عليه وعلى القوم، فقال: مرحبًا وأهلًا ـ وأرسلها مثلًا، وكان أول من تكلم بها ـ وناقة ورَحْلًا، ومستناخًا سهلًا، وملكًا رِبَحْلًا[7] يعطي عطاء جزلًا، قد سمع الملك مقالتكم، وعرف قرابتكم، وقبل وسيلتكم، فإنكم أهل الليل والنهار، ولكم الكرامة ما أقمتم، والجباء[8] إذا ظعنتم[9].

ثم أُنهضوا إلى دار الضيافة والوفود، وأجرى عليهم الأنزال[10] فأقاموا بذلك شهرًا لا يصلون إليه، ولا يؤذن لهم في الانصراف، ثم انتبه لهم انتباهة، فأرسل إلى عبد المطلب فأدناه، ثم قال: يا عبد المطلب إني مُفْضٍ إليك من سر علمي أمرًا لو غيرك يكون لم أبح له به، ولكني رأيتُك معدنه فأطلعتك طلعه، فليكن عندك مخبيًّا حتى يأذن الله ﷻ فيه: إني أجد في الكتاب المكنون، والعلم المخزون، الذي ادخرناه لأنفسنا واحتجبناه ـ دون غيرنا ـ خيرًا عظيمًا، وخطرًا جسيمًا، فيه شرف الحياة، وفضيلة الوفاة، للناس عامة، ولرَهْطك[11] كافة، ولك خاصة.

فقال له عبد المطلب: مثلك أيها الملك سرّ وبرّ، فما هو فداك أهل الوبر[12] زمرًا بعد زمر؟ قال: إذا ولد بتهامة، غلام بين كتفيه شامة كانت له الإمامة، ولكم به الزعامة، إلى يوم القيامة. قال عبد المطلب: أيها الملك، لقد أبتُ بخير ما آب بمثله وافد قوم، ولولا هيبة الملك، وإجلاله وإعظامه، لسألته من سراره إياي وما ازداد سرورًا. قال له الملك: هذا حينه الذي يولد فيه، أو قد ولد، اسمه محمد: يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمه، قد ولدناه مرارًا، والله باعثه جهارًا، وجاعل له منا أنصارًا، يعز بهم أولياءه ويذل بهم أعداءه، ويضرب بهم الناس عن عُرض[13]، ويستفتح بهم كرائم أهل الأرض، يعبد الرحمن، ويدحض ـ أو يدحر ـ الشيطان، ويُخمد النيران، ويَكْسِر الأوثان، قوله فصل، وحكمه عدل، ويأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر

1. الأَرُومة والجُرثُومة: الأصل والنَّسب.
2. أبيتَ اللَّعن: لم تأتِ ما يُوجِب اللعن، وهي عبارة للتنزيه.
3. المَعْقِل: الملجأ والحِصن.
4. السَّدَنَة: الخدم والحجَّاب.
5. فدح: أصاب.
6. المرزأة: المصيبة.
7. الرِّبَحْل: التام الخَلْق والعظيم الشأن.
8. الجِباء: ما يجمعه السادة والملوك من رعاياهم من أموال وغيرها.
9. الظَّعن: التَّرحال.
10. الأنزال: ما يُهيَّأ للضيف من طعام ونحوه.
11. الرَّهْط: العشيرة.
12. أهل الوبر: أهل البادية.
13. الضرب عن عُرض: أي لا يبالون مَن ضربوا.

ويبطله. قال له عبد المطلب: عز جَدُّك[١]، ودام ملكك، وعلا كعبك، فهل الملك سارَّني بإفصاح، فقد وضح لي بعض الإيضاح؟ قال له الملك سيف بن ذي يزن: والبيت ذي الحُجُب، والعلامات على النقب، إنك لجده يا عبد المطلب، غير ذي كذب. قال: فخرَّ عبد المطلب ساجدًا، فقال له ابن ذي يزن: ارفع رأسك ثلج صدرك، وعلا كعبك، فهل أحسست بشيء مما ذكرت لك؟ قال: نعم أيها الملك، إنه كان لي ابن، وكنت به معجبًا، وعليه رفيقًا، وإني زوجته كريمة، من كرائم قومي، آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، فجاءت بغلام فسميته محمدًا، مات أبوه وأمه، وكفلته أنا وعمه.

قال له ابن ذي يزن: إن الذي قلت لك كما قلت، فاحفظه، واحذر عليه من اليهود، فإنهم له أعداء، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلًا، واطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك، فإني لست آمن أن تتداخلهم النَّفاسة[٢] من أن تكون لكم الرئاسة فينصبون له الحبائل[٣]، ويبغون له الغوائل[٤] وإنهم فاعلون ذلك، أو أبناؤهم غير شك، ولولا أني أعلم أن الموت مجتاحي قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلي حتى أصيِّر يثرب، دار ملكي، فإني أجد في الكتاب الناطق، والعلم السابق، أن يثرب استحكام أمره، وأهل نصرته، وموضع قبره ولولا أني أقيه الآفات، وأحذر عليه العاهات، لأعلنت على حداثة سنه أمره، ولأوطأت على أسنان العرب كعبه، ولكن سأصرف ذلك إليك عن غير تقصير بمن معك.

ثم دعا بالقوم، فأمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد سود، وعشر إماء سود، وحلتين من حلل البُرُود[٥]، وخمسة أرطال ذهب، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، وقال: إذا حال الحَول[٦] فأتني بخبره، وما يكون من أمره.

قال: فمات سيف بن ذي يزن قبل أن يحول عليه الحول، قال: فكان كثيرًا ما يقول عبد المطلب، يا معشر قريش، لا يَغبِطني[٧] رجل منكم بجزيل عطاء الملك وإن كثر، فإنه إلى نفاد، ولكن يغبطني بما يبقى لي ولعقبي ذكره وفخره. فإذا قيل: وما هو؟ قال: سَيُعلَم ما أقول ولو بعد حين"[٨].

وليس ثمة ما يستدعي التشكيك في هذه القصة بحال، ولا ما يثير الطعن في صدقها؛ لأنها رويت بأكثر من طريق وذُكرت في أكثر من مصدر "فحق علينا أن نقبلها؛ لأن خبر الصادق يقبل، ما دام لم يُعرف عليه كذب، والأحكام تُبنى على أخبار الصادقين"، ولو كان فيها احتمال الكذب؛ لأنه احتمال غير مبني على دليل ومجرد الاحتمال لا يمكن أن يكون سببًا لرد أقوال الصادقين، وإلا ما حكم قضاء، ولا أُدين مُتَّهم، ولا ثبت حق، ولا دُفع باطل[٩].

أما من ناحية قبول العقل لهذه القصة، فلا نجد أي

١. الجَدّ: العَظَمَة والجلال.
٢. النَّفاسة: الحسد.
٣. الحبائل: الشِّباك.
٤. الغوائل: الدواهي والمهلكات.

٥. البُرُود: جمع بُرد، وهو الكساء المخطَّط أسود مربع فيه صور.
٦. حال الحَول: دار العام.
٧. الغِبْطَة: تمني النعمة التي عند الغير مع عدم زوالها عنه.
٨. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، البيهقي، علّق عليه: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج٢، ص٩: ١٤.
٩. خاتم النبين، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج١، ص١٠٥.

مانع من قبول العقل لهذه القصة، وغيرها من القصص التي تبشِّر بقرب ظهور النبي ﷺ ونحن إذا تأملنا قصة سيف بن ذي يزن، وحديثه مع عبد المطلب لا نجد فيها أي مبالغة حيث: كانت اليمن تابعة للحبشة فكره أهلها حكمهم، ونهض سيف بن ذي يزن لاسترداد عرش آبائه فسعى لدى الإمبراطورية الرومانية لشد أزره فلم يفلح، فالتجأ إلى ملك الفرس فأمده بجيش فحارب الحبشة وانتصر عليها، وقتل واليها الذي كان يُدْعى مسروقًا، فليس هناك اعتراض على ذهاب الوفود العربية لتهنئة ابن ذي يزن من الوجهة التاريخية، أضف إلى ذلك أن الواجب يقضي على رؤساء العرب ذلك لقرابتهم وجوارهم واشتراك مصالحهم التجارية؛ لأنهم كانوا يرحلون إلى اليمن للتجارة في الشتاء كما كانوا يرحلون إلى الشام صيفًا [١].

وكذلك كان يجب عليهم ـ وخاصة سادة مكة ـ أن يهنِّئوا الملك الذي استطاع القضاء على مُلْك الأحباش الذين أرادوا هدم الكعبة من قبل في العام الذي ولد فيه رسول الله ﷺ بزعامة أبرهة الأشرم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فالمتتبع للسيرة النبوية يجد أن هذه القصة ليست فريدة في باب التبشير برسول الله ﷺ؛ فإن ما أخبر به سيفُ عبد المطلب قاله بحيرا لأبي طالب، وعرفه سلمان الفارسي، وأذاعه أحبار اليهود.

ولعل ما أخبر به ابن ذي يزن عبدَ المطلب كان من الأسباب التي جعلت عبد المطلب يكرم النبي ﷺ ويقول لأولاده إذا نحَّوا رسول الله ﷺ عن مجلسه لصغره: "دعوا ابني، فوالله، إن له لشأنًا".

إن الطفل الصغير، ذا المستقبل العظيم، تظهر عليه آيات العظمة والذكاء منذ نعومة أظفاره، ويكون له جاذبية خاصة تميزه عن سائر الأطفال، ويكون محبوبًا مفضلًا على غيره أينما حل، وهذا هو شأن الرجال كما تلونا من سيرهم.

فكان عبد المطلب، جد رسول الله ﷺ يرعاه رعاية خاصة ويؤثره على أولاده بسبب تلك الجاذبية والعظمة الكامنة فيه منذ الصغر، وهذه العظمة كانت تزداد وضوحًا كلما ترعرع وكبر، وقد ثبت مما رواه الصحابة أن رسول الله ﷺ كانت له جاذبية فكانوا يحبونه محبة فائقة ولا يخالفون له أمرًا.

إن عبد المطلب لم يكن يعلم أن محمدًا ذلك الطفل الصغير سيكون رسول الله، لكنه كان يشعر في قرارة نفسه بتلك الجاذبية التي لازمته طول مدة حياته، وبتلك العظمة الكامنة فيه، وهذا هو السر في محبته وشدة رعايته له، ولا سيما أن عبد المطلب كان رجلًا عظيمًا، جليلًا ذا فطنة وفراسة، فكان يقول لأولاده: "دعوا ابني، فوالله، إن له لشأنًا" [٢].

ومن ثم فلا يُقبل قول من يطعن في هذه القصة، ولا في غيرها من المبشرات التي سبقت مبعث النبي ﷺ، وإننا إذا رجعنا إلى ما كتبته الأناجيل الحاضرة في مولد عيسى عليه السلام وطالعنا ما ألزمت به النصارى الذين يؤمنون بها ويزعمون صدقها ـ لوجدنا أن ما تذكره السيرة النبوية لا يعدُّ شيئًا كثيرًا بالنسبة لما ذكرته الأناجيل وأوجبت الإيمان به، ولنقبض قبضة يسيرة مما

١. محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، مرجع سابق، ص٢٨ بتصرف.

٢. المرجع السابق، ص٢٩.

جاء في هذه الأناجيل وما زعمته بالنسبة لولادة المسيح عليه السلام:

- جاء في إنجيل متى أنه: "لما وُلد يسوع في بيت لحم اليهودية، في أيام هيرودس الملك، إذا مجوس من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين: أين هو المولود ملك اليهود؟ فإننا رأينا نَجْمَه في المشرق وأتينا لنسجد له". (متى ٢: ١، ٢).
- وجاء في إنجيل لوقا: "فولدت ابنها البكر وقمَّطته[1] وأضجعته في المِذوَد،[2] إذ لم يكن لهما موضع في المنزل. وكان في تلك الكُورة[3] رُعاة متبدِّين يحرسون حراسات الليل على رعيتهم، وإذا مَلَاك الرب وقف بهم، ومجدُ الرب أضاء حولهم، فخافوا خوفًا عظيمًا. فقال لهم الملاك: لا تخافوا! فها أنا أُبشِّركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب: أنه ولد لكم اليوم في مدينة داود مخلِّص هو المسيح الرب. وهذه لكم العلامة: تجدون طفلًا مُقمَّطًا مضجعًا في مِذوَد. وظهر بغتة مع الملاك جمهورٌ من الجند السماوي مسبحين الله وقائلين: المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرَّة. ولما مضت عنهم الملائكة إلى السماء، قال الرجال الرُّعاة بعضهم لبعض: لنذهب الآن إلى بيت لحم وننظر هذا الأمر الواقع الذي أعلمنا به الرب. فجاءوا مسرعين، ووجدوا مريم ويوسف والطفل مضجعًا في المِذوَد. فلما رأوه أخبروا بالكلام الذي قيل لهم عن هذا الصبي. وكل الذين سمعوا تعجبوا مما قيل لهم من الرعاة. وأما مريم فكانت تحفظ جميع هذا الكلام مريم فكانت تحفظ جميع هذا الكلام متفكرة به في قلبها. ثم رجع الرعاة وهم يمجِّدون الله ويسبحونه على كل ما سمعوه ورأوه كما قيل لهم". (لوقا ٢: ٧ ـ ٢٠).

هذه قبضة مما عند النصارى في أناجيلهم، ولا عجب في موقفهم إذا تذكرنا قول عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إن الإنسان يرى الشَّظيَّة[4] في عين أخيه، ولا يرى الخشبة في عينه هو، وما ذلك إلا لعدم الإنصاف[5].

ثانيًا. قصة سيف بن ذي يزن مع عبد المطلب ليست فريدة في بابها؛ فالمبشرات بميلاد النبي ﷺ ومبعثه كثيرة، وقد فاضت بذكرها أحاديث الناس قبل مبعثه بقرون طوال:

إن الحوادث العظام لا تأتي الناس بغتة، وإنما لها بين يديها مبشر بها ونذير، فالطلُّ رسول ماء السماء المنهمر، وبزوغ الشمس يسبقه فلق الإصباح، وجريان النهر لا يكون إلا بعد قطر الأمطار، ولقد أتت النبوة الخاتمة على هذه السُّنة وذاك النَّسق، فذِكْرُها في الكتب السابقة، وفي كلام الأنبياء قبلها ـ تمهيد لأمرها، وقد كَثُرَ الحديث عنه ﷺ على ألسنة الحكماء وأهل الديانات كَثْرَةً أَهَّلَت أولي الألباب لاستقبال أمره ﷺ، فما كان لنبوة النبوات أن تأتي الناس بغتة[6].

المبشرات بالنبي ﷺ في الكتب السابقة:

فعن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن

---

١. قَمَط الصبيَّ: لفَّه في قطعة قماش في الأيام الأولى من ولادته.

٢. المِذوَد: المكان الذي يُوضع فيه العَلَف للدابة.

٣. الكُورة: ما يقابل المدينة أو المحافظة في العصر الحديث.

٤. الشَّظِيَّة: الفَلقَة التي تتناثر من أيِّ جسم صلب.

٥. خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج١، ص١٠٦، ١٠٧.

٦. مقدمات النبوة وإعداد الرسول ﷺ مع معجزاته وخصائصه، د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء، مصر، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص١٠٣ بتصرف يسير.

العاص ـ رضي الله عنهما ـ قُلْتُ: "أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة، ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سَمَّيتك المتوكل، ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا سخَّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا وقلوبًا غلفًا" [١].

هذا وما بقي من التوراة التي يقدسها بعض أهل الكتاب بعد تحريفها ما يشهد لهذا المحذوف[٢].

وقد أخبر القرآن عن عيسى عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ (الصف).

وتلك بشارة ثابتة بهذا النص، سواء تضمنت الأناجيل المتداولة هذه البشارة أم لم تتضمنها[٣]. هذا من جانب، ومن جانب آخر نجد أن ذكره ﷺ متداولًا على ألسنة المبشرين بمبعثه من بني قومه وغيرهم فيما هو أقرب للقصة التي نحن بصددها، ومن تلك الأخبار ما يأتي:

- **إخبار كعب بن لؤي بأمره ﷺ:**

لقد فاضت بذكره ﷺ أحاديث الناس من قبل مبعثه بقرون طوال، فعن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: كان كعب بن لؤي يجمع قومه يوم الجمعة ــ وكانت قريش تسمِّي يوم الجمعة "عروبة" ــ فيخطبهم فيقول: أما بعد، فاسمعوا وتعلموا وافهموا واعلموا، ليل ساج، ونهار ضاح، والأرض مهاد، والسماء بناء، والجبال أوتاد، والنجوم أعلام، والأوَّلون كالآخرين، والأنثى والذكر، والروح وما يهيج إلي بلى[٤] صائر، فصلوا أرحامكم واحفظوا أصهاركم، وثمِّروا أموالكم، فهل رأيتم من هالك رجع، أوميت نُشر؟ الدار أمامكم، والظن غير ما تقولون، حَرَمُكم زَيِّنُوه وعَظِّمُوه، وتمسَّكوا به فسيأتي له نبأ عظيم، وسيخرج منه نبي كريم ثم يقول:

نهارٌ وليلٌ كلُّ يومٍ بحادثٍ ... سواءٌ علينا ليلُها ونهارُها

يَئُوبان بالأحداثِ حتى تأوَّبا ... وبالنعمِ الضافي[٥] علينا سُتورُها

على غَفْلَةٍ يأتي النبيُّ محمدٌ ... فيُخبِرُ أخبارًا صَدوقًا خَبيرُها

ثم يقول: والله لو كنت فيها ذا سمع وبصر، ويد ورجل لتنصَّبت فيها تنصُّب الجمل؛ ولأَرْقَلْت[٦] فيها إرقال الفحل. ثم يقول:

يا لَيتَنِي شاهدًا فَحْواءَ دَعوَتِه ... حِينَ العَشِيرةِ تَبْغِي الحَقَّ خُذْلانَا

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كراهية السخب في السوق (٢٠١٨).

٢. مقدمات النبوة وإعداد الرسول ﷺ مع معجزاته وخصائصه، د. يحيى إسماعيل، مرجع سابق، ص١٠٣.

٣. المرجع السابق، ص١٠٥.

٤. البِلَى: الفناء.

٥. الضافي: الكثيرة السابغة.

٦. الإرقال: الجدُّ في السير والإسراع.

قال أبو نعيم: وكان بين موت كعب بن لؤي ومبعث رسول الله ﷺ خمسائة عام وستون سنة[١].

- **قصة تُبَّع ملك اليمن:**

وقبل مبعثه ﷺ بسبعة قرون قدم تُبَّع أسعد الكامل ملك اليمن بجيوشه على مكة ويثرب في ذهابه إلى الحيرة، وخلف ابنًا له بين أظهر أهل المدينة فقُتل فيهم غِيلة[٢]، فعزم على استئصال أهلها لقتلهم ابنه، وزاد من عزمه عليهم ما وقع من الأحمر أحد بني عدي مع أحد رجاله الذين اعتدوا على تمره فضربه بمنجله فقتله.

قال ابن إسحاق: وقد كان رجل من بني عدي بن النجار يقال له أحمر عدا على رجل من أصحاب تُبَّع حين نزل بهم فقتله، وذلك أنه وجده في عِذْق[٣] له يجذه فضربه فقتله وقال: إنما التمر لمن أبَّره[٤]، فاقتتلوا، فتزعم الأنصار أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار وَيَقْرونه[٥] بالليل فيعجبه ذلك منهم، ويقول: والله إن قومنا لكرام، فبينما تبع على ذلك من قتالهم إذ جاءه حبران من أحبار اليهود، من بني قريظة عالمان راسخان في العلم حين سمعا بما يريد من إهلاك المدينة وأهلها، فقالا له: أيها الملك لا تفعل، فإنك إن أبيت إلا ما تريد حِيل بينك وبينها ولم نأمن عليك عاجل العقوبة، فقال لهما ولمَ ذلك؟ فقالا: هي مُهاجَرُ نبيٍّ يخرج من هذا الحرم من قريش في آخر الزمان، تكون داره وقراره، فتناهى عن ذلك، ورأى أن لهما علمًا[٦].

- **بشارة نسطور الراهب:**

ويشبه ذلك ما أخبر به نسطور الراهب ميسرة غلام خديجة - رضي الله عنها - أخرج ابن إسحاق والطبري أن رسول الله ﷺ لما بلغ خمسًا وعشرين سنة، خرج في مال خديجة بنت خويلد مع غلام لها يقال له ميسرة إلى الشام، وأن رسول الله ﷺ نزل في ظل شجرة قريبًا من صومعة راهب من الرهبان، فاطلع الراهب إلى ميسرة فقال له: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي[٧].

ولو أنا أردنا أن نتتبع كل الإرهاصات التي بشرت بقرب ظهور النبي ﷺ سنجدها كثيرة جدًّا لدرجة يصعب حصرها والإلمام بها، وما قصة إسلام سلمان الفارسي بمجهولة لأحد في هذا الباب، وعليه فإن قصة سيف بن ذي يزن وتبشيره لعبد المطلب بالنبي ﷺ ليست فريدة من نوعها، حتى ولو كان في هذه المبشرات بعض الخوارق؛ لأن هذا المولود - كما سبق أن قلنا - لم يكن ككل مولود، ولم تكن حياته كحياة غيره من البشر.

ومع وضوح الأمر في تلك البشارات، وأنها لم تكن لغيره ﷺ فإن رسول الله ﷺ لم يعتمد عليها، في تبليغه للناس، وإنما اكتفى بالقرآن، وصريح نسبه وسابق وصفه وحاله بينهم، وكانت تلك البشارات فضلًا من

---

١. مقدمات النبوة وإعداد الرسول ﷺ مع معجزاته وخصائصه، د. يحيى إسماعيل، مرجع سابق، ص١٠٦، ١٠٧.
٢. الغِيلَة: الغفلة.
٣. العِذْق: النخلة بحملها.
٤. أبَّر النخل: لقَّحه ليثمر.
٥. القِرَى: طعام الضيف.
٦. مقدمات النبوة وإعداد الرسول ﷺ مع معجزاته وخصائصه، د. يحيى إسماعيل، مرجع سابق، ص١٠٦، ١٠٧.
٧. المرجع السابق، ص١٢٢.

الله حظي به من سَلِم قلبه، وصدقت وجهته، فلم يكن إيمان من آمن به لأنه عرفه وحسبه أن عرف، ولكنه فضل الله يختص به من يشاء: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ (البقرة). وحسب هذه البشارات أنها من دلائل صدقه ﷺ.

الخلاصة:

- إن قصة سيف بن ذي يزن وتبشيره لعبد المطلب بنبي من نسله ثابتة تاريخيًّا وواردة في أوثق المصادر التاريخية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فهي مقبولة عقلًا، حيث كان الواجب يحتِّم على سادة العرب أن يهنئوا سيف بن ذي يزن لاسترداد عرش آبائه، وذلك لقرابتهم وجوارهم واشتراك مصالحهم التجارية، وعلى الرغم من اشتمال القصة على خوارق لم يألفها الناس، إلا إنها عادية لدى من عندهم علم من الكتاب بصفات النبي ﷺ؛ لأن دلائل نبوته كانت معلومة لديهم.
- إن الحوادث العظام لا تأتي الناس بغتة، ولا نجد حادثًا أعظم من مبعث النبي ﷺ؛ لهذا سبق مولده الكثير من المبشرات، فلم تكن بشارة سيف بن ذي يزن هي الفريدة في بابها، بل وجدنا في الكتب السابقة الكثير من البشارات به، وفي كلام الأنبياء قبله تمهيد لأمره، وقد كثر الحديث عنه على ألسنة الحكماء وأهل الديانات، مما أهَّل أولى الألباب لاستقبال أمره ﷺ وتصديق نبوته فما أخبر به سيفُ بن ذي يزن عبدَ المطلب قاله بحيرا لأبي طالب، وعرفه سلمان الفارسي وأذاعه أحبار اليهود.

الشبهة الثالثة

ادِّعاء أن محمدًا ﷺ لم يتَّصف بصفات الأنبياء؛ لأنه ليس من نسل إسحاق ويعقوب عليهما السلام (*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المغرضين نبوة محمد ﷺ، مستندين في ذلك إلى ما زعموه باطلًا من أنه ﷺ لم تتوفر فيه صفات الأنبياء - عليهم السلام - الذين ورد ذكرهم في التوراة والإنجيل، كما أنه ﷺ ليس من نسل إسحاق ويعقوب - عليهما السلام -، وهذا شرط من شروط النبوة لديهم.

ويرمون من وراء ذلك إلى نفي ما اتَّسم به النبي ﷺ من صفات حسنة - كسائر الأنبياء قبله - وجَعْل النبوة حِكرًا على إسحاق عليه السلام وبنيه؛ بُغية تجريده ﷺ منها.

وجها إبطال الشبهة:

١) جميع الخصائص والسمات التي حددها الكتاب المقدس للأنبياء - مع إيماننا بأن التحريف قد أصابه - تنطبق تمامًا على محمد ﷺ؛ فقد أعطاه الله تبارك وتعالى الخصائص الحسنة كلها التي أعطاها للأنبياء قبله، بل زاد عنها بمواصفات خاصة تتناسب مع كونه ﷺ خاتم النبيِّينَ.

٢) النبوة ليست حكرًا على نبي الله إسحاق عليه السلام وبنيه، بل هي فضل إلهي، وهبة ربانية يهبها الله تبارك وتعالى لمن يشاء، وقد نصّت التوراة على ذلك قبل القرآن الكريم.

(*) قصة الحضارة، ول ديورانت، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠١م.

التفصيل:

أولا. كل ما ورد في الكتاب المقدس من صفات للأنبياء تنطبق تمامًا على محمد ﷺ:

في البداية لا بد أن نشير إلى أن القاعدة العامة التي يقوم عليها اختيار الأنبياء هي قاعدة اصطفاء الله لهم، يقول ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ (آل عمران)، ويقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ (الحج)، وهذا الاصطفاء يمكننا أن نطلق عليه الإطار العام للنبوة، ويمكننا أن نفسر هذا الاصطفاء الإلهي بالاختيار؛ إذ يجب أن تتوفر خصائص معينة في شخص النبي، ولا بد لكل نبي أن يقدم لمجتمعه أدلة على نبوته حتى يتبعوه، ومن ثَمَّ فإن النبوة تتوافق مع مجموعة أدلة ملموسة ومنطقية، تؤكد كلها أن الذي يمتلكها هو نبي حتمًا.

ونحن إذا تتبعنا خصائص الأنبياء والرسل وسماتهم، الذين جاء ذكرهم في الكتاب المقدس بشقيه: "العهد القديم" و "العهد الجديد" ـ مع إيماننا التام بأن أيدي التحريف قد نالتهما ـ نجد أن هذه الخصائص والسمات كلها التي توفرت للأنبياء من قبل، متوفرة في محمد ﷺ، وهي دليل عقلي صريح على نبوته ﷺ، وأنه لم يكن منفصلًا عن غيره من الأنبياء الذين ذُكِرُوا في التوراة والإنجيل.

ويمكننا أن نؤكد هذا بذكر بعض المواصفات والخصائص التي توفرت في جميع الأنبياء والرسل، وتوفرت أيضًا بشكل جلي في محمد ﷺ، بل زاد عنها بمواصفات خاصة تتناسب مع كونه خاتم النبيين وسيد المرسلين، ويمكننا تقسيم هذه المواصفات إلى:

١ . المواصفات العامة للأنبياء قبل نبوتهم:

- **ذكورة الأنبياء وبشريتهم:**

أجمعت الكتب السماوية الثلاثة على أن النبوة محصورة في ذكور البشر فقط، ولم تكن النبوة قط لأنثى من إناثهم، كذلك لم تكن النبوة قط في خنثى، وهي حالة الجنس الشاذة عند البشر، ولقد أجمعت الكتب السماوية الثلاثة أيضًا على أن الأنبياء لم يكن أحد منهم ملاكًا، ولا جنيًّا، ولا شيطانًا.

وكذلك تتفق التوراة مع الأناجيل على أن الأنبياء دائمًا رجال، ومن هنا يتبين لنا مقدار الدقة والمصداقية التي يتمتع بها القرآن الكريم عندما يخبرنا الله تعالى عن ذلك في قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ (الأنبياء: ٧).

- **سلامة عقول الأنبياء:**

تجمع الكتب السماوية الثلاثة على اكتمال عقول الأنبياء، فلم يُعرف عن نبي من الأنبياء إلا الذكاء، ولم يُعرف عنهم بلادة الذهن، ولا البلاهة، ولا الغباوة، ولا حتى شرود الذهن. وقد كان محمد ﷺ أكمل الناس عقلًا وأكثرهم حكمة، ولهذا نجد أن أول من آمن به كان من أقاربه ومعارفه، ولو علموا أنه مصاب في عقله لما اتبعوه.

- **سلامة حواس الأنبياء:**

لم يُعرف عن نبي من الأنبياء أنه كان فاقدًا لحاسة من الحواس الخمس، فلم يكن أحد منهم أطرش، أو ضعيف السمع، وليس هناك أحد منهم أعمى أو أعور، كما لم يكن واحد منهم فاقدًا لحاسة الشم أو اللمس أو

التذوق، ومن غير المعقول تمامًا أن يكون أحد من الأنبياء أخرس، أو لديه عيب من عيوب اللفظ: فأفأة، أو تأتأة، وإلا لكان عاجزًا عن أداء رسالته المكلَّف بها.

وقد كان محمد ﷺ مكتمل الحواس صحيحًا، إلى الحد الذي يمكِّنه من توصيل دعوة ربه؛ و لم يستطع واحد من أعدائه أن ينسب إليه أي عيب في حواسه.

- **ملاحة وجوه الأنبياء:**

لقد كان الأنبياء جميعهم على قدر كبير من ملاحة الوجه، فقد شهدت التوراة ليوسف عليه السلام بالملاحة والحسن، كذلك فإنه ورد عن داود عليه السلام أنه كان وسيم المنظر، ووصف التلمود[1] موسى بأن طلعته بهية، وأنه بلغ ذروة الجمال.

أما محمد ﷺ فقد شهد له الجميع بملاحة الوجه، ونكتفي بشهادة أبو طفيل يصف وجه رسول الله ﷺ: "كان أبيض مليحًا مقَصَّدًا" [2]. أي: ليس بالجسيم ولا الضئيل، ولا عجب فإن ملاحة الوجه من الأمور التي تستميل القلوب إلى سماع أقوال أصحابها.

- **اكتمال الشكل العام للأنبياء:**

لم يعرف عن الأنبياء جميعهم أن أحدًا منهم كان طويلًا للحد المكروه في قومه، ولا قصيرًا للحد غير المرغوب فيه في قومه.

كذلك لم يكن أحد من الأنبياء قزمًا، أو طويل الذراعين إلى الحد الزائد، أو قصيرها إلى الحد الناقص، وكذلك الأرجل.

وكذلك كان النبي ﷺ رجلًا مربوعًا، أي يتناسق جسمه مع وزنه، وما هذا إلا للشرف الذي أعدَّه الله له.

- **سمو أخلاق الأنبياء قبل النبوة:**

ربما اختلفت المجتمعات البشرية في تعريف الأخلاق، ومع ذلك فليس هناك خلاف بين جميع المجتمعات الإنسانية على مظاهر هذه الأخلاق، فمن مظاهر الأخلاق: الصدق والإخلاص ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف وإكرام الضيف والشجاعة والعفة وبر الوالدين وتأدية الأمانة، ونحن مهما بحثنا في الأخلاق فلا نجد عند نبي من الأنبياء خرقًا لهذه القواعد الأخلاقية، ابتداءً من آدم عليه السلام وانتهاءً بمحمد ﷺ.

وقد كان محمد ﷺ مشهودًا له بمكارم الأخلاق قبل بعثته حتى من أعدائه، فقد شهدوا له بالصدق والأمانة، ويؤكد النبي ﷺ في الحديث الصحيح على أنه إنما "بعث ليتمم مكارم الأخلاق" [3].

- **سلامة وطهارة نسب الأنبياء:**

لم يستطع أحد من أعداء نبي من الأنبياء أن يطعن في طهارة نسبه أو عراقته؛ لأن الأنبياء يبعثون من أوسط قومهم نسبًا، وقد كانت قريش تعرف نسب محمد ﷺ، وتعرف أنه انحدر من الأصلاب الطاهرة جيلًا بعد جيل، فلم يكن هناك شيء يشين نسبه الشريف، لا من جهة الأب، ولا من جهة الأم، وإذا كان الفرد السوي من البشر لا يقبل أن يوصف بأنه "ابن زنا"؛ فكيف يمكن أن يقبل الأنبياء ذلك؟ وكيف

1. التَّلمود: مجموعة التعاليم والتقاليد اليهودية المنقولة شفويًّا عن رجال الدين.
2. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب كان النبيُّ ﷺ أبيض مليح الوجه (٦٢١٨).
3. صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، باب ومن كتاب آيات رسول الله ﷺ التي هي دلائل النبوة (٤٢٢١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٥).

يوافق أحد على أن الأنبياء يمكن أن يكونوا أبناء زنا وهم أفضل البشر؟!

- **عدم ميل الأنبياء إلى الشرك قبل نبوتهم:**

على الرغم من أن الأنبياء قبل نبوتهم كان لا يأتيهم الوحي، إلا أن واحدًا منهم لم يُعرف عنه أنه عَبَد أحدًا غير الله، ولا سجد لأحد غيره، ولا أُعْجِبَ أبدًا بوثن أو صنم، كذلك فإن محمدًا ﷺ ترك جميع ممارسات عشيرته الوثنية، ومال إلى الانعزال والتأمل، وعبادة الله حسبما رآه هو أقرب إلى المعقول، وهذا الابتعاد ليس وليد مصادفة، بل هو دليل اختيار من الله لأنبيائه، حتى إذا جاءت النبوة لأحدهم خرست أفواه قومه.

- **جهل الأنبياء بالمعارف البارزة في عصورهم قبل نبوتهم:**

لقد أجمعت الكتب السماوية الثلاثة على أن الأنبياء جميعهم لم يكونوا مشهورين في علم من العلوم، ولا فن من الفنون التي كانت بارزة في عصورهم قبل نبوتهم، وقد كانت بعض المعارف والفنون مثارًا لإعجاب العرب قبل عصر نبوة محمد ﷺ مثل: الشعر والخطابة، وعلى الرغم من هذا لم يُعرف عن محمد ﷺ أنه كان يقول شعرًا، أو يخطب في منتديات مكة، وكذلك فإن العرب كانت تهتم بأنسابها، ولم يكن محمد ﷺ من النسابين قبل نبوته، ومن ثم فإن جميع الأنبياء قبل ظهور نبوتهم كانوا أناسًا عاديين في مجتمعاتهم، يأخذون من المعارف ما تيسر لهم دون قصد منهم.

- **حفظ الله لأنبيائه من الهلاك قبل ظهور نبوتهم:**

لا يمكن بحال من الأحوال أن نقبل أن نبيًّا أراد الله إكرامه بالنبوة، هلك بشكل من الأشكال قبل أن تظهر نبوته - ولا حتى بعدها - ولا شك أن ظهور نبوة محمد ﷺ دليل جليّ على حفظ الله له من الهلاك، كما نجَّى موسى - وهو طفل صغير - من القتل على يد فرعون.

- **كسب الأنبياء لمعيشتهم من تعب أيديهم قبل النبوة:**

إن المتأمل في الوضع المادي والمهني للأنبياء، يجد أنهم لم يكونوا من طبقة فقيرة لدرجة الاستجداء[1]، كما أنهم لم يكونوا أغنياء لدرجة نستطيع معها أن نصنفهم في عداد الأثرياء، فلقد كانوا قبل نبوتهم يكسبون معيشتهم بالدرجة التي تكفل لهم عدم الحاجة إلى طلب المعونة من الناس.

فمن الثابت أن يعقوب عليه السلام قد عمل راعيًا للأغنام - كما ورد في سفر التكوين، كذلك عمل يوسف عليه السلام في رعي الأغنام، قبل نبوته، وكذلك موسى وداود وعيسى - عليهم السلام - رعوا الأغنام، وكذلك محمد ﷺ عمل راعيًا لمدة طويلة، حتى تجاوز الثلاثين من عمره، ومن ثم فإن ارتزاق الأنبياء من خلال ممارستهم لأعمال يدوية لا يمكن إلا أن يكون عملًا مقصودًا أراد الله به أن يعطينا دليلًا على نبوة الأنبياء.

- **مقدرة عقول الأنبياء على استقبال خبر نبوتهم:**

ربما يُظن أن استقبال النبوة أمر عادي يستطيع أي إنسان احتماله، نقصد بذلك: تلك اللحظة التي يُعلِمُ بها الله تعالى اختياره لهذا النبي أو ذاك، والحقيقة غير ذلك تمامًا؛ إذ إن استقبال التكليف بالنبوة أمر لا يحتمله عقل أي كائن من البشر، مهما بلغت مقدرته على تمالك نفسه وجسمه وعقله.

---

1. الاستجداء: سؤال الناس.

إن المتأمل في قصة استقبال محمد ﷺ للوحي أول مرة، يجدها تتشابه إلى حد كبير مع قصة استقبال موسى عليه السلام للوحي أول مرة، فقد ذكرت التوراة مدى الخوف والرعب اللذين تعرض لهما موسى عليه السلام عندما كلمه الله عند طور سيناء، وكذلك روت كتب السيرة الخوف والفزع اللذين تعرض لهما محمد ﷺ عندما نزل عليه جبريل عليه السلام أول مرة في غار حراء.

وما يتعرض له الأنبياء عند تلقيهم الوحي أول مرة لا يستطيع أحد من البشر العاديين أن يحتمله، ولولا أن الله عز وجل قد جعل في هؤلاء الأنبياء قدرات تؤهلهم لتحمل هذه المواقف؛ لذهبت هذه المواقف بعقولهم.

٢. المواصفات العامة للأنبياء بعد نبوتهم:

ما أن تأتي أيَّ نبي النبوةُ حتى تظهر عليه ـ وبشكل ملحوظ ـ مواصفات وخصائص إضافية عن تلك التي كان يتمتع بها قبل النبوة نتحدث عنها باختصار فيما يأتي، ولننظر هل تنطبق هذه المواصفات على محمد ﷺ أو لا؟

- **الدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد:**

إن جوهر دعوة الأنبياء كافة دون استثناء هو الدعوة إلى عبادة الله الواحد، إله الأنبياء والبشر كافة، فقد أرسل الله تعالى موسى عليه السلام نبيًّا إلى فرعون، وإلى بني إسرائيل الذين تأثروا بوثنية الفراعنة، على الرغم من أنهم موحدون في الأصل، وقد جاءت الوصايا العشر في توراة موسى داعية إلى التوحيد ونبذ الشرك، فلقد جاء فيها: "لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. لا تصنع لك تمثالًا منحوتًا، ولا صورة ما مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن ولا تعبدهن، لأني أنا الرب إلهك إله غَيور". (الخروج٢٠: ٣ ـ ٥).

وكذلك تشير الأناجيل إلى أن المسيح عليه السلام كان يدعو إلى التوحيد الخالص لله، فقد ورد على لسانه: "تُحب الربَّ إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك". (متى٢٢: ٣٧)، وقال أيضًا: "الرب إلهنا هو ربٌّ واحدٌ، وتحبُّ الربَّ إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك". (مرقس١٢: ٢٩، ٣٠).

ومن ثم كانت دعوة المسيح للتوحيد الخالص، وكذلك فإن محمدًا ﷺ كان جوهر دعوته الدعوة إلى عبادة الله عز وجل، وهذه الدعوة لم تكن خاصة بقومه فحسب، بل للبشر كافة مهما كانت عقائدهم، فالكل مدعوٌّ إلى توحيد الله، وقد ظل النبي ﷺ مخلصًا لتلك الدعوة منذ بعثته حتى توفاه الله عز وجل.

- **الالتزام بالدعوة والخوف من غضب الله:**

إن المتأمل في حال الأنبياء جميعًا يجدهم ملتزمين بكل كلمة تصدر عنهم، ويطبقونها حرفيًّا، لدرجة أن الناس العاديين يعجزون عن تقليدهم عمليًّا، وكذلك كانت حياة محمد ﷺ تطبيقًا عمليًّا لما يدعو له، فلم يأخذ عليه أحد أعدائه أنه أمر بشيء ولم ينفذه، أو نهى عن شيء وأتى بمثله؛ لأن أي دعوة تنهار إذا لم يلتزم بها صاحبها نفسه.

- **عدم استهداف منافع مادية أو معنوية من النبوة:**

لم يعرف عن نبي من الأنبياء الإقبال على منافع الدنيا المادية والمعنوية، على الرغم من أن الدنيا تساقطت تحت أقدامهم عارضة عليهم كل شيء.

ولذلك نجد النبي ﷺ قد أعرض عن الدنيا بعد أن دانت له، فقد كان زاهدًا في متاعها الزائل، يرضى بأن يجوع يومًا فيصبر، ويشبع يومًا فيشكر، فمن يفعل مثل هذا غير الأنبياء؟!

- **سمو أخلاق الأنبياء:**

قد يتمتع بعض الأشخاص العاديين بسمو الأخلاق، ومع ذلك فإن أخلاق هؤلاء لا يمكن أن ترتقي فتصل إلى أخلاق الأنبياء، فقد كان موسى حليمًا، كما اتصف عيسى بالتسامح، وكذلك كان يحيى رحيمًا، أما محمد ﷺ فقد كان شجاعًا جوادًا سخيًّا بسّامًا متسامحًا، وقد شهد له أصحابه بذلك، كما قال أنس بن مالك: "كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلُقًا" [1].

- **البركة وهي حدوث المعجزات دون دعاء ولا طلب:**

إن الله ﷻ يمنح أنبياءه معجزاته إكرامًا لنبوتهم، وقد أشار العهد القديم إلى أن إبراهيم ﷺ قد جعلت بركته في نسله سواء من جهة إسماعيل، أم من جهة إسحاق: "وأما إسماعيل فقد سَمِعْتُ لك فيه، ها أنا أباركه، وأثمره، وأكثّرُهُ كثيرًا جدًّا". (التكوين ١٧: ٢٠).

وكذلك عرف عن اليهود أنهم يتباركون بتابوت العهد الذي صنعه موسى بيديه، أما محمد ﷺ فقد كان معروفًا عنه بركة يديه؛ فكان لا يلامس شيئًا إلا ويصبح مباركًا، سواء كان إناءً أم وعاءً، وما ذلك إلا لأن البركة ملازمة للنبوة، وهذا ما أكدته قصص الأنبياء وأخبارهم.

- **القدرة على ما لا يقدر عليه غيرهم من البشر:**

من المعروف أن البشر لا يستطيعون الامتناع عن الطعام والماء أكثر من ثلاثة أيام دون أن تتأذى أجسادهم؛ لكن الأنبياء تجدهم يستطيعون الصوم لفترات طويلة دون أن تتأذى أجسامهم، أو قدراتهم، أو حركتهم.

فقد عرف عن أنبياء كثيرين في العهد القديم أنهم صاموا لفترات طويلة، كما ورد عن موسى ﷺ أنه صام أربعين يومًا وليلة دون أن يشرب أو يأكل، وكذلك صام محمد ﷺ صومًا طويلًا، ونهى أصحابه أن يقلدوه في الصوم، وعلّل ذلك بأنه نبي يطعمه الله ويسقيه، بينما هم إذا واصلوا الصوم مثله هلكوا[2].

- **الاحتفاظ بسلامة الأعضاء وحيويتها والثبات حتى النهاية:**

لقد سبق أن ذكرنا أن الأنبياء كلهم عُرف عنهم سلامة الحواس والأعضاء والعقول، والكمال البنيوي لأجسامهم، لكن اللافت للنظر أيضًا هو استمرار هذه الخصائص مع الأنبياء حتى نهايتهم؛ إذ ينمو منهم الواحد حتى يبلغ الشباب، ثم يستمر في الحيوية والشباب حتى نهاية حياته !!

وقد ورد في التوراة عن إبراهيم أنه مات بشيبة

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الكنية للصبي وقبل أن يولد للرجل (٥٨٥٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته (٥٧٤٧).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب التنكيل لمن أكثر الوصال (١٨٦٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم (٢٦٢١).

صالحة، أما موسى فقد مات وعنده مئة وعشرون سنة، ولم يكل بصره، ولم تذهب نضرته.

أما حال محمد ﷺ قبل وفاته كحال الأنبياء كافة، فلم يعتره الكسل، أو الوهن، أو انحناء الظهر، أو الفَنَد[1]، وقد فاضت روحه عن عمر يناهز الثالثة والستين، ولم يُرَ في شعر وجهه ورأسه سوى عدة شعرات بيضاء.

- **العصمة من القتل بعد النبوة:**

على الرغم من أن هناك أنبياء استطاع البشر أن يقتلوهم؛ فإن هؤلاء المقتولين قد انتهت رسالتهم سواء قتلوهم أم لم يقتلوهم، لكن لم يستطع أحد من البشر منفردًا أو مجتمعًا أن يقتل نبيًّا قبل أداء رسالته، فنجد أن الأنبياء أصحاب الشرائع الثلاثة الرئيسة قد عصمهم الله من البشر، فلقد حاول بنو إسرائيل أن يقتلوا موسى وأخاه هارون ـ عليهما السلام ـ عندما أرادا أن يدخلا ببني إسرائيل الأرض المقدسة؛ وذلك حين همَّ بنو إسرائيل برجم موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ بالحجارة عندما غطّت الغمامة خيمة الاجتماع، الأمر الذي أرعب جموع بني إسرائيل، فتراجعوا عن نيتهم.

كذلك هَمَّ الفرِّيسيُّون بقتل المسيح ﷺ عندما شفي يابس اليد في السبت، ثم أحبط الله عملهم: "وإذا إنسان يده يابسة، فسألوه قائلين: هل يحلُّ الإبراء في السبوت؟ لكي يشتكوا عليه. فقال لهم: أي إنسان منكم يكون له خروف واحد، فإن سقط هذا في السبت في حفرة، أفما يمسكه ويقيمه؟ فالإنسان كم هو أفضل من الخروف! إذا يحل فعل الخير في السبوت! ثم قال للإنسان: مُدَّ يدك. فمدَّها. فعادت صحيحة كالأخرى. فلما خرج الفرِّيسيُّون تشاوروا عليه لكي يهلكوه، فعلم يسوع وانصرف من هناك. وتبعته جموع كثيرة فشفاهم جميعًا. وأوصاهم أن لا يظهروه". (متّى ١٢: ١٠ ـ ١٦).

أما محمد ﷺ فقد تنوعت محاولات قتله تنوعًا يصعب معه حصر، والسبب في ذلك يعود إلى كثرة أعدائه من جهة وعنادهم من جهة أخرى، وعلى الرغم من أن جميع محاولات القتل التي تعرَّض لها محمد ﷺ كانت مبتكرة، بل شيطانية، فإنها جميعًا تشترك بصفة واحدة في النهاية، وهي الإخفاق!!

ويعود السر في هذا الإخفاق إلى عصمة الله ﷻ لنبيه ﷺ؛ لأنه وعده بذلك في قوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧).

وهذا من دلائل نبوته ﷺ؛ لأن النبوة متلازمة مع عصمة الله لأنبيائه، بحيث لا يموت النبي قبل أن يؤدي كامل المهمة التي وكّله الله بها[2].

إن ما تحدثنا عنه آنفًا هي سمات وخصائص عامة لجميع الأنبياء الذين يؤمن بهم اليهود والنصارى، وقد تحدثنا عن هذه السمات من خلال الكتاب المقدس، وما رسمه للأنبياء من صورة وإطار يجمع بينهم، وقد لاحظنا مدى تطابق هذه الصفات على نبي الإسلام محمد ﷺ، وقد رأينا كذلك مدى توفر كل هذه السمات والخصائص في النبي ﷺ، فقد أعطاه الله كل الصفات والخصائص الحسنة التي أُعطيت للأنبياء الذين سبقوه في ظهور النبوة، وهذا يبطل أي زعم يقول بأن محمدًا ﷺ كان خارج الإطار الذي رسمه الكتاب

١. الفَنَد: فساد العقل والرأي.

٢. انظر: قوانين النبوة، موفق الجوجو، دار المكتبي، دمشق، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٢٧: ١٥٢.

المقدس للأنبياء من قبله، وكيف ذلك؟ وكل ما أثبتناه من خلال الكتاب المقدس نفسه، ينطبق على محمد ﷺ، الخصائص والصفات والسمات شهد التاريخ على توافرها جميعًا للنبي ﷺ، والتاريخ خير شاهد.

ثانيًا. النبوة ليست حكرًا على إسحاق عليه السلام وبنيه:

النبوة فضل إلهي وهبة ربانية، يهبها الله لمن يشاء من عباده، ويختص بها من يريد من خلقه، وهي لا تُدرك بالجد والتعب، ولا تُنال بكثرة الطاعة والعبادة، وإنما هي بمحض الفضل الإلهي ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ (البقرة).

فهي - إذًا - اصطفاء واختيار، ولا تكون إلا لمن اختاره الله تعالى لها، ممن هم أهل لحملها، والنبوة لا تكون بالوراثة ولا تكون بطريق الغلبة والاستعلاء، إنما هي اختيار، يختار الله تعالى لها أفضل خلقه وصفوة عباده، يختارهم لحمل الرسالة، ويصطفيهم من بين سائر البشر لهذا العمل الجليل، كما وضَّح البارئ عز وجل ذلك في كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾﴾ (الحج)، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ (آل عمران)[1].

إذن فالله تعالى وحده هو الذي يجعل النبوة في قوم ويرفعها من آخرين، ولا يستطيع أحد من الخلق أن يصادر الله هذا الحق، فيزعم أن النبوة مقصورة على قبيل دون قبيل، أو على جنس دون جنس، فَمَنْ هذا الذي يستطيع أن يمنع رحمة الله أن تصل إلى عباده؟

وإذا كانت الديانات السماوية جميعها تقر بأن الله سيحاسب الناس جميعًا ويجازيهم على الإحسان والإساءة، فهذا دليل على ضرورة أن يبعث الله أنبياءه لكل البشر، فلا يجعل النبوة حكرًا على قوم دون قوم.

وإذا كان الله تعالى قد شاء أن يجعل النبوة - في إحدى حلقاتها - في بني إسحاق عليه السلام، وذلك لا شك كرامة لهم، وتفضيل لهم على غيرهم من الأمم المعاصرة لهم، فهذا لا يعني بحال من الأحوال استمرار النبوة فيهم، واستمرار تفضيلهم على الأمم مع تبدل أحوالهم، وكفرهم بنعمة الله، وقتلهم بعض الأنبياء بغير حق.

وخلاصة هذه الحقائق أن الله عز وجل هو الذي يصطفي من عباده من يشاء، ولا يستطيع أحد - من بني إسرائيل أو من غيرهم - أن يزعم أن الله قد أوقف النبوة عليهم دون غيرهم، فهذا تدخُّل في مشيئة الله عز وجل، لا يقبله مؤمن بقدرة الله تعالى وبكمال صفاته أيًّا كان دينه، وخصوصًا إذا علمنا أن هذا الزعم لا يعتمد على أي دليل لا من العقل ولا من النصوص الدينية، بل ما ورد في هذه النصوص يثبت وجود أنبياء من غير بني إسرائيل، حيث نفت التوراة قصر النبوة على بني إسرائيل، فقد ورد فيها خمسة رسل من غير بني إسرائيل وهم: مَلْكِي صادق، ويثرون، وبلعام، وأيوب، ويونس.

وكذلك ورد في العهد القديم الكثير من الأدلة على أن نبيًّا من نسل إسماعيل سيظهر في بلاد العرب، ففي سفر إشعياء جاءت هذه النبوة: "وَحيٌ من جهة بلاد العرب: في الوعر في بلاد العرب تَبيتِين، يا قوافل الدَّدانيين. هاتوا ماء لملاقاة العطشان، يا سكان أرض

1. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، دار الصابوني، السعودية، ١٣٩٠هـ، ص٨ بتصرف يسير.

تيماء. وافوا الهارب بخبزه. فإنهم من أمام السيوف قد هربوا. من أمام السيف المسلول، ومن أمام القوس المشدودة، ومن أمام شدة الحرب. فإنه هكذا قال لي السيد: في مدة سنة كسنة الأجير يَفنَى كل مجد قِيدار، وبقية عدد قِسِيِّ أبطالِ بني قيدار تقلُّ، لأن الرب إله إسرائيل قد تكلم". (إشعياء ٢١: ١٣ ـ ١٧).

وتيماء هي المدينة المنورة، وبنو قيدار هم أبناء إسماعيل، وكذلك الددانيين، والمدينة المنورة تحوي الآبار والزرع والنخيل، كذلك فإن سكان تيماء، وهم الددانيون، يتوجب عليهم استقبال ذلك الهارب وأصحابه القيداريين، الذين هم من قريش، الذين سينتهي مجدهم المشهود له في التوراة.

فلقد هاجر محمد ﷺ إلى المدينة المنورة وأتباعه ليقيموا بأمان في المدينة، وبعد سنة من الهجرة جرت معركة بدر التي قتل فيها صناديد ـ قيدار ـ قريش.

"على أن السيد المسيح قد فنَّد شبهة علماء اليهود، القائلة بأن النبوة في إسحاق إلى الأبد بقوله: لماذا تقولون: إنها في إسحاق إلى الأبد؟ وأجابوا: لأنه بكر إبراهيم. فقال المسيح: إذا كانت البكورية هي التي تدل على أن النبوة في النسل إلى الأبد؛ فإن إسماعيل هو البكر وليس إسحاق".

وعلى كلٍّ فسواء ورد في الكتاب المقدس ذكر لنبوة إسماعيل ووجود نبوة في نسله أم لا؛ فإن النبوة ثابتة لإسماعيل عليه السلام ولمحمد ﷺ كما ينص القرآن الكريم، وبالأدلة العقلية التي سبق أن أوردناها. فالله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، ولا يحق لأحد أن يصادر حق الله في هذا؛ فإن كانت حكمة الله العلية قد حددت لكل إنسان رزقه، فلم يشأ الله أن يترك أمر الرزق لأهل الأرض، بل قسم ووزع وحدد لكلٍّ نصيبه، فكيف يترك أمر النبوة إلى أهواء الناس؟ فالذي وهب الرزق ولم يستثن أحدًا من خلقه هو الذي وهب النبوة، ولم يقسرها على قبيل دون آخر[1].

الخلاصة:

- إن المتأمل في صفات الأنبياء وخصائصهم التي وردت في الكتاب المقدس يجدها تنطبق تمامًا على محمد ﷺ مثل: الذكورة والبشرية، وسلامة عقله، وسلامة حواسه وملامح وجهه، واكتمال شكله العام، وسمو أخلاقه، وسلامة نسبه وطهارته، وعدم ميله إلى الشرك قبل نبوته، وجهله بالمعارف البارزة في عصره قبل نبوته، وحفظ الله له من الهلاك قبل ظهور نبوته، وكسبه لمعيشته من تعب يديه، ومقدرة عقله على استقبال خبر النبوة.

- كذلك توفر للنبي ﷺ كل سمات الأنبياء بعد ظهور النبوة عليه، مثل: دعوته الخالصة لعبادة الله وحده، والتزامه بالدعوة والخوف من غضب الله، وعدم استهدافه للمنافع الدنيوية، ومنح الله البركة له، والقدرة على ما لا يقدر عليه غيره من البشر، واحتفاظه بسلامة أعضائه وحيويتها وشبابه حتى موته، وعصمة الله له من القتل؛ بل زاد عن ذلك ببعض الخصائص التي لم تتوفر لأي نبي قبله، ولا عجب فهو سيد خلق الله وخاتم النبيين.

- النبوة ليست حكرًا على إسحاق عليه السلام وبنيه، وإنما هي ثابتة أيضًا لإسماعيل وبنيه، أقر بذلك القرآن الكريم والتوراة الصحيحة، وعليه فلا يجوز لأحد أن

١. المرجع السابق، ص٩ بتصرف.

يقصر النبوة على قوم دون قوم تبعًا لهواه؛ لأن الله ﷻ وحده هو الذي يجعل النبوة في قوم، ويرفعها عن آخرين، قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

الشبهة الرابعة

الطعن في نبوته ﷺ بزعم خمول ذكره وفساد خصاله(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشكِّكين أن محمدًا ﷺ ليس نبيًّا، ولا يصلح أن يكون نبيًّا، ويستدلون على ذلك بأن حياته ليس فيها ما يلفت النظر - إذا ما قيست بالمقاييس الحديثة - ذلك أنه عاش حياة عادية ساذجة طيلة أربعين سنة - قبل البعثة - ويزعمون أنه ﷺ لم يكن سَوِيًّا نفسيًّا؛ وذاك أنه كان يتَّصفُ بصفاتٍ غَيْرِ شريفة؛ كالغرور والطمع والمكر والخداع. ويهدفون من وراء ذلك إلى إنكار نبوته ﷺ بوصم سيرته بما لم يكن فيها من خمول مدَّعي وفساد مزعوم.

وجها إبطال الشبهة:

١) لو كان محمد ﷺ على حال تلفت الأنظار إليه - خطيبًا مُفَوَّهًا، أو شاعرًا فَحْلا، أو كاتبًا مبدعًا أو عالمًا - لكان ذلك أدعى إلى التشكيك في نبوته، ولكنه عاش حَسَنَ السيرة، مشتهرًا بالصدق والأمانة، وهذه الصفات من أقوى الأدلة على نبوته وإلهية ما جاء به.

٢) إن جميع الصفات النفسية التي حباها الله ﷻ محمدًا ﷺ لهي غاية ما يُتصوَّر في الإنسان من النبل والسمو، وما كان لهذه الصفات أن تجتمع بهذا الكمال إلا في نبي، بل إنها لم تكتمل في نبي كما اكتملت في محمد ﷺ.

التفصيل:

أولا. حال النبي ﷺ قبل بعثته تؤكد نبوته وصدق ما جاء به:

هذه الدعوى تربط بين أمرين لا يصح لعاقل منصف أن يربط بينهما؛ فهي تربط بين النبوة التي يختار الله ﷻ لحملها أناسًا يصطفيهم من خلقه، وبين الحياة التي يحياها هؤلاء المصْطَفَوْن قبل اصطفائهم واختيارهم للنبوة والرسالة، واشترط أصحاب هذه الدعوى أن يحيا الرسول المصطفى - قبل بعثته - حياةً تأخذ بالأبصار، وحياة تلفت الأنظار.

ولقد وضع هؤلاء لهذه المعيشة وتلك الحياة مقاييس اكتفوا بوصفها بالحداثة! وهم يقصدون بتلك المقاييس الحديثة أن يتصف الرسول - أيّ رسولٍ - قبل بعثته بالغنى والثراء، وأن يكون عالـمًا كبيرًا، أو شاعرًا عملاقًا، أو خطيبًا مفوّهًا، أو كاتبًا مبدعًا.. وكل هذه المقاييس في عرفهم تُسْلم المرء إلى أن يكون مشهورًا لامعًا يشار إليه بالبنان ويُحترم في كل زمان ومكان.

وإن المرء ليعجب مما انطوى عليه فكر هؤلاء؛ لقد أنكروا نبوة محمد ﷺ مستندين إلى أن حياته قبل البعثة لم

(*) مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م. أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة، د. أحمد عبد العزيز الحداد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

تلفت أنظار الناس في عصره.

ولو كان ﷺ على هذه الحال التي تلفت الأنظار، كأن يكون خطيبًا مفوّهًا، أو شاعرًا فَحْلًا، أو عالمًا، أو كاتبًا مبدعًا، أو غنيًّا غنى فاحشًا؛ لكان هؤلاء أوّلَ من استند إلى هذه الحال في إنكار نبوته ﷺ وإنكار إلهية ما أُنزل عليه، ولكانوا أوّل قائلٍ: إنه ألّف القرآن من عند نفسه معتمدًا في ذلك على ماله الكثير، أو إبداعاته في الشعر والخطابة!!

إننا نتفق مع هؤلاء في ذهابهم إلى أن النبي ﷺ عاش قبل النبوة حياة لا تلفت الأنظار مستندين في ذلك إلى مقاييسهم، وذلك أنه عاش أربعين سنة، فلم يشتهر بشيء أكثر من أنه كان قويم السيرة صادقًا أمينًا، وهذا من أقوى أدلة المسلمين على نبوته.

فإن رجلًا يمضي زهرة الشبيبة، وهي عهد التوثب لبلوغ المجد، والتطلع لتحقيق المطامع، ساكنًا وادعًا، حتى إذا شارف سن الكهولة، هب بهمة لا تعرف الملل لجمع البشرية كلها على كلمة جامعة، مضحيًا في سبيلها بنفسه وماله وصفاء باله، واجدًا من جرائها من الاضطهاد وضروب الأذى ما لا قدرة لأحد على احتماله، في مدة لا تقل عن ثلاث سنوات، ثم يضطر بعدها لقضاء بقية حياته في جلاد وجهاد لتحقيق ما يرمي إليه ـ لا يعقل أن يكون قد صدر في التحول الذي حدث في سيرته، عن هوى في نفسه، أو خبث في طويته، ولكن عن أمر جَلَلٍ، لا يكون أقل من النبوة.

ولو نشأ النبي ﷺ على حال تلفت الأنظار من المواهب، لكان هذا أدعى إلى التشكيك في نبوته[1].

وعلى الرغم من ذلك فإن حياته ﷺ لفتت الأنظار واسترعت الانتباه من زاوية أخرى، ومقاييس تختلف اختلافًا بيّنًا عن المقاييس التي وضعها الطاعنون وكأنها مقاييس مَلِكٍ أو سلطان؛ وذلك أن حياته ﷺ قبل البعثة لم تكن حياة عادية، فلقد جمع ﷺ في نشأته خير ما في طبقات الناس من ميزات، وكان طرازًا رفيعًا من الفكر الصائب، والنظر السديد، ونال حظًّا وافرًا من حسن الفطنة، وأصالة الفكرة، وسداد الوسيلة والهدف، وكان يستعين بصمته الطويل على طول التأمل واستكناه الحق، وطالع بعقله الخصب وفطرته الصافية صحائف الحياة وشئون الناس وأحوال الجماعات، فعاف ما سواها من خرافة، ونأى عنها، ثم عايش الناس على بصيرة من أمره وأمرهم، فما وجده حسنًا شارك فيه، وإلا عاد إلى عزلته المعتادة؛ فكان لا يشرب الخمر، ولا يأكل مما ذبح على النُّصُب[2]، ولا يحضر للأوثان عيدًا ولا احتفالًا، بل كان من أول نشأته نافرًا من هذه المعبودات الباطلة، حتى لم يكن شيء أبغض إليه منها، وكان كارهًا للحلف باللات والعزى.

ولا شك أن الله تعالى أحاطه ﷺ بالحفظ، فعندما تتحرك نوازع النفس لاستطلاع بعض متع الدنيا، وعندما يرضى باتباع بعض التقاليد ـ غير المحمودة ـ تتدخل العناية الربانية للحيلولة بينه وبينها[3].

إن محمدًا ﷺ شخص ليس كبقية الأشخاص، فقد حباه الله ﷻ عقلًا راجحًا لا نظير له في البشر جميعًا، فما كان له أن يهجر عقله ويتبع غيره، ولذلك فإنه كان ينظر

١. مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، مرجع سابق، ص٩١، ٩٢ بتصرف يسير.

٢. النُّصب: ما نُصِبَ ليُعبد من دون الله مثل الأصنام.

٣. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، دار المؤيد، الرياض، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص٦٢، ٦٣ بتصرف يسير.

إلى العادات، والأعراف، والتصرفات السائدة في البيئة التي نشأ فيها نظرة فكر وتأمل، فإذا كانت صالحة كان أول الآخذين بها والمشجعين عليها.

أما إذا كانت العادة السائدة في هذه البيئة لا تتفق مع عقل ولا منطق ولا خلق كريم، فقد كان رسول الله ﷺ يتأثر بها تأثرًا عكسيًّا، فيقف ضدها ويحاربها ويعمل على إزالتها[1].

ويتضح مما سبق أن المقاييس التي اشترط مثيرو هذه الشبهة وجودها في حياة النبي ﷺ قبل بعثته، والتي استندوا إلى نفي وجودها في حياته ﷺ للخلوص إلى القول بإنكار نبوته ﷺ لا تصلح أن تكون معايير للنبوة، وهي إن صلحت فإنما تصلح لأن تُرْصَدَ في رجلٍ يُعَدُّ لملكٍ أو سلطة، والنبي ﷺ لفت الأنظار بمقاييس تختلف عن مقاييس هؤلاء، لفتها بمقاييس أخلاقية سامية أهَّلته لتحمُّل الرسالة.

ثانيًا. جميع الصفات النفسية التي خلقها الله تعالى في محمد ﷺ هي غاية ما يُتصور في الإنسان من النبل والسمو:

لقد خالف هؤلاء المشككون - عن قصد أو جهل - الدلائل القاطعة التي تنصُّ على نزاهته ﷺ ونبل أخلاقه وسموِّ شمائله، من إقرار إلهي بسموِّ أخلاقه وعظمتها، متمثلًا في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (القلم)، ومن اعتراف بهذا السمو وتلك العظمة، من أعدائه قبل أتباعه!!!

إن مبدأ "المخالفة" يقتضي أن هؤلاء يشترطون في الشخص الذي يُصْطفى للرسالة والنبوة - شروطًا، أهمها: ألا يكون متكبرًا ولا طَمَّاعًا ولا ماكرًا ولا خَدَّاعًا.. وهذه الصفات انتفت عنه ﷺ انتفاءً محضًا لا شبهة في ذلك، وثبتت أضدادها ثبوتًا كاملًا فيه ﷺ.

ويعلق الشيخ محمد الخضري قائلًا: "كان ﷺ أحسن قومه خُلقًا، وأصدقهم حديثًا، وأعظمهم أمانة، وأبعدَهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، حتى كان أفضلَ قومه مروءةً، وأكرمَهم مخالطة، وخيرهم جوارًا، وأعظمهم حلمًا، وأصدَقهم حديثًا، فسمَّوه الأمين لما جمع الله ﷻ فيه من الأمور الصالحة الحميدة، والفعال السديدة؛ من الحلم، والصبر، والشكر، والعدل، والتواضع، والعفة، والجود، والشجاعة، والحياء، حتى شهد له بذلك ألدُّ أعدائه - النضر بن الحارث - من بني عبد الدار؛ حيث يقول: "قد كان محمد فيكم غلامًا حَدَثًا[2]، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانةً، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشَّيب وجاءكم بما جاءكم قلتم: ساحر!! لا والله ما هو بساحر" [3].

ولما سأل هِرَقْلُ ملك الروم أبا سفيان قائلًا: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، فقال هرقل: ما كان ليدعَ الكذب على الناس ويكذب على الله[4].

---

١. دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ، محمد روَّاس قلعه جي، دار النفائس، بيروت، ط٣، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٣٩، ٤٠ بتصرف.

٢. الحَدَث: صغير السن.

٣. أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، جماع أبواب المبعث، اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله تعالى من الإعجاز.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة (٢٧٨٢)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧).

وقد حفظه الله ﷻ في صغره من كل أعمال الجاهلية التي جاء شرعه الشريف بضدها، وبُغِّضَتْ إليه الأوثان بغضًا شديدًا حتى ما كان يحضر لها احتفالًا أو عيدًا مما يقوم به عُبَّادُها"[1].

وهكذا؛ فقد كان ﷺ يتمتع بأفضل الأخلاق وأشرفها، على عكس ما يدَّعون، فلم يكن مغرورًا كما يدَّعون، بل على العكس من ذلك تمامًا، لقد كان ﷺ متواضعًا أشد ما يكون التواضع، وهو في ذلك المثل الكامل، وله منه الحظ الوافر، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تُحْصَى:

فمن تواضعه ﷺ ما جاء عن عمر بن الخطاب ؓ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد الله، فقولوا: عبد الله ورسوله"[2].

فقوله "لا تطروني" أي: لا تبالغوا في مدحي بالكذب كما بالغت النصارى في مدح نبي الله المسيح عيسى ؑ فجعلوه إلهًا، وابن إله، فإن هؤلاء إنما عميت أبصارهم عن دلائل الحدوث وشواهده، وقوله: إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله، وفي نسخة إنما أنا عبد الله: معناه: إنما أنا عبد ورسول بدليل قوله: فقولوا: عبد الله ورسوله، وفي هذا القول إشارة إلى قوله ﷻ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾(الكهف: ١١٠)، ثم لا يلزم من كونه عبد الله ورسوله مساواة غيره له ﷺ في العبودية لله ﷻ التي هي شهود الربوبية، وعدم الغفلة عنها؛ لأنه ﷺ أكمل الخلق في هذا الوصف الذي هو عين الكمال الإنساني.

ومن تواضعه ﷺ ما جاء عن أنس بن مالك ؓ: أن امرأة كان في عقلها شيء، فقالت: يا رسول الله، إن لي إليك حاجة، فقال: "يا أم فلان، انظري أيَّ السككِ شئتِ حتى أقضي لك حاجتك"، وزاد أنس: "فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها"[3]، والغرض من البعد ألا يسمع شكواها أحد ممن كانوا مع رسول الله ﷺ، وجاء: "أن الأمة كانت تأخذ بيده ﷺ فتنطلق في حاجتها"[4].

وفي هذا من كمال تواضعه ﷺ ما لا يخفى، وذُكر: "أنه ﷺ كان لا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي لهما الحاجة"[5].

ومن تواضعه ﷺ أن الله تعالى خيَّره بين أن يكون نبيًّا عبدًا، أو نبيًّا ملكًا، فاختار العبودية تواضعًا لله ﷻ، وهذا ثابت من حديث أبي هريرة، ولفظه: جلس جبريل ؑ إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل، فقال له جبريل ؑ: "هذا الملك ما نزل منذ خُلق قبل الساعة". فلما نزل قال: "يا محمد، أرسلني إليك ربك أَمَلِكًا أجعلك أم عبدًا رسولا"؟ فقال له جبريل: "تواضع لربك يا محمد"، فقال ﷺ: "لا، بل

١. نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، محمد الخضري بك، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ص١٤.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ﴾(مريم: ١٦) (٣٢٦١).

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب قرب النبي ﷺ من الناس وتبركهم به (٦١٨٩).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الكبر (٥٧٢٤).

٥. صحيح: أخرجه النسائي في المجتبى، كتاب الجمعة، باب ما يستحب من تقصير الخطبة (١٤١٤)، وابن حبان في صحيحه، كتاب التاريخ، باب من صفته ﷺ وأخباره (٦٤٢٣)، وصححه الألباني في تحقيق المشكاة (٥٨٣٣).

عبدًا رسولا" [١]. فأين في هذا ما يزعمونه من طموح وغرور؟!

وثبت في كتب السيرة: أنه ﷺ كان في سفر فأمر أصحابه بإصلاح شاة ذُبحت: فقال رجل: يا رسول الله، عليّ سلخها. وقال آخر: عليّ طبخها. فقال رسول الله ﷺ: "وعليّ جمع الحطب"، فقالوا: يا رسول الله، نكفيك العمل، قال: "قد علمت أنكم تكفونني، ولكني أكره أن أتميز عليكم، وإن الله يكره من عبده أن يراه متميزًا عن أصحابه"، فأين هذا مما يرمونه به من صفات غير شريفة؟

وهذه الأحاديث ظاهرة الدلالة على غاية تواضعه ﷺ، ورغبته الدائمة في التواضع، وفي التقليل من زخرف الدنيا ونعيمها وإظهار أنها حقيرة، وأن ما عند الله خير وأبقى؛ فإنه ﷺ ما كان يحب أن يمجده أصحابه أو يبالغوا في إطرائه، كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم عليه السلام فجعلوه إلهًا أو ابن إله فزاغوا وضلوا، وكان ﷺ يقف مع صاحب الحاجة حتى يقضيها له لا يستكبر على هذا، ولو كان صاحب الحاجة عبدًا أو امرأة [٢].

وبعدُ، فهل يُعْقَل بعد هذه المواقف التي تدل دلالة واضحة قاطعة على تواضعه ﷺ أن يأتي مُدَّع فيدَّعي أنه ﷺ كان مغرورًا متكبرًا؟! وإنا نطالب هؤلاء بأن يأتوا لنا بموقف واحدٍ يدلُّ على اتصافه ﷺ بهذه الصفة الذميمة، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ (الكهف).

وكما كان النبي ﷺ سيد المتواضعين كان سيد الزُّهاد القانعين ولم يكن طامعًا في أمرٍ من أمور الدنيا، كما ادعى مثيرو هذه الشبهة.

فقد كان ﷺ أزهد الناس، ويكفيك في تعريف ذلك أن فقره كان فقر اختيار لا فقر اضطرار؛ لأنه ﷺ فتحت عليه الفتوح وجلبت إليه الأموال وهو معرض عن الدنيا كلَّ الإعراض، ينام على الحصير، حتى يُرَى أثره في جنبه الشريف، فإذا قال له أصحابه له: ألا نبسط تحتك ألين منه، يقول: "ما لي وللدنيا، ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها" [٣].

وكذلك كان ﷺ يقنع باليسير من الدنيا ويقول: "اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا" [٤][٥].

تقول السيدة عائشة: ما رفع رسول الله ﷺ قط عشاء الغداء، ولا غداء العشاء، ولا اتخذ من شيء زوجين ولا قميصين، ولا رداءين ولا إزارين ولا من النعال [٦].

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة رضي الله عنه (٧١٦٠)، وأبو يعلى في مسنده، مسند أبي هريرة رضي الله عنه (٦١٠٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٠٢).

٢. محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي الحسيني، دار الشروق، جدَّة، ط٣، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص١٦٧: ١٧٢ بتصرف.

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، من مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (٢٧٤٤)، والحاكم في مستدركه، كتاب الرقاق (٧٨٥٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٦٩).

٤. القُوت: ما يقوم به بدن الإنسان.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه (٦٠٩٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب في الكفاف والقناعة (٢٤٧٤).

٦. أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤/ ١٠١)، السيرة النبوية، باب ذكر تقلله وزهده وتبتله في العبادة.

"وكان ﷺ لا يدخر شيئًا لغد"[1]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "والذي نفس أبي هريرة بيده، ما شبع ﷺ وأهله ثلاثة أيام تباعًا من خُبز حِنْطَة[2] حتى فارق الدنيا"[3].

وكان يمر به الشهر والشهران وما يوقد في بيته نار، إنما هو التمر والماء، فعن عروة عن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - أنها كانت تقول: "والله يا ابن أختي، إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار، قال، قلت ياخالة فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان التمر والماء..." الحديث[4].

"وقد قُبض ﷺ ودرعه مرهونة عند رجل يهودي على ثلاثين صاعًا من شعير أخذها رزقًا لعياله"[5]. وتقول السيدة عائشة - رضي الله عنها -: "لقد مات رسول الله ﷺ وما شبع من خبز وزيت في يوم واحد مرتين"[6][7].

1. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب معيشة النبي ﷺ وأهله (٢٣٦٢)، وابن حبان في صحيحه، كتاب التاريخ، باب من صفته ﷺ وأخباره (٦٣٧٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٤٦).
2. الحِنْطة: القمح.
3. أخرجه مسلم في صحيحه، أوائل كتاب الزهد والرقائق (٧٦٤٩).
4. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة وفضلها، باب فضلها والتحريض عليها (٢٤٢٨)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، أوائل كتاب الزهد والرقائق (٧٦٤٢).
5. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي ﷺ (٢٧٥٩)، وفي مواضع أخرى.
6. أخرجه مسلم في صحيحه، أوائل كتاب الزهد والرقائق (٧٦٤٣).
7. محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي الحسيني، مرجع سابق، ص١٥٦: ١٥٨ بتصرف.

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: اشتد وجع النبي ﷺ وعنده سبعة دنانير أو تسعة فقال: "يا عائشة، ما فعلت تلك الذهب"؟ فقلت: هي عندي، قال: "تصدَّقي بها"، قالت: فشغلت به ثم قال: "يا عائشة، ما فعلت تلك الذهب"؟ فقلت: هي عندي، فقال "ائتني بها"، قالت: فجئت بها فوضعها في كفه، ثم قال: "ما ظن محمد أن لو لقي الله وهذه عنده؟ ما ظن محمد أن لو لقي الله وهذه عنده"[8]؟

وبعدُ، فهل يَعْقل من عقل سليم أنَّ رجلًا يتصف بالطمع، ثم لا يكون في بيته قبل وفاته ﷺ سوى سبعة دنانير يأمر أهله أن يتصدقوا بها[9]؟!!

وكذلك فلم يكن من صفاته المكر أو الخداع، فلم يعرف عنه ﷺ أنه نقض عهدًا، أو خالف وعدًا، أو غدر بإنسان، بل إنه ﷺ كان يقابل الغدر دائمًا بالعفو والصفح، وله ﷺ في ذلك من المواقف الكثير، وسنكتفي هنا بموقف واحد من ذلك:

"دخل رسول الله ﷺ مكة، ولكن عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو ومن جمعوا من الناس أبوا إلا قتالًا، فهزموا وفروا، ثم استأمنوا فأمنوا، بل عُفي عنهم، بل أُعطوا من غنائم هوازن تأليفًا لقلوبهم"[10].

8. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٤٦٠٤)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب الفقر والزهد والقناعة (٧١٥)، وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.
9. انظر: الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، مرجع سابق، ص٤٦٧.
10. محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي، مرجع سابق، ص١٥٩.

"إن ظهور هذه الصفات النفسية والسلوكية في وقت مبكر من حياة رسول الله ﷺ، وإن اطراد هذه الصفات، وعدم تخلفها في موقف من المواقف وبروزها بسرعة، ودون تكلف ـ ليدل على أنها صفات فطرية أصيلة في نفس رسول الله ﷺ وفي تركيبته السلوكية، أوجدها الله تعالى فيه؛ ليؤهله بها للرسالة التي يحمل أعباءها فيما بعد"[1].

قال القاضي عياض: "وكان ﷺ مجبولًا على هذه الصفات في أصل خلقته وأول فطرته، لم تحصل له باكتساب ولا رياضة، إلا بجود إلهي وخصوصية ربانية، وهكذا لسائر الأنبياء"[2].

وبهذا يتبين أن النبي ﷺ لم يتصف بالغرور والطمع، والمكر، وخداع النفس؛ إذ لو كان كذلك، لاستخدم كل ما يمكن من وسائل ليصل إلى التسلط على قومه.

ثم إن ما حققه ﷺ من الأمور العظيمة طوال مدة رسالته في كهولته وشيخوخته، لا يمكن تحققه في مثل تلك المدة اليسيرة على يد رجل يتصف بالغرور والمكر وخداع النفس®.

١. دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ، د. محمد رواس قلعه جي، مرجع سابق، ص٧٥ بتصرف.

٢. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ج١، ص٩٧.

® في **"حسن خلق النبي ﷺ وعدم فحشه في القول"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الخامسة، من الجزء الثاني (أخلاق النبي ﷺ). وفي **"زهد النبي ﷺ وجوده وتواضعه"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الخامسة، من الجزء الأول (حياة النبي ﷺ الخاصة). والشبهة العاشرة، والوجه الأول، من الشبهة الحادية والعشرين، من الجزء الثاني (أخلاق النبي ﷺ). والوجه الأول، من الشبهة الحادية والعشرين، من الجزء الرابع (دعوة النبي ﷺ وتبليغه الوحي).

الخلاصة:

- لو كان النبي ﷺ قبل بعثته على حالٍ تلفت الأنظار إليه ـ كأن يكون خطيبًا أو شاعرًا أو كاتبًا مبدعًا أو عالـمًا ـ لكان ذلك أدعى إلى التشكيك في نبوته، ، ثم إنه ﷺ قد لفت الأنظار بمقاييس أخلاقية أخرى تختلف عن مقاييس الطاعنين التي لا تتناسب إلا مع الملوك والسلاطين، ولا تتناسب مع رسل رب العالمين تبارك وتعالى.
- لو كان محمد ﷺ رجلًا يمتلئ قلبه بالغرور وصدره بالطمع؛ لاستخدم كل ما يملكه من وسائل ليصل إلى التسلط على قومه، ولكنه اتصف بكثير من الصفات النبيلة: كالزهد، والتواضع، وعدم المكر والخداع، وهذا النبل والسمو والاكتمال لا يمكن أن يجتمع في نفس إلا بعناية إلهية، ولمهمة خاصة يريد الله تعالى أن تحملها تلك النفس.

الشبهة الخامسة

دعوى أن ما أصابه ﷺ من رعب أثناء لقائه الأول مع جبريل عليه السلام دليل على عدم نبوته(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أنَّ الرعب والخوف اللذين أصابا النبي ﷺ أثناء لقائه الأول مع جبريل عليه السلام حينما أتاه بغار حراء، دليلٌ على عدم نبوته، ويستدلون

(*) محمد في مكة، مونتجمري وات، ترجمة: د. عبد الرحمن الشيخ، حسين عيسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م.

على ذلك بأن الرعب والخوف لا معنى لهما في هذا الموقف، ثم إنهما - حسبما يزعمون - لم يحدثا لنبي من الأنبياء قبله في بداية نبوته، وبأن محمدًا ﷺ لو كان نبيًّا حقًّا لما سمح لجبريل عليه السلام أن يأخذه ويهزَّه بشدة ثلاث مرات حتى آلمه، ولفعل كما فعل موسى عليه السلام حينما جاءه ملك الموت يقبض روحه، فلطمه موسى عليه السلام وفقأ عينه.

ويهدفون من وراء ذلك إلى إنكار نبوت محمد ﷺ، واتهامه ﷺ بأنه كان بدعًا من الرسل في نبوته؛ بغية إخراجه ﷺ بذلك من جملتهم.

وجوه إبطال الشبهة:

١) النبي ﷺ بشر يطرأ عليه ما يطرأ على سائر البشر، فلا عجب أن يصاب بالخوف والرعب حال إعلامه ﷺ بالنبوة، وهو أمر لا يحتمله عقل أيِّ كائن من البشر، مهما بلغت مقدرته على تملُّك مكونات نفسه وجسمه وعقله وسائر قُواه.

٢) لم يكن النبي ﷺ بدعًا من الرسل - عليهم السلام - في شعوره بالرعب عند إعلامه بالنبوة، ورهبته ﷺ لا تقلُّ عن رهبة موسى عليه السلام - مَثَلا - عند إعلامه بالنبوة، وإن احتمالهما لهذه الحادثة - وإن أحسَّا برعب وفزع - لدليل قاطع على نبوتهما عليهما السلام

٣) هناك فرقٌ كبيرٌ بين ما حدث لمحمد ﷺ حينما هزَّهُ جبريل ثلاث مرات، وبين ما فعله موسى عليه السلام حينما لطم ملك الموت؛ ذاك أن جبريل عليه السلام جاء للنبي ﷺ بصورته الملائكية، وهو أول لقاء به، بينما جاء ملك الموت لموسى عليه السلام في صورة بشرية، فظنه رجلًا؛ فلطمه دفاعًا عن نفسه.

التفصيل:

أولا. بشرية النبي تقتضي خوفه من أمر لم يتوقعه، ولا يحتمله البشر:

في البداية لا بد أن نوضح تلك الحقيقة التي لا مراء فيها، وهي أن النبي ﷺ - وسائر الأنبياء والرسل - بشر كغيرهم من البشر، يطرأ عليهم ما يطرأ على سائر البشر من مشاعر وآفات وتغييرات وآلام وأسقام، وهذا كله لا يعد نقيصة فيه ﷺ؛ لأن الشيء إنما يسمَّى ناقصًا بالإضافة إلى ما هو أتمُّ منه وأكمل من نوعه، وقد كتب الله عز وجل على أهل هذه الدار كلها بأنهم فيها يحيون، وفيها يموتون، ومنها يخرجون، فالمرض والشكوى منه، والإحساس بالحر والبرد، وإدراك الجوع والعطش، والغضب والضجر، والتعب والضعف، والموت، كل ذلك من سمات البشر، والتي لا محيص عنها[1].

ولقد بيَّن تعالى هذه الحقيقة في كثير من آيات القرآن كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ (الكهف: ١١٠).

وبناءً على ما سبق، فإننا لا نجد أيَّ غرابة ولا غضاضة في أن يصاب النبي ﷺ بالرعب والخوف من رؤيته لجبريل عليه السلام أول مرة؛ لأنه ﷺ بشر، وقد حدث له شيء غريب لم يحدث له من قبل.

وفيما يأتي نفصِّل الحديث عن هذا اللقاء كما روته كتب السنة:

فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان

---

١. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، مطابع دار الصحيفة، مصر، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص١٠١.

لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنَّث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة - رضي الله عنها - فيتزوَّد لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حِراء، فجاءه الملك فقال له: "اقرأ"، فقال: "ما أنا بقارئ"، قال: "فأخذني فغطَّني[1] حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) ﴾ (العلق)".

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - فقال: "زمّلوني[2] زمّلوني"، فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوْع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: "لقد خشيتُ على نفسي"، فقالت خديجة: "كلَّا، والله ما يُخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرَّحم، وتحمل الكَلَّ، وتكْسِب المعدوم، وتَقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق" [3].

فهذا الحديث يبيِّن بداية تلقي النبي ﷺ لأمر نبوته أول مرة، وما أصابه ﷺ من الخوف والرعب يؤكد بشريته ﷺ وإلهية ما أُنزِل عليه، فقد تعرض ﷺ في لقائه هذا في غار حراء للمفاجأة، وتحققت هذه المفاجأة ثلاث مرات متواليات:

الأولى: في دخول المَلَك عليه ﷺ مختلاه ومتعبده، دون تمهيد يُشعِر النبي ﷺ بأن أحدًا سيدخل عليه في الغار.

الثانية: في رؤيته للملك جبريل عليه السلام على صورته الملائكية، وقد سدَّ الأفق.

الثالثة: في أمره بالقراءة عقب دخوله عليه مباشرة، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب! وفي كل ذلك نوع من المفاجأة الباغتة المؤثرة على الطبيعة البشرية بما يهزُّ كيانها هزًّا يُقْحِم عليها الرعب والفزع.

ومن هنا كان خوف النبي ﷺ وفزعه خوفًا وفزعًا بشريًّا، رجف منه فؤاده وسائر جسده، وظهرت على بشريته آثاره، حتى هدأت نفسه، فتلقَّى رسالة ربه متثبتًا، مغمورًا بأنوار شهود العزة الإلهية في يقين لا يداخله أدنى شك في اصطفائه رسولًا بعد اجتبائه نبيًّا من الصالحين، ثم إن قوله ﷺ: "فغطني حتى بلغ مني الجهد" يبين مدى الشدائد التي صحبت رسول الله ﷺ في هذا اللقاء المفاجئ إلى جانب ما تقدم ذكره، إذ غطه الملك ثلاث مرات، والغط: العصر الشديد، وحبس النفس، وكأنه أراد: ضمني وعصرني[4]، وفي كل مرة من هذا الغط بلغ من رسول الله ﷺ الجهد مبلغه وغايته حتى ظن بنفسه الموت.

ثم إن هذا الغط وذلك العصر له دلالة عظمى وهي إشعار الرسول ﷺ من أول وهلة تلقى فيها الوحي بأن مهمته مهمة ثقيلة وكذلك مهمة كل داع إلى الله عز وجل، ألم

---

١. الغَطُّ: هو العصر الشديد.

٢. زمَّل: لفَّ، يقال: تزمَّل بثوبه إذا التفَّ فيه.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله (٤٢٢).

٤. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٢٣٠ بتصرف يسير.

يأته الوحي قريبًا من ذلك بسورة المزمل وفيها: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ (المزمل)؟!

ثانيًا. لم يكن النبي بدعًا من الرسل في شعوره بالخوف والرعب عند إعلامه بالنبوة:

لقد ادعى مَنْ أثار هذه الشبهة أن النبي ﷺ كان بدعًا من الرسل في شعوره بالخوف والرعب عند إعلامه بالنبوة، وفي ذلك إنكار نبوته ﷺ وإخراجه من جملة الأنبياء لمخالفته - كما يدَّعون - لهم في حالته وقت نزول الوحي.

وإن ادعاء هؤلاء مردود بما ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة والكتب المقدسة، وسنكتفي هنا برصد اللحظات التي تعرض فيها موسى عليه السلام لحادثة إعلامه بأمر نبوته، يقول موفق الجوجو في كتابه "قوانين النبوة":

عندما انطلق موسى عليه السلام وزوجته عائدًا إلى مصر عبر الصحراء تاه عند مفترق الطرق، في الوقت الذي حلكت فيه الظلمة، في ليلة ليس فيها قمر ولا ضياء، وحانت من موسى عليه السلام التفاتة جعلته يدرك أن نارًا يمكن الوصول إليها تضيء في مكان قريب.

ترك موسى عليه السلام زوجته في مكانها خشية أن يضيع عن مفترق الطرق، وقال لها: إن هذه النار التي رأيناها ما هي إلا دليل على وجود أشخاص بالقرب منها قد أوقدوها لسبب أو لآخر، فاقعدي حتى أجلب شيئًا من النار للتدفئة، أو أسأل عن الطريق الصحيحة المؤدية إلى مصر.

يقول الله عز وجل في قرآنه الكريم: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ ﴾ (طه).

وتوجّه موسى عليه السلام إلى النار وعيونه محدقة فيها؛ آملًا أن يشاهد الخيمة التي يأوي إليها الأشخاص الذين أشعلوا النار، أو الأغنام التي أشعل لها الرعاة النار بالقرب منها لإخافة وحوش الصحراء.

واقترب موسى عليه السلام إلى الحدِّ الذي تبيَّن معه تمامًا أنه ليس هناك بشر ولا أغنام، عند ذلك أصبح عليه السلام يدور في رأسه سؤال واحد: من الذي أشعل النار إذًا؟ في هذه اللحظة سمع صوتًا يقول له: يا موسى! قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ (طه).

تلفَّت موسى عليه السلام خلفه فلم يجد أحدًا، فلو وضعتَ نفسك بدلًا منه؛ لسألت نفسك سؤالًا واحدًا: من يقول هذا الكلام ولا أراه؟ ومن يستطيع أن يعرف اسمي في هذه الصحراء الموحشة؟ عندها سوف تجد في نفسك إجابة واحدة: إنه جنِّي!

وهنا يصل الرعب إلى أقصى درجات الإحساس به، ومع ذلك تماسك موسى، لكنه لم يجب، ولم ينبس ببنت شفة[1]، لشدة الخوف الذي اعتراه، عند ذلك أخبره الله عز وجل: ﴿ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ ﴾ (طه).

عند ذلك خفَّف الله تعالى من حالة الرعب التي أصابته، وشرح له قصة النار التي شاهدها، فقال عز وجل: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ (النمل).

تمالك موسى عليه السلام نفسه عندما أنزل الله تعالى

---

١. بِنْت شَفَة: الكلمة.

سكينته عليه، لكنه بقي صامتًا لا يتكلم، لكن الله ﷻ جعله يستأنس عندما حاوره، فقال الله ﷻ له: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ (طه).

ألقى موسى عليه السلام عصاه إلى الأرض فإذا هي ثعبان مبين، فخاف خوفًا شديدًا، فاستدار راكضًا، وظل يركض حتى ناداه الله تعالى، وقال له: إن الأنبياء لا يخافون، لأني أنا الذي أرسلتهم، وأنا أتولى حمايتهم، قال ﷻ: ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (النمل).

رجع موسى عليه السلام إلى مكانه عندما علم أن الله عاصمه من كل شيء، ومدَّ يده فتلقى ذيل الأفعى فعادت عصا كما كانت، فقال له الله: أدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء فتعود إلى حالتها الطبيعية عند إدخالها في جيبك مرة أخرى، عندها فعل موسى عليه السلام ما أمره الله: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ (النمل).

وذهب الرَّوْع تمامًا عن موسى عليه السلام وأخبره الله تعالى بأنه سيؤيده بتسع معجزات؛ لتكون دليلًا على نبوته أمام فرعون وبني إسرائيل، عند ذلك انطلق لسان موسى عليه السلام، وأخذ يسأل ربه ما شاء الله أن يسأل.

وقد اعتمدنا آنفًا الرواية القرآنية لمشهد الإخبار بالنبوة عند موسى عليه السلام، وهي رواية توضح تمامًا حقيقة ما نروي، على الرغم من أن الرواية القرآنية لا تتعارض بشكل كبير مع الرواية التوراتية لهذا المشهد الرهيب.

وواضح بعد هذا كله أن مشهد الإخبار بالنبوة عند محمد ﷺ - كما سبق أن ذكرنا - لا يقل رهبة عن رهبة المشهد عند موسى عليه السلام إلا أن المشهد عند محمد ﷺ محدَّد المكان تمامًا، ومحدَّد الزمان بدقة متناهية.

ويتضح مما حدث لموسى ومحمد - عليهما السلام - عند إعلامهما بالنبوة أن استقبال خبر النبوة لأول مرة صعب جدًّا، لا يستطيع أي إنسان احتماله، ولا حتى إدراك وقعه وصعوبته.

ولعل مشاهدة أو معايشة حادثة غير متوقعة لا يستطيع البشر تحمُّلها - أمر غير مستطاع، وربما أدى إلى الذهاب بعقول الناس، ودليل ذلك ما نستطيع لمسه لدى المرضى النفسيين الذين أذهبت حوادث صعبة عقولهم، وعلى النقيض من ذلك فإنك تجد الأنبياء بعد حادثة مرعبة مثل حادثة الإعلام بالنبوة يزدادون بعدها حكمة وذكاء وبصيرة، لا يستطيع أن يَرقَى إليها أحد من البشر.

وعلى العموم فإن ظهور النار في وسط صحراء مظلمة، وكلام الله ﷻ لموسى عليه السلام، وظهور أمين الوحي جبريل عليه السلام لمحمد ﷺ في الجبل تارة وفي السماء تارة أخرى وفي صحراء مظلمة أيضًا، مكلِّمًا إياه بلغة الأمر - ليس أمرًا عاديًّا يستطيع أي شخص احتماله.

إنَّ أحدًا من البشر العاديين لا يستطيع احتمال موقف واحد من المواقف التي تعرَّض لها هؤلاء الأنبياء الكرام، ولولا أن الله ﷻ قد جعل في هؤلاء الأنبياء

قدرات تؤهلهم لتحمل هذه المواقف، لذهبت هذه المواقف بعقولهم، ولما كانوا قادرين على إتمام استقبال الوحي، وبالتالي متابعة النبوة[1].

ونخلص من هذا إلى أن النبي ﷺ لم يكن بدعًا من الرسل - عليهم السلام - في شعوره بالخوف والرعب عند إعلامه بالنبوة، فما أصابه أصاب موسى وسائر الأنبياء - عليهم السلام - قبله، فلماذا يستند المغرضون إلى هذا الشعور في إنكارهم نبوته ﷺ دونهم؟!

ثالثًا. الفرق بين رؤية النبي ﷺ جبريل عليه السلام في الغار بصورته الملائكية، ومجيء ملك الموت لموسى في صورته البشرية:

لقد سبق أن تحدثنا عن الأسباب التي دفعت النبي محمد ﷺ للخوف والرعب الشديدَيْنِ، وكذلك ذكرنا ما حدث له ﷺ من مفاجآت في لقائه الأول بجبريل عليه السلام ومنها أن جبريل عليه السلام أخذه فَهَزَّه بشدة ثلاث مرات، وقد بَيَّنَّا أيضًا أن النبي ﷺ قد أصابه الذهول لهذه المفاجأة، فلم يستطع أن يفعل شيئًا.

وهنا قد يسأل أحدهم: لماذا لم يفعل محمد ﷺ وهو نبي مع جبريل عليه السلام ما فعله موسى عليه السلام من قبل مع ملك الموت حينما أتاه ليقبض روحه، إذ لطمه نبي الله موسى عليه السلام وفقأ له عينه؟! هل كان محمد ﷺ يفتقد القوة التي كانت لدى موسى حينما فعل ذلك؟ ونحن بدورنا سنجيب عن هذه الأسئلة، لنوضح لهؤلاء هذا اللبس الذي وقعوا فيه، ولننزه نبوة محمد ﷺ من أية شائبة تشكك في صدقها.

1. قوانين النبوة، موفق الجوجو، مرجع سابق، ص٥٥: ٦٢ بتصرف.

إن حقيقة ماحدث مع موسى عليه السلام حينما لطم ملك الموت وفقأ له عينه تظهر جليًّا حينما نعرض هذه القصة كاملة كما جاءت في كتب السنة:

فعن أبي هريرة موقوفًا، قال: "أُرْسِلَ ملك الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صكَّه[2] فرجع إلى ربه، فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت. قال: ارجع إليه، فقل له: يضع يده على متن ثور[3]، فله بما غَطَّتْ يده بكل شعرة سنة، قال: أي رب، ثم ماذا؟ قال: ثم الموت؛ قال: فالآن" [4].

فمن هذا الحديث يتضح لنا: أن الله عز وجل لم يبعث ملك الموت لموسى عليه السلام وهو يريد قبض روحه في المرة الأولى، وإنما بعثه إليه ليخيِّره، وموسى عليه السلام ما كان يعلم حين لطمه أنه ملك الموت؛ لأنه جاءه على صورة إنسان فلما رأى موسى عليه السلام إنسيًّا يريد الاعتداء عليه دافعه؛ لأن الإنسان مأمور بدفع من يعتدي عليه.

وقد جاءت الملائكة إلى إبراهيم وإلى لوط - عليهما السلام - في صورة آدميين فلم يعرفاهم ابتداءً، ولو عرفهم إبراهيم عليه السلام لما قدَّم لهم المأكول، ولو عرفهم لوط لما خاف عليهم من قومه.

ويزيد الخطابي فَيُبَيِّنُ أن موسى عليه السلام دفع الملك عن نفسه لما رُكِّب فيه من الحدة، وقد ردَّ الله عين ملك

2. صكّه: ضربه على عينه، وبعض الروايات بلفظ: "فلطمه"، واللطم: ضرب الوجه بباطن راحة اليد، وبزيادة "فقأ عينه"، وفقأ العين: إخراج حدقتها التي بها تبصر.
3. متن ثور: المتن: الظهر.
4. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب من أحب الدفن ليلا في الأرض المقدسة أو نحوها (١٢٧٤)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ (٦٢٩٧).

الموت، ليعلم موسى عليه السلام أنه جاء من عند الله عز وجل؛ فلهذا استسلم حينئذ[1].

ومن ثَمَّ فإن ما حدث للنبي ﷺ مع جبريل عليه السلام في أول لقاء له معه ـ يختلف تمامًا عما حدث مع نبي الله موسى عليه السلام حينما لطم ملك الموت، ويمكننا أن نوجز هذا الاختلاف في نقطتين:

١. إن جبريل عليه السلام حينما أتى النبي ﷺ في أول مرة كان بصورته الملائكية التي لا عهد للنبي ﷺ بها، بينما جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام بصورة بشرية؛ ولهذا لم يفزع موسى عليه السلام منه.

٢. إن ما حدث مع محمد ﷺ كان في بداية نبوته، بل قبل تلقيه أمر النبوة، بينما كان الذي حدث مع موسى عليه السلام في نهاية نبوته قبل وفاته، ومن ثم فلا عجب أن يألف مثل هذه الأحداث الغريبة، ولا يفزع منها، بخلاف موقف التبشير بالنبوة، فقد فزع منه مثل محمد ﷺ.

وهكذا يتضح لنا أن ما حدث للنبي ﷺ في غار حراء في أول لقاء له مع جبريل عليه السلام من رعب شديد ومن أخذ جبريل عليه السلام له ثلاث مرات، وهزِّه بشدة ـ لا يتنافى أبدًا مع نبوته ﷺ، بل إن قدرته ﷺ على تحمل ما حدث له ـ دليل قاطع من دلائل صدق نبوته ﷺ.

الخلاصة:

- لقد كان النبي ﷺ كغيره من البشر يتعرض لما يتعرضون له، فلا عجب أن يصيبه الرعب والخوف، فما حدث له ﷺ في أول لقاء له مع جبريل عليه السلام لم يكن متوقعًا ولم يتعرَّض لمثله من قبل، كما أن فيه نوعًا من المفاجأة الباغتة المؤثرة على طبيعته البشرية، التي هَزَّ الموقف كيانها هزًّا، وأدخل عليها الرعب والفزع.

- قد يُظن أن استقبال الأمر بالنبوة أمر عادي، ولكن الحقيقة أن بداية استقبال التكليف بالنبوة أمر لا يحتمله أي كائن من البشر، مهما بلغت مقدرته على تمالك نفسه وجسمه وعقله، إلا من اختاره الله وهيَّأه لهذه المهمة، ليشعره من أول الأمر أن طريق الرسل والدعاة ليس مفروشًا بالورود وإنما هو ملبَّد دائمًا بالأشواك.

- لم يكن النبي ﷺ بدعًا من الرسل ـ عليهم السلام ـ في شعوره بالرعب والخوف عند إعلامه بالنبوة؛ ذلك أن الشعور نفسه أصاب موسى عليه السلام قبله، واحتمالهما ـ عليهما السلام ـ لهذا الأمر الجلل يؤكد نبوتهما ولا ينفيها.

- هناك فرق كبير بين ما حدث لمحمد ﷺ حينما استسلم لجبريل عليه السلام عندما أخذه ثلاث مرات وهزَّه بشدة، وما فعله موسى عليه السلام حينما لطم ملك الموت، فقد جاء جبريل عليه السلام للنبي ﷺ في أول مرة بصورته الملائكية التي لا عهد له بها، بينما جاء ملك الموت لموسى عليه السلام بصورته البشرية فظنه رجلًا يريد قتله فدافع عن نفسه. وكان هذا في آخر حياته، بينما كان النبي ﷺ في بداية تحمله الدعوة والرسالة، ولم يكن يألف مثل هذه الأحداث الغريبة.



---

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مطبعة الأمانة، مصر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص٣٤٩، ٣٥٠ بتصرف يسير.

الشبهة السادسة

التشكيك في نبوة محمَّد ﷺ بزعم أن خديجة رضي الله عنها لم تعترف بها(*)

مضمون الشبهة:

يُشكِّك بعض المغالطين في نبوة محمَّد ﷺ. مستدلين على ذلك بما يزعمونه من أن زوجته خديجة - رضي الله عنها - لم تعترف بنبوته تلك وهي أقرب الناس له، وأولاهم بتصديقه، ويبرهنون على ذلك بما يدَّعونه من أن مشاركتها إياه في حياته الدعوية نابع من خوفها عليه وعلمها بحقيقة دعوته الزائفة، ثم إنها كانت تخاطبه بقولها: "يا أبا القاسم، يا محمد"، وما نادته بالنبوة ولا بالرسالة، فما سُمعت تقول: يا نبي الله ولا يا رسول الله.

ويرمون من وراء ذلك إلى التشكيك في نبوة محمد ﷺ بنفي إيمان زوجته السيدة خديجة بها.

وجوه إبطال الشبهة:

1) كانت السيدة خديجة - رضي الله عنها - تدرك عظمة النبي ﷺ، وتعلم مدى صدقه وأمانته قبل بعثته؛ ولذلك تزوَّجت به، ثم إنها لما بُعث النبي ﷺ ناصرته وآمنت به حين خذله الناس، ولا توجد أي غضاضة في أن تناديه بكنيته أو باسمه؛ لأنه زوجها، وأبو أبنائها، وليس ذلك دليلًا على عدم إيمانها بنبوته؛ فقد تنادي زوجة الدكتور أو المهندس - مثلا - زوجها باسمه ولا يشكك ذلك في كونه دكتورًا أو مهندسًا، ولله ولرسوله المثل الأعلى.

2) لقد كانت السيدة خديجة - رضي الله عنها - أول من آمن بالنبي ﷺ؛ إذ آمنت به بعد أول لقاء له مع جبريل عليه السلام في غار حراء.

3) إن في مساندة السيدة خديجة - رضي الله عنها - النبي ﷺ ودعوته بكل ما أوتيت من قوة ومال، ووقوفها بجانبه حتى توفاها الله عز وجل من جهة، وفي وفاء النبي ﷺ لها طول حياته من جهة ثانية؛ ما يشهد على إيمانها بنبوته في مقابل ما زعمه هؤلاء المدعون.

التفصيل:

أولا. لقد كانت السيدة خديجة رضي الله عنها تدرك عظمته ﷺ وتعلم مدى صدقه وأمانته؛ ولذلك تزوجت به ﷺ وناصرته وآمنت به لـمَّا نزل عليه جبريل عليه السلام بالوحي:

لقد كانت السيدة خديجة - رضي الله عنها - كغيرها من سكان جزيرة العرب، تسمع بنبي قادم، وأن مشرق نوره سيكون في فاران، وهي أم القرى التي تسكنها خديجة مع غيرها من سكان مكة.

ولقد زاد الأمل في صدر خديجة - رضي الله عنها - حين رأت سيدنا محمدًا ﷺ قد جُبل على صفات أقل ما يقال في إحداها أنها من المعجزات في باب الأخلاق، وإلا فمَن مِن البشر غير الأنبياء - عليهم السلام - يستطيع أن يقضي عمره كله دون أن يجرِّب عليه أحد من الناس كذبًا قط؟!

ولقد رغبت السيدة خديجة - رضي الله عنها - إلى ابن عبد الله ﷺ أن يكون في تجارتها ومعه ميسرة - خادمًا لا

(*) فترة التكوين في حياة الصادق الأمين، خليل عبد الكريم، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٠١م. لكن محمدًا لا بواكي له، د. إبراهيم عوض، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ٢٠٠١م.

رقيبًا ـ فلما عادا اختلت بخادمها ميسرة تسأله عن أحوال محمد ﷺ في أسفاره، فلما أخبرها بما كان من أخلاق النبي ﷺ في الرحلة وكلَّمها عن صفاته وطابقتها على ما انتشر من صفات النبي المنتظر على ألسنة الناس، ازداد تعلقها بهذا الشرف؛ شرف القرب منه.

وحين ارتبطت بالنبي محمد ﷺ وهو في الخامسة والعشرين من عمره، بدت كأن التاريخ قد سجل عنها أنها قد استراحت لمصيرها في الآخرة، كما اطمأنت على تاريخها في الدنيا، فحاولت أن تنهي علاقتها التجارية لتكون امرأة عظيمة خلف رجل هو أعظم العظماء.

ولما ضاق النبي ﷺ بغياب الحقيقة في مجتمع مكة، وخلص إلى الجبل متأملًا في كل عام شهرًا يخلو فيه إلى نفسه، لم تَحُلْ خديجة بينه وبين ما يريد، بل كانت تجهزه إلى رحلته، فيبقى ما شاء الله له أن يبقى، ثم يعود إليها فتجهزه إلى مثلها، وهي راضية مغتبطة.

فلما جاءه الوحي، عاد ﷺ إليها ببدايات سورة العلق، وكانت هي أول من استوعب فؤاده الذي يرجف به، فلما أخبرها أنه يخشى على نفسه، قدَّمت إليه البراهين على أحقيته بحفظ الله ورعايته ونصره، وتلك البراهين ما هي إلا صفاته، وصفات الأنبياء من قبله، ولِمَ لا ينصره الله ويؤيده؟ أو ليس هو الذي يصل الرحم، ويقري الضيف، ويحمل الكَلَّ، وينصف المظلوم، ويعين على نوائب الدهر؟ ومن كان كذلك فلا يضيعه ربه.

من هذا التسلسل نعلم أن السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ آمنت بنبوة النبي الذي علمت أنه يظهر في ذلك الزمان، وأنها قد ضيَّقت دائرة إيمانها، حتى لتكاد تجزم بأن النبوة لن تخطئ ابن عبد الله ﷺ.

ويبقى أن تأتي النبوة بالفعل لرسول الله ﷺ فتسلِّمَ له قيادها، هي وجميع بناتها، فإذا خرج إلى الصلاة خرجت خلفه هي وفاطمة وعلي بن أبي طالب، ومن شاءت من بنات النبي ﷺ.

ولما حُوصِر النبي ﷺ ومن معه في الشِّعب تحملت معه الآلام في هذا الحصار الشديد، وحين مرضت طلبت إلى ربها ألا تُوارَى في التراب حتى ترى النبي ﷺ ومن معه، وقد زال عنهم الحصار، وقد قبل الله دعوتها.

أما أنها كانت تناديه بـ "أبي القاسم" على ما يقول المدَّعون، فليس ذلك بدعًا في خطاب زوجة لزوجها وليس في هذا انتقاص من قدر النبي ﷺ أو تشكيك في نبوته.

فالسيدة خديجة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ قد تزوجت النبي ﷺ قبل الرسالة بخمسة عشر عامًا، وأنجبت له القاسم في أوائل سن الزواج، فظلت هذه المدة كلها لا تناديه باسمه العَلَم، وإنما كانت تناديه بكنيته، فهل عند هؤلاء مصدر يستخرج منه أن خديجة لم تكن بعد البعثة تنادي النبي ﷺ إلا بـ "يا أبا القاسم"، ثم إنه لا بأس عليها إن فعلت، فما زلنا نقول: إن نبينا هو أبو القاسم ﷺ، وإن نبينا هو أبو الزهراء ﷺ، ثم إنها كانت تناديه قبل البعثة بـ "يا ابن عم"، و "يا أبا القاسم"، وبعد البعثة بـ "يا رسول الله"، فعندما مات ابنها عبد الله ﷺ ولم يكن قد فُطِمَ قالت: "يا رسول الله، لو بقي حتى أفطمه؟ قال: فإن فطامه في الجنة" [1].

---

١. انظر: تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م.

ثم إنها إن قالت له ﷺ يا أبا القاسم، أليست زوجته؟!! تناديه بكنيته، وتكنِّيه باسم ولده وولدها، ألا يكون هذا من حقها؟!! إن هذا الذي يزعمون إن صحَّ فإنه يكون دليلًا على مدى الحب والانسجام والتواصل بين هذين الزوجين، لا كما يتوهم هؤلاء من أنها لم تؤمن برسالته ﷺ ®.

ثانيًا. حديث بدء الوحي دليلٌ قاطع على أنها آمنت به من أول وهلة:

إن المتأمل في سيرة النبي ﷺ يجد أن أول من آمن به وصدَّق دعوته ﷺ من النساء هي السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ؛ إذ آمنت به بعد أول لقاء للنبي ﷺ مع جبريل عليه السلام.

فقد رُوي عن السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ قولها: أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنَّث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوَّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق، وهو في غار حِراء.

فجاءه الملك فقال له: "اقرأ"، فقال: "ما أنا بقارئ، قال: "فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) ﴾ (العلق)"[1].

"وبإلهام المرأة الصالحة الذكية القلب، الطاهرة النفس، أحسَّت السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ بما يعاني زوجها من مشقة، فأشفقت عليه على غير عادة، وقد ألفت منه الغيبة في شهر رمضان، وكانت هي التي تزوده بزاد المادة، والله ﷻ يزوده بزاد التقوى، انزعجت هذه المرة، فأخذت تسأل عنه، وهي تعلم أنه في غار حراء؛ لأنها أحسَّت أنه في جهاد روحي، جهاد من ينزع من الأرض ليتصل بالسماء، وبينما هي قلقة مضطربة لغيبته على غير عادة، إذ هو مقبل قد تغير لونه، يرجف فؤاده، فزال قلقها، وإن كانت قد استغربت حاله، وقالت: يا أبا القاسم، أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك، حتى بلغوا مكة، ورجعوا لي، وقد حدَّثها بما رأى، وما شاهد في عيانه، وفؤاده يرجف وهو يقول: "زمِّلوني"، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، وهو يقول: "لقد خشيت على نفسي".

وعندئذ جاء دور الزوجة الصالحة الرقيقة في القول، فقالت بمنطق الفطرة ما معناه أن من أحسن لا يجازَى إلا إحسانًا: "كلَّا، والله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتَصِل الرحم، وتصدق الحديث، وتَقرِي الضيف، وتحمل الكَلَّ، وتُكسِب المعدوم، وتُعين على نوائب الدهر"، رأت في زوجها الأمين الطاهر كل هذا، وبإحساس

® في "رغبة السيدة خديجة في الزواج من النبي ﷺ" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة السابعة، من الجزء الأول (حياة النبي ﷺ الخاصة). وفي "قصة زواج النبي ﷺ من السيدة خديجة" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية، من الجزء الثاني (أخلاق النبي ﷺ).

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٣)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٤٢٢).

الفطرة، رأت أنه لا يمكن أن يكون ثمر الطيب إلا طيبًا، ويقول ابن إسحاق، إنها قالت بعد أن علمت الخبر، وقالت ما قالت: أبشر يا ابن عم، واثبت فوالذي نفس خديجة بيده، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة"[1].

فها هي ـ رضي الله عنها ـ تتطلع لنبوته ﷺ وفي هذا أكبر رد على مفتري هذه الشبهة، أفتتطلع لنبوته وتتمناها وتنتظرها له، ثم بعد ذلك تكفر بنبوته؟!! إنه لشيء عجاب، ثم إنه ﷺ حينما اتجه إلى تكوين الخلية الأولى للإسلام اتجه إلى الذين يعاشرونه ابتداءً، وكان في مقدمتهم: أم المؤمنين خديجة: السكن، والمواسية والحانية، والرقيقة، وأم أولاده، والرفيقة الرءوم[2].

فهل بعد هذا يحق لأحد أن يزعم أنها ـ رضي الله عنها ـ لم تكن تؤمن بنبوته؟ هذا ما لا يمكن أن يقوله عاقل منصف!!

ثالثًا. مساندة السيدة خديجة للنبي ﷺ وللدعوة الإسلامية:

تحدث د. علي محمد الصلابي عن موقف السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ من نزول الوحي على رسول الله ﷺ فقال: "كان موقف خديجة ـ رضي الله عنها ـ يدل على قوة قلبها، حيث لم تفزع من سماع هذا الخبر، واستقبلت الأمر بهدوء وسكينة، ولا أدل على ذلك من ذهابها فور سماعها الخبر إلى ورقة بن نوفل، لتعرض الأمر عليه.

لقد كان موقف خديجة ـ رضي الله عنها ـ من خبر الوحي يدل على سعة إدراكها، حيث قارنت بين ما سمعت، وواقع النبي ﷺ، فأدركت أن من جُبِل على مكارم الأخلاق لا يخزيه الله أبدًا، فقد وصفته بأنه يصل الرحم، وكون الإنسان يصل أقاربه دليل على استعداده النفسي لبذل الخير والإحسان إلى الناس، فإن أقارب الإنسان هم المرآة الأولى لكشف أخلاقه، فإن نجح في احتواء أقاربه وكسبهم، بما له عليهم من معروف كان طبيعيًّا أن ينجح في كسب غيرهم من الناس.

كانت أم المؤمنين السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ قد سارعت إلى إيمانها الفطري، وإلى معرفتها بسنن الله ﷻ في خلقه، وإلى يقينها بما يملك محمد ﷺ من رصيد الأخلاق، وفضائل الشمائل، التي ليس لأحد من البشر رصيد منها مثله في حياته الطبيعية التي يعيش بها مع الناس، وإلى ما أُلهمت بسوابق العناية الربانية التي شهدت آياتها، من حفاوة الله تعالى بمحمد ﷺ في مواقف لم تكن من مواقف النبوة والرسالة، ولا من إرهاصاتها المعجزة وأعاجيبها الخارقة، ولكنها كانت من مواقف الفضائل الإنسانية السارية في حياة ذوي المكارم من أصحاب المروءات في خاصة البشر.

كانت موقنة بأن زوجها فيه من خصال الجبلة الكمالية، ومحاسن الأخلاق الرصينة، وفضائل الشيم المرضية، وأشرف الشمائل العلية، وأكمل النحائز[3] الإنسانية، ما يضمن له الفوز، ويحقق له النجاح والفلاح، فقد استدلت بكلماتها العميقة على الكمال المحمدي.

فقد استنبطت السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ من

1. خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج١، ص٢٧٣، ٢٧٤.
2. المرجع السابق، ص٢٨٨ بتصرف.
3. النحائز: الطبائع.

اتصاف محمد ﷺ بتلك الصفات أنه لن يتعرَّض في حياته للخزي قط؛ لأن الله تعالى فطره على مكارم الأخلاق، وضربت المثل بما ذكرته من أصولها الجامعة لكمالاتها.

ولم تكتفِ خديجة ـ رضي الله عنها ـ بمكارم أخلاق النبي ﷺ دليلًا على نبوته، بل ذهبت إلى ابن عمها العالم الجليل ورقة بن نوفل ـ رحمه الله ـ الذي كان ينتظر ظهور نبي آخر الزمان، لما عرفه من علماء أهل الكتاب عن دنو زمانه، واقتراب مبعثه، وكان لحديث ورقة أثر طيب في تثبيت النبي ﷺ وتقوية قلبه، وقد أخبر النبي ﷺ بأن الذي خاطبه هو صاحب السر الأعظم الذي يكون سفيرًا بين الله ﷻ وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

ولقد آمن ورقة بن نوفل برسالة النبي ﷺ، وشهد له النبي ﷺ بالجنة، فقد جاء في رواية عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ قال: "لا تسبُّوا ورقة؛ فإني رأيت له جنة أو جنتين" [1].

لقد قامت خديجة ـ رضي الله عنها ـ بدور مهم في حياة النبي ﷺ؛ لما لها من شخصية في مجتمع قومها، ولما جُبلت عليه من الكفاءة في المجالات النفسية التي تقوم على الأخلاق العالية؛ من الرحمة والحلم والحكمة والحزم، وغير ذلك من مكارم الأخلاق؛ والرسول ﷺ قد وفقه الله تعالى إلى هذه الزوجة المثالية؛ لأنه قدوة للعالمين وخاصة للدعاة إلى الله، فقيام خديجة بذلك الدور الكبير إعلام من الله تعالى لجميع حملة الدعوة الإسلامية بما يشرِّع لهم أن يسلكوه في هذا المجال من التأسي برسول الله ﷺ؛ حتى يتحقق لهم بلوغ المقاصد العالية التي يسعون لتحقيقها.

إن السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ مثال حسن، وقدوة رفيعة لزوجات الدعاة، فالداعية إلى الله ليس كباقي الرجال الذين هم بعيدون عن أعباء الدعوة"[2].

وعلى هذا يبطل قولهم بأنها ـ رضي الله عنها ـ لم تؤمن به، بل لقد كانت أول من آمن به ﷺ، بل إن الدعوة في مراحلها الأولى لم تتم إلا في بيتها؛ ولذلك كان وفاء النبي ﷺ للسيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ في حياتها وبعد مماتها، فقد بشَّرها ﷺ ببيت في الجنة في حياتها، وأبلغها سلام الله ﷻ وسلام جبريل عليه السلام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال: "يا رسول الله، هذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدام ـ أو طعام أو شراب ـ فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ﷻ ومني، وبشِّرها ببيت في الجنة من قَصَب[3] لا صَخَب[4] فيه ولا نَصَب" [5] [6]. ولا يكون هذا البيت إلا لمؤمنة شديدة الإيمان.

١. صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، ذكر نبي الله وروحه عيسى ابن مريم (٤٢١١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٣/ ٢٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٠٥).

٢. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث، د. علي الصلابي، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ج١، ص١٠٤: ١٠٦ بتصرف.

٣. القَصَب: الدر المجوَّف.

٤. الصَّخب: ارتفاع الأصوات واختلاطها.

٥. النَّصب: التعب.

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها (٣٦٠٩)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين (٦٤٢٦).

وتذكر عائشة - رضي الله عنها - وفاء النبي ﷺ لخديجة بعد وفاتها بقولها: ما غِرْتُ على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذِكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطِّعها أعضاءً ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة؟ فيقول: "إنها كانت وكانت، وكان لي منها الولد" [1].

وأظهر ﷺ البشاشة والسرور والحفاوة لأخت خديجة لما استأذنت عليه؛ لأنها ذكَّرته بخديجة، فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: استأذنتْ هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة فارتاع [2] لذلك، فقال: "اللهم، هالة بنت خويلد"، فغِرْتُ، فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشِّدْقَينِ [3] هلكت في الدهر فأبدلك الله خيرًا منها، [4] وفي رواية عنها قالت: كان النبي ﷺ إذا ذكر خديجة أثنى عليها فأحسن الثناء، فغرتُ يومًا فقلت: ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدق قد أبدلك الله ﷻ بها خيرًا منها، قال: "ما أبدلني الله ﷻ خيرًا منها؛ قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس" [5]، وأظهر ﷺ الحفاوة بامرأة كانت تأتيهم زمن خديجة، وبيَّن أن حفظ العهد من الإيمان [6].

فإن كانت - رضي الله عنها - لم تؤمن به أيكون لها كل هذا الوفاء؟!!

وبهذا يتضح لنا أن السيدة خديجة - رضي الله عنها - كانت أول من آمن بالنبي ﷺ كما أخبرت بذلك كتب السيرة، وأنها ساندته بمالها ونفسها وكل ما تملك في سبيل نشر دين الله الحق [®].

الخلاصة:

- كانت السيدة خديجة - رضي الله عنها - تدرك عظمة النبي ﷺ؛ ولذلك تزوجت به وناصرته، وآمنت به ﷺ، ولما جاءه ﷺ الوحي وعاد إليها بفواتح سورة العلق، كانت أول من استوعب فؤاده الذي يرجف به، فلما أخبرها أنه يخشى على نفسه، قدَّمت إليه البراهين على أن الله ناصره لا محالة، وهذه البراهين ما هي إلا صفاته، وصفات الأنبياء من قبله، ولِمَ لا ينصره ربُّه؟! أو ليس هو الذي يصل الرحم، ويقري الضيف، ويحمل الكَلَّ، وينصف المظلوم، ويُعين على نوائب الدهر؟! ومن كان كذلك فلا يضيعه ربه، وإذا كان هذا

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها (٣٦٠٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين (٦٤٣٠)، واللفظ للبخاري.

٢. ارتاع: ارتاح.

٣. حمراء الشِّدْقَينِ: سقطت أسنانها.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها (٣٦١٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين (٦٤٣٥).

٥. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٤٩٠٨)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٣/ ١٣)، ذكر أزواج رسول الله ﷺ (٢٢)، وصححه الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٦. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث، د. علي الصلابي، مرجع سابق، ص١٠٧، ١٠٨.

® في **"حزن النبي ﷺ على السيدة خديجة وفاء منه لها"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية، من الجزء الثاني (أخلاق النبي ﷺ). والوجه الثاني، من الشبهة الثامنة عشرة، من الجزء السادس (تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده).

حالها، فكيف لا تؤمن به؟!

- حديث بدء الوحي دليل قاطع على أنها - رضي الله عنها - آمنت به من أول وهلة، حيث قالت بعد أن علمت الخبر: "أبشر يا ابن عم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة". فكيف بعد كل هذا لا تؤمن به ﷺ؟!

- ثم إن موقف السيدة خديجة - رضي الله عنها - من الدعوة الإسلامية، كان موقف المؤمنة، بل المجاهدة في سبيل هذه الدعوة، ولقد قامت خديجة - رضي الله عنها - بدور مهم في حياة النبي ﷺ لما لها من شخصية في مجتمع قومها، ولذلك فقد جاءها السلام من الله ﷻ، وبُشِّرت ببيت في الجنة، وكان وفاؤه ﷺ لها كبيرًا حتى بعد موتها بسنوات، فكيف يكون كل هذا لامرأة لم تؤمن به؟!

الشبهة السابعة

الزعم أن النبي ﷺ ابتدع مبدأ الثواب والعقاب الأخروي لإثبات نبوته(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن النبي ﷺ اختلق مبدأ الثواب والعقاب الأخروي باعتباره نوعًا من التأثير الروحي يستخدمه في ترغيب الناس وترهيبهم وإحاطة نبوته بهالة من القدسية، فحين وعد النبي ﷺ المؤمنين بالجنة التي اختلق صورتها بزعمهم - وما فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر - ما قصد بهذا إلا أن يمنِّيهم بما يتجاوز إدراكهم، مبالغة منه في ترغيبهم، وفي المقابل نجد وعيده القاسي لمن يخالفه بأن له نارًا خالدًا فيها. ويرمون من وراء ذلك إلى وصمه ﷺ بما لم يكن منه من ابتداع وسائل واختلاق مبادئ تثبت نبوته؛ بغية التشكيك في كونه نبيًّا مرسلًا.

وجها إبطال الشبهة:

١) الاعتقاد بالجزاء الأخروي ضرورة إنسانية تعصم من القول بعبثية الحياة وخوائها الذي قال به بعض المفكرين الغربيين.

٢) الإسلام ليس بدعًا في تقرير عقيدة البعث والجزاء في الآخرة، فقد سبقت الإشارة إليها في الديانات السابقة له كاليهودية والمسيحية، فضلًا عن حكاية القرآن إنذار جميع الأنبياء لأتباعهم بالبعث والحساب.

التفصيل:

أولا. العدل الإلهي يقتضي جزاء الآخرة؛ حتى لا يستوي الخبيث والطيب:

إن البعث والجزاء حقيقة ثابتة وليس فكرة اختلقها محمد ﷺ؛ فهي حقيقة لا ينكرها عقل سليم، إذ إن مبدأ العدالة الإنسانية يرفض مبدأ نهاية الإنسان بمجرد موته؛ لما فيه من ظلم للضعفاء، ولأن الحياة الدنيا ليست محلًّا للعدل الحقيقي.

"إن العدالة الحقة لا تتحقق في هذه الحياة الدنيا، فهناك سفلة تبوءوا القمم، وعباقرة توسدوا التراب،

(*) الغرب والإسلام: أين الخطأ وأين الصواب، د. محمد عمارة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م. الإسلام في تصورات الغرب، د. محمود حمدي زقزوق، مكتبة وهبة، مصر، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

وقتلى أزهق المجرمون أرواحهم، وعادوا يضحكون أو يسكرون" [1].

فنحن نشاهد في حياتنا الدنيا ظالمين ظلوا ظالمين حتى لحظة الموت، ومظلومين ظلوا مظلومين إلى آخر حياتهم، أفإن كانت الحياة الدنيا هي نهاية المطاف أيكون هذا عدلًا وحكمة؟ وأين هو العدل والظالم لم يُقتصَّ منه والمظلوم لم يُقتصَّ له؟! وأين هي الحكمة في خلق حياة تجري أحداثها على غير مقتضى العدل ثم تنتهي على هذه الصورة[2]؟

إن الوجود الإنساني كله عبر تاريخه الطويل - بهذا التصور المادي - يمسي مسرحية من مسرحيات العبث، ولو أن حياة الإنسان تنتهي كلها في ظروف هذه الحياة الدنيا، ثم لا شيء وراءها، فأين تحقيق قانون العدل الإلهي في ظروف هذه الحياة الدنيا؟

إن المنطق الحق، والضمير النقي ليشعر بداهة - ولو لم تنزل آيات الوعد والوعيد، وأنباء اليوم الآخر، وما فيه من حساب وجزاء - أن حياة أخرى غير هذه الحياة لا بدَّ منها لتحقيق العدالة، ولا بد أن يلاقي الناس فيها جزاء أعمالهم إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، ولئن كنا نشاهد أن بعض تطبيقات العدل الإلهي جارية في ظروف هذه الحياة الدنيا، ضمن سنن الله الثابتة؛ فإن الصورة الكاملة للعدل غير مستكملة في هذه الحياة، ولذلك كانت الضرورة الأخلاقية والإيمانية تقتضي أن هناك حياة أخرى لإقامة العدل الحقيقي.

إن البعث حق، والآخرة حق؛ لأنهما تصحيح لأوضاع وردٌّ لاعتبار وتحقيق لعدل اختبر الله الناس بتأخيره إلى حين، هذا الحين جزء من نظام الدنيا، ومن امتحاناتها الصعبة، ولا بد من مراعاته، ولذلك جاء في الحديث القدسي، في إجابة دعوة المظلوم: "وعزتي وجلالي، لأنصرنَّك ولو بعد حين" [3].

وقد تأمل كثير من أهل الفكر والنظر في ظروف هذه الحياة الدنيا، دون ملاحظة الآخرة، وما فيها من جزاء، فرأوا أن تاريخ الإنسان فيها صورة للجرائم والمصائب، وتهريج لا جدوى منه، وسجل للجرائم والحماقة وخيبة الأمل، وقصة لا تعني شيئًا، وجاء نتاج فكرهم ونظرهم، كما يأتي:

قال فولتير: "إن التاريخ الإنساني ليس إلا صورة للجرائم والمصائب".

قال هربرت: "إن التاريخ تهريج، وكلام فارغ لا جدوى منه".

قال إدوارد جين: "إن تاريخ الإنسان لا يعدو أن يكون سجلًّا للجرائم والحماقة وخيبة الأمل".

قال نابليون: "إن التاريخ بأكمله عنوان لقصة لا تعني شيئًا".

قال هيكل: "إن الدرس الوحيد الذي تعلمته الحكومة والشعب من مطالعة التاريخ هو أنهم لم يتعلموا من التاريخ شيئًا".

ويعلق المفكر الإسلامي وحيد الدين خان في كتابه

---

1. مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤م، ص٤٠.
2. ركائز الإيمان، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص٣٨٧.
3. حسن: أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، باب الخاء، حديث خباب أبو إبراهيم الخزاعي (٣٧١٨)، والقضاعي في مسند الشهاب (٧٣٣)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٣٠).

"الإسلام يتحدى" على هذه الأقوال، فيقول: "هل قامت مسرحية العالم كله لتنتهي إلى كارثة أليمة؟ إن فطرتنا تقول: لا، فدواعي العدالة في الضمير الإنساني تقتضي عدم حدوث هذا الإمكان، لا بد من يوم يميز بين الحق والباطل، ولا بد للظالم والمظلوم أن يجنيا ثمارهما، وهذا مطلب لا يمكن إقصاؤه من مقومات التاريخ، كما لا يمكن إبعاده عن فطرة الإنسان" [1].

ومن هنا تقتضي حكمة الله ﷻ وعدله أن يبعث عباده ليجزيهم بما قدموا، فالله خلق الخلق لعبادته، وأرسل الرسل وأنزل الكتاب لبيان الطريق الذي يعبدونه به، فمن العباد من استقام على طاعة الله وبذل نفسه وماله في سبيل ذلك، ومنهم من رفض الاستقامة على طاعة الله، وطغى وبغى، أَفَيليقُ بعد ذلك أن يموت الصالح والطالح ولا يجزي الله المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته؟ ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) ﴾(القلم) [2].

ألم تر أن الأجير يوفَّى بعد العمل أجره، وأن المجرم يجازى على جرمه، وهذا في مجال البشر، فكيف بمن هو أحكم الحاكمين؟! فكيف يزعم زاعم أن العدل والظلم يستويان، وأن القسوة والرحمة يتعادلان، وأن الجهل والحكمة يتوازيان؟، أيستوي الليل والنهار؟ أو الظلمات والنور؟ أو الظل والحرور؟ أو القبح والجمال؟

إن المشاعر - مشاعر الفطرة والنظر - لا تنكر البعث، ومن هذه النظرات نظرات الفلاسفة اليونانيين الذين سجلوا كلامًا واضحًا في ذكر اليوم الآخر وما فيه من حياة أبدية، فهذا سقراط يقول: "إن الذين عظمت ذنوبهم وجناياتهم، وتركوا واجبات الشريعة، فإنهم يحملون إلى نهر يلتهب بنار عظيمة، ويغلي بماء وطين، فيكونون فيه أبدًا، لا يخرجون عنها، وأما الذين برزوا في حسن السيرة، فإنهم يصيرون إلى فوق، إلى المسكن النقي فيسكنونه".

وقال سقراط عند موته: "إلى الله أبتهل في أن يكون نقلي من هذه الدار إلى دار الآخرة نقلة سعادة".

وعلى الرغم من إنكار كفار قريش للبعث بعد الموت، وسخريتهم من إمكانية عودة الحياة لأجسام بَلِيَتْ، إلا أننا نجد بعضهم ينص على حياة أخرى، وحساب وجزاء، كما ورد عن زهير بن أبي سلمى أنه قال:

فَلَا تَكْتُمُنَّ اللهَ ما في نُفُوسِكم ... لِيَخْفَى، فمهما يُكْتَمِ اللهُ يَعْلَمِ

يُؤَخَّرْ فيُوضَعْ في كتابٍ فيُدَّخَر ... ليومِ الحسابِ، أو يُعجَّلْ فيُنْقَمِ

فهل يمكن أن نلقي وراء ظهورنا كل هذه الحقائق، ثم نصدق أن عقيدة البعث بعد الموت، ومبدأ الثواب والعقاب في الآخرة من اختراع محمد ﷺ ؟

ثانيًا. ثبوت عقيدة البعث والجزاء في الأديان السابقة للإسلام:

مبدأ الثواب والعقاب، أو الترغيب والترهيب مبدأ عام في جميع الرسالات، فما من رسالة من الرسالات

١. صراع مع الملاحدة حتى العظم، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط٤، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص١٧٣، ١٧٤.

٢. القيامة الكبرى، د. عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٧٥، ٧٦.

السماوية المنزلة من عند الله ﷻ إلا وقد وعدت من يؤمنون بها ويطبقون مبادئها بالنعيم المقيم، ومن يعرضون عنها بالجحيم الخالد، وليس هذا الأمر بدعًا في الدين الإسلامي، وبالتالي فإن الادعاء بأن الناس قد دخلوا في الإسلام خوفًا أو طمعًا في جزاء الآخرة ادعاء ينقصه الكثير من الحق بل الحق كله.

وعقيدة البعث والجزاء لا تظهر في اليهودية كعقيدة محددة المعالم، فقد سقطت من أسفار موسى الخمسة وما تلاها من أسفار، ولم تبدأ الإشارة إليها إلا بعد موسى بأكثر من خمسة قرون، كما نجده في مثل هذه الأقوال:

"يَفنَى كلُّ جندِ السماوات، وتلتفُّ السماوات كدرج، وكل جندها ينتثر كانتثار الورق من الكَرمَة". (إشعياء ٣٤: ٤). "وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون: هؤلاء إلى الحياة الأبدية، وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدي". (دانيال ١٢: ٢).

ولما جاء المسيح فإنه أكد على عقيدة البعث والحساب التي كان يؤمن بها بنو إسرائيل كما كان يؤمن بها قدماء المصريين وسجلوا ذلك بأهراماتهم قبل مولد إسرائيل بأكثر من خمسة عشر قرنًا من الزمان[1].

وهذه بعض وصايا المسيح لهم: "طُوبَى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السماوات. طوبى للحَزانَى، لأنهم يتعزَّون. طوبى للودعاء، لأنهم يرثون الأرض. طوبى للجِياع والعِطاش إلى البِر، لأنهم يشبعون. طوبى للرُّحماء، لأنهم يُرحمون. طوبى للأنقياء القلب، لأنهم يُعاينون الله. طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناء الله يُدعَون. طوبى للمطرودين من أجل البر، لأن لهم ملكوت السماوات. طوبى لكم إذا عيَّروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي، كاذبين. افرحوا وتهلَّلوا، لأن أجركم عظيم في السماوات، فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم". (متى ٥: ٣ ـ ١٢).

إن المسيح قد وعد المؤمنين به بالسماء ذاتها، وبالحياة في الآخرة معه، وبالنجاة التامة من العقاب والدينونة الإلهية، وبإعطائهم المكافأة عن أعمالهم التي هي ثمرة الإيمان به.

أما من جهة النجاة التامة من الحساب والعقاب، والفوز بالجنة، فقد قال المسيح: "الحقَّ الحق أقول لكم: إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة". (يوحنا ٥: ٢٤).

وأما من جهة نوال المكافأة على الأعمال التي يعملها المؤمن كثمرة لإيمانه بالمسيح، فقد وعد المسيح: "ها أنا آتي وأُجرَتي معي لأُجازِي كل واحد كما يكون عمله". (رؤيا يوحنا اللاهوتي ٢٢: ١٢)[2].

أما وعيده لمن خالف ما جاء به يقول: "ويل للعالم من العَثَرات! فلا بد أن تأتي العثرات، ولكن ويل لذلك الإنسان الذي به تأتي العَثْرَة! فإن أعثرتك يدك أو رجلك فاقطعها وألقها عنك. خير لك أن تدخل الحياة أعرج أو أقطع من أن تُلقَى في النار الأبدية ولك يدان أو رجلان. وإن أعثرتك عينك فاقلعها وألقها عنك. خير لك أن تدخل الحياة أعور من أن تُلقَى في جهنم

١. الإسلام والأديان الأخرى: نقاط الاتفاق والاختلاف، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص٤٤، ٤٥ بتصرف.

٢. مفاهيم نصرانية خاطئة عن محمد والمسيح والرد عليها، د. سامي نجيب محمد، دار الروضة، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٢٦، ١٢٧ بتصرف يسير.

النار ولك عينان". (متى: ١٨: ٧ـ٩).

أما في الإسلام فإننا نجد القرآن يضرب مثل الجنة ومثل النار بما عرفه الناس في الدنيا فيقول: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) ﴾ (محمد)، وقال ﷻ: ﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) ﴾ (الزخرف)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) ﴾ (الكهف)، وقال تعالى: ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) ﴾ (ق)[1].

وإذا كانت الكتب السماوية المقدسة تزخر نصوصها بذكر اليوم الآخر والتخويف والتبشير بما أعده الله للمؤمنين به في جنات النعيم؛ فإن القرآن الكريم يذكر أن الإيمان بالقيامة والجنة والنار من أصول الإيمان التي يشترك فيها الأنبياء جميعًا وأتباعهم الصادقون في معرفتها والإيمان بها، فقد أخبر القرآن عن جميع الأشقياء الكفار من أهل النار أنهم يقرون بأن رسلهم أنذرتهم باليوم الآخر ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) ﴾ (الملك)، وقال ﷻ: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) ﴾ (الزمر)، فالكفار عندما يُسألون عن ورودهم النار يقرون بأن رسلهم حذرتهم لقاء ذلك اليوم، ولكنهم كفروا وكذبوا.

وهذا الذي قرره الله ﷻ قد بيَّنه في غير موضع من كتابه، فذكر أن مقتضى عدله وحكمته ألا يعذب أحدًا لم تبلغه الرسالة، ولم تقم عليه الحجة ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) ﴾ (الإسراء).

وعندما أهبط الله آدم إلى الأرض عرفه بالبعث والمعاد: ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) ﴾ (الأعراف).

وعندما غضب الله ﷻ على إبليس وطرده من رحمته طلب إبليس منه الإمهال إلى يوم البعث فيما حكاه عنه القرآن الكريم: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) ﴾ (ص).

وأول الرسل نوح عليه السلام حذر قومه يوم القيامة، وضرب لهم الأمثال الدالة على وقوعه وحدوثه فقد قال

---

١. الإسلام والأديان الأخرى: نقاط الاتفاق والاختلاف، أحمد عبد الوهاب، مرجع سابق، ص٤٥، ٤٦.

لقومه كما حكى القرآن ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ۝١٨﴾ (نوح).

وأبو الأنبياء إبراهيم خليل الرحمن ذكر اليوم الآخر في دعائه ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ۝٤١﴾ (إبراهيم).

وجاء في مناجاة الله لموسى ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ۝١٥﴾ (طه)، وشعيب قال لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝٣٦﴾ (العنكبوت)[1].

وهكذا نجد أن عقيدة البعث والجزاء الأخروي قد أرسل الله تبارك وتعالى بها رسله أجمعين، فما من رسول ولا نبي إلا أنذر قومه عذاب الآخرة، وعليه فالرسول ﷺ ليس بدعًا من الرسل في ذلك، فلماذا هو الوحيد الذي يتهم بأنه اختلق مبدأ الثواب والعقاب الأخروي لترغيب الناس في الدخول في دينه؟، لا شك أن هذا الكلام لا يتفق مع عقل صحيح ولا مع منطق صريح.

الخلاصة:

- لقد قرر ﷻ مبدأ الثواب والعقاب؛ تطبيقًا لمبدأ العدل الإلهي، وتمييزًا بين الحق والباطل، والخبيث والطيب، فهناك فرق شاسع بين من كانت حياته كلها خالصة لوجه الله، ومن كانت حياته كلها لهوًا ولعبًا وزينة ومعاصي، قال ﷻ في حق المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ۝١٠٨﴾ (الكهف)، وقال ﷻ في حق العصاة الكافرين: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ۝٢٩﴾ (الكهف).

- لقد سبقت الإشارة إلى عقيدة البعث والجزاء في الكتب السماوية السابقة على الإسلام، كاليهودية والمسيحية، فهي عقيدة قديمة لم يبتدعها الإسلام، ولم يختلقها ﷺ من عند نفسه؛ ففي المسيحية ذكر المسيح شيئًا من نعيم الآخرة، فبَيَّنَ أنَّ فيها خمرًا وطعامًا وشرابًا ومنازل، وأهلًا أضعاف ما كان في الدنيا، وما من رسول أو نبي إلا أنذر قومه عذاب الآخرة.

الشبهة الثامنة

الزعم أن النبوة المحمدية لم يؤمن بها إلا شرذمة من بُلْه الفقراء وسُذَّج الأغنياء(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتقولين أنه لم يؤمن بدعوة محمد ﷺ، ولم يُصَدِّق نبوته إلا شِرْذِمَة[2] من سُذَّج الأغنياء الذين سئموا الترف، أو من بُلْه[3] الفقراء الذين ملُّوا الجوع؛ ويبرهنون على ذلك بأنه ﷺ قد استطاع إقناعهم بما حكاه عن الجنة والنار، زاعمين أنه لا يُصَدِّق مثل هذه

١. القيامة الكبرى، د. عمر الأشقر، مرجع سابق، ص٧٧: ٧٩ بتصرف.

(*) اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، د. إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٢. الشِّرْذِمة: الفئة القليلة.

٣. البُلْه: جمع أَبْله، وهو ضعيف العقل.

الأحاديث - التي لا يقوم دليل علمي مادي على وجودها - إلا السذَّج والبُلْه. ويهدفون من وراء ذلك إلى ازدراء نبوته ﷺ بزعم أن أتباعها إما سُذَّج أو بُلْه من أراذل القوم؛ بغية صرف الناس عنها وتزهيدهم فيها.

وجها إبطال الشبهة:

١) لقد آمن بدعوة النبي ﷺ أناس عقلاء من خيرة الناس وعلى أكبر قدر من الرزانة، وكيف لا يكونون كذلك ومنهم: أبو بكر وعمر وغيرهم ممن استطاعوا قيادة شعوب العالم القديم؟!

٢) كلام النبي ﷺ عن الجنة والنار ليس حديث خرافات، بل إنه أمر غيبي حقيقي أخبر به الله ﷻ على لسان أنبيائه ورسله، وأقره العقل، ووافقته الفطرة السليمة.

التفصيل:

أولا. الذين آمنوا بدعوة النبي ﷺ هم أناس عقلاء وعلى أكبر قدر من الرزانة:

في البداية نودُّ أن نشير إلى أن النبي ﷺ كان يدعو فقط إلى التوحيد والإيمان بالبعث، وأنه رسول الله إلى الناس، وظل كذلك حوالي عشر سنوات لا يَعِدُ أحدًا بشيء من أمور الدنيا، وإنما كان يطلب من أتباعه ﷺ الصبر على الأذى، وقد بقيت دعوته كذلك إلى أن هاجر من مكة إلى المدينة؛ إذ أصبحت المزايا الدنيوية للمستضعفين ثمرة من ثمرات إيمانهم بوحدانية الله ﷻ[1].

ونحن إذا استطعنا أن نحصر عدد المؤمنين بهذه الدعوة، فإننا لا نستطيع أن ننسب هؤلاء إلى طبقة معينة من طبقات المجتمع؛ لأنه قد استجاب لدعوة النبي ﷺ أناس من كل الطبقات على اختلاف مستوياتهم، فلقد كان من أوائل المسلمين:

١. من **طبقة التجار**: أبو بكر الصديق وعثمان بن عفان وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم.

٢. **من طبقة السادة**: عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب وسعيد بن زيد العدوي والأرقم بن أبي الأرقم وخالد بن سعيد بن العاص ابن سيد قريش رضي الله عنهم.

٣. **من طبقة الموالي**: صهيب الرومي وعمار بن ياسر ووالده ياسر العنسي - الذي استشهد تحت التعذيب ليرتد عن دينه فما ارتدَّ حتى نال الشهادة بكل جدارة واستحقاق، وزيد بن حارثة رضي الله عنهم.

٤. **من طبقة نساء الموالي**: سمية والدة عمار بن ياسر، والتي استشهدت تحت التعذيب رافضة الارتداد عن الإسلام.

٥. من **طبقة أشراف النساء**: خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت الخطاب وأم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية وأم سلمة زوجة أبي سلمة بن عبد الله بن أسد - رضي الله عنهن.

٦. **طبقة جواري النساء**: أم عبيس وزنيرة والنهدية وبنتها وجاريتا إحدى نساء بني عبد الدار وجارية بني مؤمل من بني عدي رضي الله عنهن.

٧. **طبقة العبيد**: عامر بن فهيرة وبلال بن رباح وخباب بن الأرت رضي الله عنهم.

٨. **طبقة رعاة الأغنام**: عبد الله بن مسعود وأبو ذر

---

١. قوانين النبوة، موفق الجوجو، مرجع سابق، ص٦٤٨ بتصرف.

الغفاري وأخوه أنيس الغفاري ﷺ.

لقد آمنت كل هذه الفئات بدعوة محمد ﷺ؛ لأنها دعوة إلى التوحيد الخالص، ولم يكن هؤلاء من السذج الْبُلْه، الذين ملُّوا الترف أو اشتد عليهم الفقر - كما يزعمون - بل لو كان الأمر كذلك لَنَأَوا عن الإسلام بكل جهدهم، لا أن ينضموا تحت لوائه "فلقد كانت نتيجة إسلام التجار أن قاطعت قريش شراء بضائعهم، وكان نتيجة إسلام السادة تسفيه عقولهم، وكان نتيجة إسلام المولى صهيب الرومي سلب ماله الذي وَرَّثَه إياه سيده، بينما كانت عقوبة ياسر العنسي وزوجته سمية التعذيب حتى الموت، وعقوبة أشراف النساء عزوف قريش عن مصاهرتهن، وعقوبة الجواري والعبيد هي التعذيب"[1]. وهذا يدل على أن سبب إسلام هؤلاء هو اقتناعهم التام بأن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق من ربه، وأن ما عداه هو الضلال المبين.

والمتأمل في حال المؤمنين الأوائل يجد أنهم كانوا يتمتعون بمنزلة كبيرة في أقوامهم، وكانوا يُعرفون بالعقل والرزانة، ولا يمكن أن يوصفوا أبدًا بالسذاجة والبلاهة، ونحن إذا تتبعنا أخبار بعض هؤلاء المسلمين الأوائل فسوف تتأكد لنا هذه الحقيقة الجلية، وهي أن هؤلاء المسلمين كانوا يتمتعون بقدرات ومؤهلات تفوق كثيرًا أقرانهم الذين لم يسلموا، ومن هؤلاء:

أبو بكر الصديق ﷺ:

كان أبو بكر الصديق ﷺ - كما يقول ابن كثير - صدرًا[2] معظمًا، ورئيسًا في قريش مكرمًا، وصاحب مال في الجاهلية قبل الإسلام.

ويقول ابن إسحاق: "وكان أبو بكر رجلًا متألفًا لقومه، محببًا سهلًا"[3]."وكان أعلم العرب بأنساب قريش وما كان فيها من خير وشر، وكان تاجرًا ذا ثروة طائلة، وكريمًا حسن المجالسة عالمًا بتعبير الرؤى، ولمَّا أسلم جعل يدعو الناس إلى الإسلام"[4].

"ويقول ابن إسحاق عن بداية إسلامه: ثم إن أبا بكر الصديق لقي رسول الله ﷺ فقال: أحقٌّ ما تقول قريش يا محمد من تركك آلهتنا، وتسفيهك عقولنا وتكفيرك آباءنا؟ فقال رسول الله ﷺ: "بلى. إني رسول الله ونبيه، بعثني لأبلِّغ رسالته وأدعو بالحق، فوالله، إنه للحق، أدعوك يا أبا بكر إلى الله وحده لا شريك له، ولا تعبد غيره، والموالاة على طاعته"، فَأَسْلَمَ وكفر بالأصنام، وخلع الأنداد، وأقرَّ بحق الإسلام، ورجع أبو بكر وهو مؤمن مصدق، فلم يحتج أبو بكر ﷺ في أمر رسول الله ﷺ إلى دليل خارج عن حاله وخُلقه ﷺ"[5].

عمر بن الخطاب ﷺ:

كان تاجرًا مشهورًا من أشراف قريش، وكانت إليه السفارة في الجاهلية، وذلك أن قريشًا إذا وقعت بينهم حرب أو بينهم وبين غيرهم بعثوه سفيرًا، وإن نافرهم منافر أو فاخرهم مفاخر رضوا به وبعثوه منافرًا ومفاخرًا، وهذا دليل على مكانته الاجتماعية، ومنزلته في قريش قبل الإسلام، ولما بُعث رسول الله ﷺ كان ابن

---

١. المرجع السابق، ص٦٤٨، ٦٤٩ بتصرف يسير.

٢. صَدرٌ في قومه: سيدهم ورئيسهم.

٣. دلائل النبوة ومعجزات الرسول ﷺ، د. عبد الحليم محمود، دار الإنسان، القاهرة، ط٢، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٣٧٢.

٤. محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، مرجع سابق، ص٧٠.

٥. دلائل النبوة ومعجزات الرسول ﷺ، د. عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص٣٧٢، ٣٧٣.

الخطاب شديدًا عليه وعلى المسلمين[١].

ولما علم عمر بإسلام أخته فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ ذهب إلى بيتها، وسمع حين دنا من البيت قراءة خباب بن الأرت عليهما؛ فلما دخل قال: ما هذه الهينَمة[٢] التي سمعت؟ وبطش عمر بختنه ـ أي زوج أخته ـ سعيد بن زيد، فقامت أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها، فلما فعل ذلك، قالت له أخته وختنه: نعم أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك، فلما رأى عمر ما بأخته من الدم، ندم على ما صنع فقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرءون آنفًا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتبًا، فلما قال ذلك، قالت له أخته: يا أخي، إنك نجس على شركك، وإنه لا يمسها إلا المطهرون، فقام عمر فاغتسل فأعطته الصحيفة، وفيها "طه".

فلما قرأ منها صدرًا، قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه، فلما سمع ذلك خباب قال له: يا عمر، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصَّك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيِّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب، فقال له عند ذلك عمر: فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأُسلم، فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا، معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشَّحَه[٣]، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما دخل نهض إليه رسول الله ﷺ فأخذ بمجمع ردائه، ثم جَبَذَه[٤] به جبذة شديدة، وقال: "ما جاء بك يا ابن الخطاب"؟ فقال عمر: يا رسول الله، جئتك لأُومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، فكبَّر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم[٥].

ويتضح من ذلك أن إسلام عمر لم يكن إلا بعد اقتناع شديد بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق. فهل يعقل أن يوصف عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأنه من السذج أو البُلْه كما يدَّعي هؤلاء المغرضون؟

عثمان بن عفان رضي الله عنه:

رُوي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال: كنت رجلًا مستهترًا بالنساء قبيل الإسلام، وفي ذات ليلة قابلت خالة لي قاعدة، وكانت قد تكهنت عند قومها، فلما رأتني قالت: عثمان، لك الجمال ولك اللسان، هذا نبي معه البرهان، أرسله بحقه الديَّان، وجاءه التنزيل والفرقان، فاتبعه لا تختالك[٦] الأوثان، قلتُ: يا خالة، إنك لتذكرين شيئًا ما وقع ذكره ببلدنا فأبينيه لي، فقالت: محمد بن عبد الله رسول من عند الله جاء بتنزيل الله، يدعو به إلى ربه، قال: ثم انصرفت ووقع كلامها في قلبي وجعلت أفكر فيه، وكان لي مجلس عند أبي بكر، فأتيته فأخبرته بما سمعت من خالتي، فقال: ويحك يا عثمان، إنك رجل حازم، ما يخفى عليك الحق من الباطل، ما هذه الأوثان التي يعبدها قومنا؟ أليست حجارة صمًّا لا تسمع ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع؟

١. محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، مرجع سابق، ص١٠٥.
٢. الهَيْنمة: الصوت الذي لا يُفهم.
٣. توشَّح بالسيف: تقلَّده.
٤. جَبَذَ: جذب.
٥. دلائل النبوة ومعجزات الرسول ﷺ، د. عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص٣٨٥، ٣٨٦.
٦. تختال: تخادع.

قلت: بلى والله إنها كذلك، قال: فقد والله صدقتك خالتك، هذا رسول الله ﷺ محمد بن عبد الله، قد بعثه الله ﷻ برسالته إلى خلقه، قال: فوالله ما تمالكت حين سمعت قوله أن أسلمت، ثم لم ألبث أن تزوجت رقية، فكان يقال: أحسن زوجين رقية وعثمان[1].

نلاحظ من خبر إسلام عثمان ﷺ أنه لم يسلم إلا بعد أن أدرك أن ما كانوا يعبدونه من أصنام وحجارة ما هو إلا باطل، فهي لا تضر ولا تنفع، ولم يسلم إلا بعد أن اقتنع أن ما جاء به ﷺ هو الحق، وقد وصفه أبو بكر بالعقل والحزم، فكيف يمكن بعد ذلك وصف هؤلاء الصحابة الذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله بأنهم سذج أو بُلْه؟

ولدينا نماذج أخرى من الذين آمنوا به ﷺ وقد كانوا ملوكًا وأمراء على أقوامهم قبل الإسلام، ومنهم:

وائل بن حُجْر:

كان ملكًا مطاعًا في قومه، وكان له صنم من العقيق[2] الأحمر يعبده ويحبه حبًّا شديدًا، وكان يكثر السجود له ويعقر له العَقائر[3]، وبينما هو نائم في الظهيرة أيقظه صوت منكر من المخدع الذي فيه الصنم، فقام من مضجعه وأتاه فسجد بين يديه، وقال وائل: ثم وجدت الصنم خرَّ لوجهه، وانكسر أنفه واندقت، فقدمت إليه فجعلته رفاتًا، ثم سرتُ مسرعًا حتى أتيت المدينة، وأتيت المسجد، فلما رآني رسول الله ﷺ بسط لي رداءه، فجلست عليه، ثم صعد المنبر وأقامني دونه، ثم قال: أيها الناس هذا وائل بن حُجْر أتاكم من أرض بعيدة من حضرموت راغبًا في الإسلام، فقلت: يا رسول الله بلغني ظهورك، وأنا في ملك عظيم، فمنَّ الله علي أن رفضت ذلك كله وآثرت الدين، قال: صدقت، اللهم بارك في وائل وولده وولد ولده، قال وائل: فما لقيني أحد من الصحابة إلا قال لي: بشَّرنا بك رسول الله ﷺ قبل قدومك بثلاث[4].

وهنا سؤال يتبادر إلى الذهن عند تأمل خبر إسلام وائل بن حُجْر وهو: لماذا يترك وائل صنمه الذي يعبده ويترك ملكه، ويأتي ليسلم ويتبع رسول الله ﷺ؟

لا بد أنه قد تأكد أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق، وأن ما كان فيه من لهو وعبادة للأصنام هو الباطل، فأسرع باتباع النبي ﷺ وتصديقه ليلحق بطريق الحق والهداية، ويبعد عن الضلال والغواية، فهل يمكن أن ينطبق عليه وصف هؤلاء المتقولين بالسذاجة؟ أيمكن لعاقل أن يصف من يعبد الله - خالق السماوات والأرض - بأنه ساذج أو أبله؟ إذن، فماذا نُسَمِّي من عَمِيَ عن خالقه ورازقه... ثم عبد من دونه ما لا يغني عنه ولا عن نفسه شيئًا؟!

إن وصف هؤلاء الصحابة الكرام بالسذاجة أو البلاهة لهو السذاجة والبلاهة بعينها؛ فقد كانوا ﷺ أحسن الناس عقلًا، وأكثرهم حكمة، وأوسعهم إدراكًا، وأصدقهم مشورة.

وكيف يوصف بالسذاجة من هزموا إمبراطورية الروم، وقهروا مملكة الفرس؟! وكيف يوصف بالسذاجة من استطاعوا نشر الإسلام في أنحاء المعمورة

١. الخصائص الكبرى، السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٢١٨، ٢١٩.
٢. العقيق: حجر كريم أحمر يُصنع منه الفصوص.
٣. العَقائر: هي الذبائح، وكانوا يتقرَّبون بها إلى الأصنام.
٤. محمد أعظم البشر، د. حمزة النشرتي، دار النشرتي، مصر، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٣٠١، ٣٠٢.

في مدة زمنية قصيرة جدًّا؟ وإذا كانت دعوته ﷺ لا يؤمن بها إلا السذج، فلماذا أسلم كفار قريش أمثال: عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وسفيان بن حرب وغيرهم ممن حاربوا الإسلام؟! هل كانوا عقلاء عندما حاربوا الإسلام ثم تحولوا إلى السذاجة بدخولهم في الإسلام بعد أعوام قليلة؟!

كما أنه ليس صحيحًا أن فقراء الصحابة دخلوا في الإسلام؛ لأنهم ملُّوا الفقر، فما الذي كان يملكه النبي ﷺ ليعطيه لهم؟

لم يكن النبي ﷺ كثير الأموال، ولم يكن زعيمًا أو قائدًا في قومه، إنه كان يرعى الأغنام على قراريط لأهل مكة، ثم عمل في تجارة السيدة خديجة بنت خويلد. فأيُّ شيء وَعَدَهُم من نعيم الدنيا، وليس له منها شيء يُذْكر؟ أَوَقَدْ نَسِيَ المدَّعون ما عاناه الصحابة والنبي ﷺ من شدة الجوع والفقر، حتى إنهم لَيَربطون الحجر فوق بطونهم، وإن الرسول ﷺ لَيَرْبط حجرين، فَمِن أين يعطيهم؟، وأي نعيم يعدهم به؟! إنه كان لا يعد من يأتيه ليعلن إسلامه إلا بشيء واحد هو "الجنة".

والثابت تاريخيًّا أن هؤلاء الفقراء وجدوا الإهانة والتعذيب من أسيادهم بعد اعتناقهم الإسلام، فهذا النبي ﷺ يمرُّ على آل ياسر وهم يعذبون بسبب إسلامهم. فيقول لهم: "صبرًا آل ياسر فإن مصيركم إلى الجنة"[1]. وهذا بلال بن رباح يُعذَّب ويكاد يهلك لولا إعتاق أبي بكر له، ونماذج تعذيب الكفار للمسلمين وإذلالهم لصدهم عن الإسلام كثيرة ومتنوعة، ولا يتسع المجال لسردها أو حصرها.

وهؤلاء الفقراء قد هاجروا إلى المدينة فرارًا بدينهم، تاركين أموالهم وأبناءهم ومساكنهم، فأيُّ نعيم دنيوي تطلعوا إليه عندما آمنوا بدعوة نبي قد تكالب عليه الزعماء والأشراف ليخرجوه أو يقتلوه؟

أما الأغنياء، أمثال: أبي بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف، فما كان إيمانهم لأنهم ملُّوا الترف، وإلا لحرصوا بعد إيمانهم على إضاعة المال وإهداره فيما لا يفيد، ولَأَداروا للدنيا ظهورهم لا يعبئون بها وبما فيها، منصرفين عنها بالكلية، وهذا ما لم يثبت عنهم، ولم يأت نص قرآني أو نبوي يحضهم عليه، بل كان العكس، أن نزلت الآيات الكريمات التي تحضهم على الإنفاق في سبيل الله وتأمرهم به، كقول الله ﷻ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران: ٩٢)، ونزلت الآيات التي تأمرهم بالاعتدال في إنفاق الأموال، وتحول بينهم وبين الإسراف وإضاعة الأموال في غير فائدة، قال الله ﷻ محذرًا من التبذير: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ (الإسراء)، وقال: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ (الأعراف).

فهؤلاء الأغنياء حافظوا على أموالهم ولم يضيعوها وأنفقوا على الجهاد والدعوة من أموالهم الكثير والكثير، فقد ثبت أن النبي ﷺ قال: "ما أحد أعظم عندي يدًا من أبي بكر"،[2] وورد أن عمر أتى بنصف ماله إلى رسول

---

[1]. صحيح: أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ١٤٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٣/ ٣٦٩)، وصححه الألباني في تحقيقه لفقه السيرة، ص١٠٣.

[2]. صحيح: أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١/ ١٩١)، أحاديث عبد الله بن العباس رضي الله عنهما (١١٤٦١)، وفي المعجم الأوسط (١/ ١٦٦) برقم (٥٠٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٢١٤).

الله ﷺ لينفقه على الدعوة، وهذا عثمان بن عفان يجهز ثلث جيش العُسرة (غزوة تبوك)، وهذا عبد الرحمن بن عوف يترك تجارته وأمواله في مكة من أجل الحفاظ على إيمانه، فيأتي المدينة ويسأل عن السوق ويبحث لنفسه عن مكان لتاجر بسيط، ولكنه ما يلبث أن يصبح من أكبر تجار المدينة، إذن، كانوا أغنياء، ولكن هذا الغنى كان مسخَّرًا لخدمة الإسلام الذي دخلوه مقتنعين به، باذلين كل غالٍ ورخيص في سبيله®.

ثانيًا. كلام النبي ﷺ عن الجنة والنار ليس حديث خرافات:

الجنة هي الجزاء العظيم والثواب الجزيل الذي أعده الله لأهل طاعته، أما النار فهي العذاب الأليم والسجن الكئيب الذي أعده الله تعالى للكافرين والعصاة، وليست الجنة والنار من حديث الخرافات، وإليك بيان ذلك:

١. حديث القرآن عن الجنة والنار:

ما من نبي إلا وأخبر قومه بحقيقة اليوم الآخر وما يكون فيه، وقد تكلم النبي ﷺ عن الجنة والنار، فوعد المؤمنين الطائعين بالجنة، وأنذر الكافرين والعصاة عذاب النار، وتعددت الآيات التي تكلمت عن الجنة والنار وتنوعت في طرق سردها.

من ذلك قوله تعالى عن الجنة: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ (آل عمران)، ويقول ﷻ: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ (الحديد: ٢١)، ومن الآيات التي تكلمت عن النار قوله تعالى: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ﴿٢٢﴾ ﴾ (النبأ).

٢. علاقة الجنة والنار باليوم الآخر، وأهمية الإيمان به:

إن الحديث عن الجنة والنار لا بد أن يتصل بالحديث عن اليوم الآخر، فالجنة والنار هما النهاية التي ينتهي إليها كل إنسان بعد الحساب والعرض على الله ﷻ، واليوم الآخر هو المخصص لأمر الحساب، وبعدها إما أن يدخل الإنسان الجنة أو النار؛ لذلك سيتداخل كلامنا عن الجنة والنار مع الحديث عن اليوم الآخر وقضية البعث والحساب.

والإيمان باليوم الآخر هو العنصر المهم الذي يلي الإيمان بالله مباشرة؛ لأن الإيمان بالله يحقق المعرفة بالمصدر الأول الذي صدرعنه الكون، والإيمان باليوم الآخر يحقق المعرفة بالمصير الذي ينتهي إليه هذا الوجود.

ويبرز الشيخ السيد سابق أهمية العلم بالمصدر والمصير والنتيجة المترتبة على الجهل بهما فيقول: "وعلى ضوء المعرفة بالمصدر والمصير يمكن للإنسان أن يحدد هدفه، ويرسم غايته، ويتخذ من الوسائل والذرائع ما يوصله إلى الهدف ويبلغ به الغاية.

ومتى فقد الإنسان هذه المعرفة فإن حياته سوف تبقى حياة لا هدف لها ولا غاية منها، وحينئذ يفقد الإنسان سموه الروحي وفضائله العليا، ويعيش كما تعيش الأنعام، تُسيِّرها غرائزها الطبيعية واستعداداتها الفطرية، وهذا هو الانحطاط الروحي المدمر لشخصية

® في **"إسلام عمر بن الخطاب ﷺ"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة السابعة، من الجزء الثاني (أخلاق النبي ﷺ).

الإنسان" [1].

٣. الإيمان باليوم الآخر يرتقي بشخصية الفرد:

"في الإنسان نزعتان فطريتان متكاملتان: إحداهما تنزع إلى الإيمان بالمحسوس، والأخرى تنزع إلى الإيمان بالغيب. وإذا كان الإنسان يشترك في النزعة الأولى مع بعض المخلوقات الأخرى، فقد خصَّه الله بالنزعة الثانية، وهي الإيمان بالغيب، وكرَّمه بها، وفضله بها على كثير ممن خلق. وكانت هذه الموهبة الربانية من عوامل رفعة الإنسان واتساع أفقه وعظمة روحه، وانفساح المجال أمامه وراء المحسوسات القريبة إلى آفاق التفكير والتدبر في الكون كله؛ لينتفع به ويستدل به على عظمة خالقه ومبدعه" [2].

أما الإنسان الذي يكتفي بالنزعة الأولى - الإيمان بالمحسوس فقط - فسوف يعيش في ضنك وضيق من العيش؛ لضيق أفقه وإحساسه بعدم قيمة الحياة التي يحياها، وسوف يزيد اضطرابه وقلقه؛ لرغبته في الحياة وخوفه من الموت، وسوف يسارع إلى الملذات، ويعيش حياة بهائمية؛ لأن عمره محدود بسنوات، ولذائذ الحس كثيرة ومتنوعة، وسوف تغيب من حسه معانٍ مثل: الضمير، والحرام، والفضائل، والعلم، والإبداع، والحقوق، وسوف يمتد التأثير إلى المجتمع وإلى الأمم لتعيش في صراعات وتكالب على الدنيا والملذات.

ولن يرتفع الإنسان من ثقلة الأرض، ولن يتحرر من عبودية الشهوات ولن يرتقي بحياته إلا إذا آمن - بعد إيمانه بالله - باليوم الآخر، فالإيمان بأن كل متاع زائد يتنازل عنه الإنسان في الحياة الدنيا - طاعة لله والتزامًا بأمره - يُعَوَّضُ عنه في الآخرة بمتاع أعلى وأخلد وأبقى، والإيمان في ذات الوقت بأن كل خروج على أمر الله في الحياة الدنيا - من أجل متاع الأرض الزائل - سيجازي عليه في الآخرة عذابًا أليمًا؛ هذا الإيمان يصنع الفرد المثالي، الذي يقدر على الارتفاع إلى القيم العليا والأخلاق الفاضلة والمثل الرفيعة؛ لأنه يوقن بالجزاء الذي سوف يناله على ذلك كله.

وعندئذ يوجد الفرد الصالح والجماعة الصالحة التي تتعاون على البر والتقوى ولا تتعاون على الإثم والعدوان [3].

٤. العقل والفطرة السليمة لا يتعارضان مع الإيمان باليوم الآخر:

هذا الكون بما فيه من سماوات وأراض وجبال وبشر ودواب سوف يصبح خلقه باطلًا ونوعًا من العبث إذا لم يكن هناك يوم آخر يحاسب فيه الناس على أعمالهم، فيثاب المُحسِن ويعاقب المسيء. قال ﷻ: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ (المؤمنون).

"فنحن نشاهد في حياتنا الدنيا ظالمين ظلوا ظالمين حتى لحظة الموت، ومظلومين ظلوا مظلومين حتى لحظة الموت. أفإن كانت الحياة الدنيا هي نهاية المطاف أيكون هذا عدلًا وحكمة؟! وأين هو العدل، والظالم لم يُقتصَّ منه، والمظلوم لم يقتصَّ له؟! وأين هي الحكمة في خلق حياة تجري أحداثها على غير مقتضى العدل، ثم

---

١. العقائد الإسلامية، السيد سابق، دار الكتب الحديثة، ط٣، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، ص٢٣١ بتصرف يسير.

٢. ركائز الإيمان، محمد قطب، مرجع سابق، ص١١٥ بتصرف.

٣. المرجع السابق، ص٣٩٤، ٣٩٥ بتصرف.

تنتهي على هذه الصورة" [1]؟

لا يجوز في حق الله تعالى أن تكون الأمور على هذه الصورة من العبث وعدم الحكمة.

لقد أخبرنا الله تعالى في كتابه أنه خلق الموت والحياة ليبلونا أينا أحسن عملًا: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ (٢)﴾ (الملك).

"فإذا كان الموت هو نهاية المطاف، فأين حكمة خلق الموت والحياة؟ وكيف يتميز الذين أحسنوا العمل من الذين أساءوا" [2]؟

"والحساب هو مقتضى العدل الإلهي، فالله ﷻ متصف بصفات الكمال، ومن صفاته الكمالية العدل والحكمة، فهو عدل لا يظلم أحدًا من خلقه، وحكيم لا يضع الشيء في غير موضعه.

ومن عدله وحكمته ألا يُسَوِّي بين البر والفاجر، ولا بين المؤمن والكافر، ولا بين المحسن والمسيء، فإن التسوية بينهما منتهى الظلم والسفه" [3].

فالعدل أن يُحاسَب كل فرد بعد البعث على ما قدم من خير أو شر، فمن غلب خيرُه شرَّه دخل الجنة، ومن غلب شرُّه خيرَه دخل النار.

وإذا تبجح أحدهم وقال: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ (٤٨)﴾ (الواقعة)، قلنا له: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦)﴾ (الجاثية).

فالله تعالى الذي خلقكم أولًا، والذي يميتكم ثانية، أليس بقادر على إحيائكم مرة أخرى؟! بلى وهو الخلاق العليم.

وعليه فليس صحيحًا أن المؤمنين الأوائل بنبوة محمد ﷺ كانوا من السذج والبُلْهِ؛ لأنهم صدقوا بوجود الجنة والنار، لأن السذاجة والبله حقًّا هو إنكار وجودهما لعدم وقوعهما تحت إدراك الحس والعقل. وهل كل ما لا يدركه الحس أو العقل لا وجود له؟ لا شك أن هذا لا يقول به عاقل منصف يحترم الحق®.

الخلاصة:

- لقد ظل النبي ﷺ طيلة ثلاث عشرة سنة يدعو الناس إلى التوحيد فقط، ولا يَعِدُ أحدًا من الناس بشيء من أمور الدنيا؛ لهذا نجد أن كل من آمن بدعوته ﷺ قد آمن عن اقتناع تام بصدق دعوته، وأن ما جاء به هو الحق من ربه، وأن ما عداه هو الضلال المبين.
- لقد آمن بدعوة محمد ﷺ أناس من كافة فئات المجتمع وكانوا على درجة كبيرة من الاحترام في أقوامهم، وقدراتهم العقلية تفوق أقرانهم، ويكفي أن نعرف أن من أوائل هؤلاء المسلمين: أبا بكر الصديق التاجر الذكي ونسابة قريش، وعمر بن الخطاب التاجر المشهور وسفير قريش في الجاهلية، وعثمان بن عفان الذي هداه عقله إلى ما عليه قومه من الضلال، وأن ما يعبدون من دون الله لا يضر ولا ينفع، وهؤلاء الثلاثة قد تولوا خلافة المسلمين

---

1. المرجع السابق، ص٣٨٧.
2. المرجع السابق، ص٣٩٤، ٣٩٥ بتصرف.
3. العقائد الإسلامية، السيد سابق، مرجع سابق، ص٢٤٩.

® في **"العدل الإلهي يقتضي البعث والجزاء الأخروي"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة السابعة، من هذا الجزء.

واستطاعوا أن يدبروا أمر أمة عظيمة، وأن يقضوا على أكبر إمبراطوريتين في ذلك الوقت (الفرس والروم)، فهل يمكن أن يقال إنهم من السذج والبله؟! وكذلك آمن بهذه الدعوة زعماء وسادة وملوك في أقوامهم كعدي بن حاتم، والنجاشي ملك الحبشة، ممن لا يمكن أن يوصفوا بالسذاجة والبَلَه إلا ممن سفه عقله.

- الجنة والنار حق وليستا من الخرافات، وقد أخبر بهما جميع الأنبياء والرسل، فوعدوا المؤمنين بالجنة، وأنذروا الكافرين وحذروهم من النار، والكلام عن الجنة والنار يوافق العقل، ولا ترفضه الفطرة السليمة؛ إذ إن من مقتضيات العدل والحكمة الإلهية أن يكون ثمة يوم آخر يحاسب الناس جميعًا فيه تحت عدالة نزيهة لا تعرف المجاملات أو المحْسُوبيَّات، وكلٌّ يُحاسب بما فعل إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، أمَّا أن تنتهي الحياة بالموت وانتهاء الدنيا ثم لا يُعاقب الظالم ولا يجازى المظلوم فهذا هو الظلم بعينه.

الشبهة التاسعة

الزعم أن النبي ﷺ كان صناعة بيئته ونتاجًا طبَعِيًا لها (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن النبي ﷺ ليس رسولًا يُوحَى إليه من عند الله، وإنما هو رجل أفرزته ظروف بيئته المكِّيَّة ذات المركز الثقافي والديني والاقتصادي. ويهدفون من وراء ذلك إلى التشكيك في مصدر نبوته ﷺ؛ بغية صرف الناس عنها.

وجها إبطال الشبهة:

1) ما كانت طبيعة البلاد العربية عامة، ومكة ـ التي نشأ فيها محمد ﷺ خاصة ـ لتسمح بخروج رجل مثله، ولكنه نُدب من قبل الله ﷻ لإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

2) النبي ﷺ هو النعمة المسداة من الله ﷻ إلى البشرية، وليس صناعة بيئته؛ لذا جاءت حياته مختلفة اختلافًا كُلِّيًّا عن حياة أهل بيئته.

التفصيل:

أولا. ما كان لبيئة ما أيًّا كانت طبيعتها أن تصنع نبيًّا:

معلوم أن طبيعة البلاد العربية عمومًا، ومكة خصوصًا ـ وهي التي ظهر ونشأ فيها محمد ﷺ ـ ما كانت لتسمح بخروج مثله، وإذا أخذنا أمثلة على حال البلاد العربية، ومكة قبل بعثته ﷺ نجد الآتي:

كان العرب قبل البعثة المحمدية، قد وقعت بينهم الفرقة، وانتزعت الألفة من قلوبهم، واختلفت كلمتهم، وذهبت وحدتهم، واضطربت أحوالهم، فكانوا إخوان دَبَر ووَبَر[1]، أذل الأمم دارًا، وأجدبها قرارًا، لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بها، ولا إلى ظل ألفة يضويهم لواؤها، فأحوالهم مضطربة، وأيديهم متفرقة، وكانوا من جراء ذلك في بلاء عظيم، من جهالات مطبقة، وشرور موبقة، وبنات موءودة، وأصنام معبودة، وأرحام مقطوعة، وغارات مشنونة.

(*) السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال الجبري، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1408هـ/ 1998م.

1. إخوان دَبَر ووَبَر: كناية عن المذلة والجوع وضيق العيش.

قد تردَّوا قبل البعثة المحمدية في هاوية الانحلال الاجتماعي، بما لم يعهد له مثيل، فكانوا في جهل بأحكام الدين الصحيح، ومبادئ السياسة والحياة الاجتماعية، ولم يكن لهم فن يذكر، أو صناعة تنشر، ولم يكونوا يعرفون شيئًا من العلاقات الدولية، بل كانت كل قبيلة أمة قائمة بنفسها، تتحفز لشن الغارة على جارتها.

تفشَّى في العرب كثير من العادات المنكرة، كشرب الخمور و لعب الميسر ووأد البنات والسلب والنهب، وكثيرًا ما كانت الكلمة الواحدة تفضي إلى القتل، حتى بلغت روح الانتقام درجة مروعة، كان من مظاهرها أن النساء لم يكن يرضيهن سوى صبغ ملابسهن بدم القتيل، وأكل قلبه وكبده.

هذا إلى أن منهم من تأول الإله ببعض الحيوان لكثرة نفعه، أو شدة ضره، ومنهم من تمثله في الكواكب لظهور أثرها، ومنهم من حسبه في الأشجار والأحجار لاعتبارات لهم فيها.

وجملة القول أنهم وصلوا إلى حال لا يستحقون فيها اسم الجماعة، فقد أمعنوا في القسوة والمنكرات، ولم يتذرعوا بعلم، أو يعتصموا بقانون، وانحط الضمير الإنساني فيهم إلى أسفل درجاته، حتى بدلوا بالفضيلة الرذيلة، ونوَّهوا بأصحابها.

كانت الخيرات قد نضبت في مكة، ومُنعت الصدقات، وهُضمت حقوق الفقراء، وأُكِلت أموال الناس بالباطل، وفشا الظلم، واختفت المحاسن، وغاض معين الشفقة والرحمة، وأُغفلت حقوق الجوار، وفُصمت[1] رابطة الإخاء الإنساني، حتى لا يُقبل المقبل منهم إلا على مدبر ولا يدبر إلا عن مقبل.

وقصارى القول فيما سبق أن المعاملات في البلاد العربية وغيرها قد أصبحت قبل البعثة المحمدية المباركة مقتلة للفقراء، مزرعة للأحقاد، داعية إلى انتشار أنواع الفساد، مؤدية إلى حصر الثروة في طبقة من الناس، ترى نفسها القابضة على زمام العالم المحركة لفلكه، وترى لنفسها الرياسة التامة، والسيادة العامة، وإن لم يكن لأفرادها حظ من العلم والعمل، والحكمة وبعد النظر.

وهكذا، فقد امتازت الفترة السابقة لظهور النبي محمد ﷺ، بأن العالم جميعه قد غشيته سحابة كثيفة من الشرك والجهل والرذيلة والظلم، فحلَّ المنكر محل المعروف، وقبض أهل السوء على ناصية الأمم، وبهذا تجلت الضرورة القاهرة إلى ظهور النبي محمد ﷺ، الذي قام بأعظم إصلاح للمجتمع؛ مما دل على أنه أوتي من بُعد النظر ونفاذ الرأي، وحسن السياسة، والعلم بطبائع الخلق، ما لم يؤته أحد. هذا مع استعداده لبذل مصالحه الشخصية، ونفسه العزيزة، في سبيل تحقيق الأغراض السامية، التي لم يرض أن يتخلى عنها بوعد أو وعيد.

ندبه الله لحمل هذا العبء الجسيم، عبء هداية الإنسانية، فلبى راضيًا مغتبطًا عارفًا بالبيئة التي وُلد فيها وعاش، فقد أنشأه الله يتيمًا فقيرًا، يكسب قوته بكدِّ يمينه، وعرق جبينه، فاشتغل بالتجارة، وسافر غير مرة، وخالط الناس، ووقف على أعمالهم يفكر في أسباب شقاء المعوزين منهم، والطرق التي تخفف من نكبات الفقر، وأثقال الظلم، فكانت هذه الأسفار، وهذا الاختلاط بالناس، والإصغاء إلى أحاديثهم، إعدادًا

1. فَصَم: قَطَع.

لتلقي الأمر الإلهي[1].

وهكذا، فإننا نجد أن طبيعة البيئة المحيطة به ﷺ عمومًا، ما كانت لتتيح الفرصة، أو تساعد على ظهور مثل النبي ﷺ، ولكنه ﷺ نُدب من قبل الله ﷻ، لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلالات إلى الهداية.

فأين هذه البيئة وطبائعها مما جاء به محمد ﷺ®؟

ثانيًا. النبي محمد ﷺ هو الرحمةُ المهداةُ من الله ﷻ إلى البشرية:

لقد جاءت حياته ﷺ بصورة تختلف اختلافًا كليًّا عن حياة أهل بيئته، جاءت بصورة تدل على كونه رسول الله، وعلى أنه محاط برعاية الله ﷻ وعنايته.

فقد كانت حياة النبي ﷺ قبل البعثة حياة فاضلة شريفة، لم تُعرف له فيها هفوة، ولم تُحصَ عليه فيها زلة، لقد شبَّ رسول الله ﷺ والله تعالى يحوطه بعنايته، ويحفظه من أقذار الجاهلية، لما يريده له من كرامته ورسالته، حتى صار أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقًا، وأكرمهم حسبًا، وأحسنهم جوارًا، وأكثرهم حلمًا، وأصدقهم حديثًا، وأحفظهم للأمانة، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، تنزهًا وتكرمًا حتى صار معروفًا بـ "الأمين".

لقد كان في المجتمع العربي حنيفيون موحدون، وكان هناك كرماء، وكان هناك أوفياء، وكان هناك أناس عُرفوا بالعفة والطهارة والبعد عن المآثم والتنزه عن الفواحش، ولكن كان عزيزًا جدًّا أن تجد في هذه البيئة إنسانًا جمع الله فيه كل هذه الصفات وغيرها مثل ما جمع الله ذلك في النبي ﷺ.

لقد نشأ سليم العقيدة، صادق الإيمان، عميق التفكر، غير خاضع لترهات الجاهلية، فما عُرف عنه أنه سجد لصنم قط، أو تمسَّح به، أو ذهب إلى عرَّاف أو كاهن، بل بُغِّضت إليه عبادة الأصنام، والتمسُّح بها، ولما لقي بَحِيرا الراهب قال له: أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك عنه، وكان بَحِيرا سمع قومه يحلفون بهما، فقال له النبي ﷺ: "لا تسألني بحق اللات والعزى شيئًا، فوالله ما أبغضت شيئًا قط بغضهما"[2].

وكذلك بُغِّض إليه قول الشعر وإدراك ما فيه فلم يعرف عنه أنه قال شعرًا، أو أنشأ قصيدة، أو حاول ذلك؛ لأن ذلك لا يتلاءم ومقام النبوة، فالشعر شيء، والنبوة شيء آخر، ولم يكن الشعراء بذوي الأخلاق والسير المرضية، فلا عجب أن نزهه الله ﷻ عن الشعر، والرسالة تقتضي انطلاقًا في الأسلوب والتعبير، والشعر تقيد والتزام، وصدق الله ﷻ إذ يقول: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ (يس).

ومع هذا فقد كان يتذوق الشعر لما فيه من جمال وحكمة وروعة، ويستنشده أصحابه أحيانًا، ولا عجب فهو القائل: "إن من البيان لسحرًا، وإن من الشعر

---

1. محمد ﷺ المثل الكامل، أحمد جاد المولى، مكتبة دار المحبة، دمشق، ط1، 1412هـ/ 1991م، ص62: 69 بتصرف.

® في **"صفات المجتمع الجاهلي كما صورها القرآن"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة العاشرة، من هذا الجزء. وفي **"الحالة الدينية للعالم قبل بعثة النبي ﷺ"** طالع: الوجه الرابع، من الشبهة السابعة، من الجزء الأول (حياة النبي ﷺ الخاصة).

2. ذكره أبو نعيم الأصفهاني في دلائل النبوة، ص230، 231.

حكمًا"[1].

ولم يشرب خمرًا قط، ولا اقترف فاحشة، ولا انغمس فيما كان ينغمس فيه المجتمع العربي حينئذٍ من اللهو واللعب والمَيسِر[2] ومصاحبة الأشرار، ومعاشرة القِيان[3]، والجري وراء اللاهيات العابثات الفاجرات، على ما كان عليه من فتوة وشباب، وشرف نسب، وعزة قبيلة، وكمال وجمال وغيرها من وسائل الإغراء.

حتى الأمور التي قد يُتسامح فيها في عهد الطفولة أثناء اللعب قد صانه الله تعالى منها، قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ - فيما ذكر لي - يحدث عما كان الله يحفظه به في صغره، فقد روت كتب السيرة أنه قال: "لقد رأيتني في غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب الغلمان، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة، فإني لأقبل معهم وأدبر إذ لكمني لاكم ما أراه لكمة وجيعة، ثم قال: شُدَّ عليك إزارك، قال: فأخذته وشددته عليَّ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي، وإزاري عليَّ من بين أصحابي".

بل كان من توفيق الله له أنه كان يقف مع الناس بعرفات قبل أن يُوحَى إليه، ولا يصنع ما تصنع قريش من عدم وقوفها مع الناس بعرفات، ووقوفها بالمزدلفة، فعن جبير بن مطعم، قال: "لقد رأيت رسول الله ﷺ قبل أن يُنَزَّل عليه، وإنه لواقف على بعير له مع الناس بعرفات حتى يدفع معهم، توفيقًا من الله ﷻ له" [4].

وكان النبي ﷺ محل ثقة الناس وأماناتهم، لا يأتمنه أحد على وديعة من الودائع إلا أداها له، ولا يأتمنه أحد على سر أو كلام إلا وجده عند حسن الظن به، فلا عجب أن كان معروفًا في قريش قبل النبوة بـ"الأمين".

وقد استمرت هذه الثقة إلى ما بعد النبوة، ولذلك لما هاجر ﷺ أبقى عليًّا كي يرد ودائع الناس التي كانت عنده، وكان لا يعاهده أحد عهدًا إلا وجد عنده حسن الوفاء، ولا يعد وعدًا إلا صدق فيه.

وكان الصدق من صفاته البارزة، شهد له بذلك العدو والصديق، ولما بعثه الله إلى الناس جميعًا وأمره أن ينذر عشيرته الأقربين صار ينادي بطون قريش، فلما حضروا قال لهم: "أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا وراء هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، أكنتم مُصدقيَّ"؟ قالوا: نعم. ما جربنا عليك كذبًا قط[5]. ولما قابل هرقل - ملك الروم - أبا سفيان بن حرب - وكان لم يزل مشركًا - قال له: هل جربتم عليه كذبًا؟ قال: لا، قال هرقل: ما كان ليدع الكذب على الناس، ويكذب على الله[6]!!

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، من مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس رضي الله عنهما (٢٧٦١)، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب ما جاء في الشعر (٥٠١٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢١٥).

٢. المَيسِر: القِمار.

٣. القِيان: الجواري أو المغنِّيات.

٤. إسناده حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المدنيين، حديث جبير بن مطعم ﷺ (١٦٨٠٣)، وابن خزيمة في صحيحه، كتاب المناسك، باب ذكر عدد حجج النبي ﷺ (١٧٧٢)، وحسن إسناده الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة الشعراء (٤٤٩٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ (الشعراء) (٥٢٩).

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧).

وكان النبي ﷺ إلى ذلك كله وَصولًا للرحم، عطوفًا على الفقراء وذوي الحاجة، ويقري الضيف، ويعين الضعيف، ويمسح بيديه بؤس البائسين، ويفرج كرب المكروبين، وقد وصفته بهذا السيدة العاقلة الحازمة خديجة رضي الله عنها ـ وهي أعرف الناس به ـ في بدء النبوة، فقالت: "ما كان الله ليخزيك أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتَقرِي الضيف، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتُعين على نوائب الحق"[1].

ومن هذا العرض نرى أن حياة النبي ﷺ قبل البعثة كانت أمثل حياة وأكرمها، وأحفلها بمعاني الإنسانية والشرف والكرامة، ثم نبأه الله وبعثه، فنمت هذه الفضائل وترعرعت، وما زالت تسمو فروعها، وترسخ أصولها، وتتسع أفياؤها[2] حتى أضحت فريدة في تاريخ الحيوات في هذه الدنيا.

إن هذه الحياة الفاضلة المثلى لَمِن أكبر الدلائل على ثبوت نبوته ﷺ، فما سمعنا في تاريخ الدنيا قديمها وحديثها أن هناك حياة كلها فضل وكمال وهدى كحياة نبينا محمد ﷺ، ولم يُعهد في تاريخ البشر أن شخصًا يسمو على مجتمعه كله وهو يعيش فيه، وينشأ مبرءًا من كل نقائصه وهو نابع منه! ولا أن نورًا ينبعث من وسط ظلمات، ولا طهارة تنبع من وسط أدناس، ولا أن علمًا يكون من بين جهالات وخرافات، اللهم إلا إذا كان ذلك لحكمة، وأمرًا جرى على غير المعهود، وما ذلك إلا لإعداد محمد ﷺ للنبوة ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام: ١٢٤). وصدق الإمام البوصيري في قوله:

كَفَاكَ بِالعِلمِ في الأُمِّـيِّ مُعجِـزَةً
في الجاهِلِيَّةِ والتَّأدِيبِ في اليُتُمِ[3]

وهكذا، نجد أن النبي ﷺ كان صناعة ربانية، تنأى عن الأخطاء والآثام، والذنوب والمعاصي، وعليه يبطل الزعم بأنه ﷺ صناعة بيئته، وذلك لمخالفته ﷺ ما كان عليه قومه من الناحية الدينية والاجتماعية وغيرها.

الخلاصة:

- طبيعة البلاد العربية عامة، ومكة خاصة، التي ظهر فيها محمد ﷺ ونشأ فيها، ما كانت لتسمح بخروج رجل مثله ﷺ؛ إذ الفساد كان متفشيًا بشتى صوره، من عبادة أوثان وشرب خمور وزنا وربا... إلخ، فكان بعثه ﷺ من قبل الله ﷻ؛ لإخراج الناس من الظلمات إلى النور.
- النبي ﷺ هو الرحمة المهداة والنعمة المسداة من الله تبارك وتعالى إلى البشرية كلها، ربَّاه تبارك وتعالى على عينه، وهيَّأه للنبوة والرسالة، فليس ﷺ صناعة بيئته كما يزعمون فقد كانت حياته مختلفة اختلافًا كليًّا عن حياة أهل بيئته، في اعتقاده وأخلاقه وطباعه ومعاملاته.

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٤٢٢).

٢. الأفياء: جمع الفيء، وهي الظِّل.

٣. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج١، ص٢٣٥: ٢٤٠ بتصرف يسير.

الشبهة العاشرة

ادّعاء أن صفة الجاهلية إنما أطلقها النبي ﷺ؛ ليُخْفي تأثُّره بالمجتمع العربي (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين أن النبي ﷺ إنما أطلق وصف الجاهلية على مجتمع ما قبل الإسلام؛ ليواري تأثره بهذا المجتمع وثقافته في وضعه القرآن والحديث، وأنه ـ أي المجتمع الجاهلي ـ لم يكن جاهليًّا كما قد أُشِيع، بل كان مجتمع علم وفكر وعواطف رقيقة، وقد تمثل ذلك كله فيما عُرف فيه من شعر وأدب، ومن فكر وجدال ظهرا في مناقشتهم للعقيدة الجديدة، واستنكارهم لبعض ما انضوت عليه من فوارق العادات المستحيلة ماديًّا، وتتأيد هذه الحقيقة بأن القرآن تحداهم أن يأتوا بمثله، وهذا التحدي هو بمجرده دليل على تقدمهم. ويرمون من وراء ذلك إلى محاولة إثبات أن ما زعمه محمدٌ ﷺ وَحْيًا يصير بمقتضاه نبيًّا، إنما استمده من الحياة العربية التي ذهب ينعتها بالجاهلية؛ إخفاءً لتأثره بها.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الجاهلية بمفهومها العام ليست مرحلة زمنية خاصة، بل هي وضع اجتماعي يتكرر كلما وجدت سماته وخصائصه.

٢) الجدال بمجرده ليس دليلا على علم أو فكر، فربما كان توقُّحًا يجحد البداهات.

٣) إن بُعد الحياة العربية وقت بعثته ﷺ عن مبادئ الإسلام كانت من أهم مقتضيات بعثته ﷺ؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النُّور.

التفصيل:

أولا. مفهوم الجاهلية، وثورة الإسلام على عاداتها:

يجدر بنا بديةً أن نتعرف على معنى كلمة الجهل، فالجهل لغة: نقيض العلم، يقال جهلت الشيء جهلًا وجهالة بخلاف علمته، وجَهِل على غيره: سَفِهَ وأخطأ.

وجهل الحق: أضاعه، فهو جاهل، وجهل، وجهّلته ـ بالتثقيل ـ نسبته إلى الجهل.

وفي الاصطلاح: اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه، وهو قسمان: بسيط، ومركب.

الجهل البسيط: هو عدم العلم ممن شأنه أن يكون عالمًا.

الجهل المركب: عبارة عن اعتقاد جازم غير مطابق للواقع[1].

والجاهلية من حيث الاشتقاق اللغوي مصدر صناعي مأخوذ من الجاهلي نسبة إلى **الجهل**.

وقد ورد لفظ "الجاهلية" في آيات القرآن الكريم، وهو يحمل في كل آية صفةً من صفاته التي تميزه بأنه يعبر عن ظاهرة اجتماعية إنسانية، قبل أن يكون وقتًا وزمنًا خاصًّا، فإذا قيل: إن ما قبل بعثة الرسول ﷺ يمثّل عصر الجاهلية، فمعنى ذلك: أنه كانت هناك ظاهرة اجتماعية تغلب على المجتمع البشري، هي ظاهرة القبلية في علاقات المجتمع، وظاهرة الأنانية في علاقات الأفراد، وإذا كان معنى "الجاهلية" يشير إلى ظاهرة اجتماعية خاصة، فإنها تتكرر في وقت لاحق لبعثته ﷺ

(*) اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، د. إبراهيم عوض، مرجع سابق.

١. الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية الكويتية، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، ج١٦، ص١٩٧.

في كل مجتمع تتوفر فيه عناصرها.

وعناصر مفهوم: "الجاهلية" التي تتجمع من خلال عرض القرآن الكريم لها في آياته تشكل:

١. اتباع الهوى، وعدم العدل في الحكم، أي: مراعاة الأحساب والأنساب، والتفرقة بين الناس حسب منازلهم، يقول الله ﷻ: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ (المائدة: ٤٩)، أي: بين قبائل العرب جميعًا، وبين الناس كافة وما أنزل الله هو العدل المجرد، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾، أي: لا تسر في الحكم وفق ميولهم، فميولهم متأثرة بالمعاني والعادات القبلية ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾، وذلك باتباع أهوائهم، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ أي: وإن أعرضوا وغضبوا لأنك لم تتبع أهواءهم: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ (المائدة)، أي: أيريدون أن تقضي بينهم وفقًا للعادات القبلية، وهي تلك العادات التي تُفرِّق في الحكم بين منازل الناس الاجتماعية؟

٢. مسلك الأنفة والغضب، وعدم الاحتكام إلى العقل والمنطق، يقول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (الفتح) إلى أن يقول ﷻ: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ (الفتح: ٢٦) أي: الغضب والحمق، ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ (الفتح: ٢٦).

ففي صلح الحديبية بعد أن اقتنع المشركون بقوة المسلمين المتزايدة، ووافقوا على ألا يقفوا في سبيلهم في العام القادم إلى الحج بمكة، جاءوا عند كتابة العهد بينهم وبين المسلمين وأظهروا حمقًا في حذف بعض الصيغ التي كان يمليها المسلمون، بينما كان مسلك المسلمين: التأني وضبط النفس واتقاء الإثارة، وتجنب كل ما يؤدي إلى الفشل، ما دام لا يضار الهدف من عهد الصلح، وهو الوصول إلى مكة لأداء مناسك الحج في أمان، في وقت لم يأن الأوان بعد لفتحها بالقوة وإخلاء بيت الله الحرام من الشرك والمشركين، فسمَّت الآية مسلك المشركين عند كتابة العهد: بحمية الجاهلية، وهو مسلك الحمق وعدم تحكيم المنطق، بينما سمَّت مسلك المسلمين: بالسكينة، أي: بالهدوء، والتقوى، وتجنب الإثارة.

٣. صفة الجبن القائم على تخيُّلٍ باطلٍ للحياة والموت، وهو أن الخروج إلى ميدان القتال يقرِّب أجل الإنسان إلى الموت، بينما الاحتماء بعيدًا عنه يحول دون ذلك، يقول الله ﷻ: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ ﴾ (آل عمران: ١٥٤)، أي: ضيق النفوس وقلقها؛ بسبب ما حدث للمؤمنين في غزوة أحد. ﴿ أَمَنَةً ﴾ أي: اطمئنانًا، وكان كما قال الله تعالى: ﴿ نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ (آل عمران: ١٥٤)، وهم المنافقون، قال ﷻ: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ﴾ (آل عمران: ١٥٤)، أي: ليس لنا فيما وقع سبب: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾ (آل عمران: ١٥٤)، أي: لو أُخذ رأيهم لما نصحوا بالخروج

إلى القتال في "غزوة أحد" وما قُتِلَ من قُتِل ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٥٤)، أي: قل أيها الرسول وبلغهم وبلغ الناس جميعًا أن قضاء الله تبارك وتعالى لا يُردُّ، ومن كُتب عليه الموت فسيلقاه حتمًا مهما احتاط وحافظ على حياته، فالخروج إلى ميدان القتال لا يقرِّب من أجل الموت، وكذلك البقاء في حماية الدار لا يبعد شبحه، وصفة الجبن هذه إنما تعود إلى الأنانية، وإذا سادت في المجتمع فإنه يكون مجتمعًا قبليًّا أو جاهليًّا.

٤. تمثل الدعوة السافرة من جانب المرأة لإغراء الرجل بها، يقول ﷻ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ (الأحزاب: ٣٣)، أي: لا تبرزن مفاتنكن لتغرين بهن الرجال، فإن ذلك سمة الجاهلية التي لا تعرف تهذيبًا ولا سموًّا في الإنسانية، ولا ترفعًا عن دنايا الشهوة وانحطاطها.

ومما سبق يتبين لنا أن اتباع الهوى في الحكم بين الناس، وعدم الاحتكام إلى العقل، والجنوح إلى الحمق في المعاملة، والجبن القائم على التصور الباطل في شأن الحياة والموت، وتفريط المرأة في عرضها، هي مظاهر "الجاهلية" في المجتمع، فأي مجتمع تسود فيه هذه الخصائص هو مجتمع جاهلي - في المستوى الإنساني - ولو كان مجتمعًا متقدمًا في العلم والصناعة، وأي مجتمع آخر يرعى العدل، ويحكِّم أفراده العقل في معاملة بعضهم بعضًا، ولا يتهيَّب أعضاؤه الموت في سبيل الدفاع عن قيمهم العليا، وتحافظ المرأة فيه على حياتها وكرامتها.. هو مجتمع حضاري في الإنسانية، ولو كان مجتمعًا زراعيًّا لم يدخل بعد في عصر التصنيع[1].

وعلى ذلك فالناس قبل مبعث النبي ﷺ كانوا في حال جاهلية، فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال كان سببه الأصل هو الجهل، ويُستدل على ذلك بما رواه ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: "إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ (الأنعام)"[2].

فالجاهلية من حيث كونها اسمًا لزمن تُطلق على الفترة التي كانت قبل بعثة النبي ﷺ، فالعرب على هذا كانوا قبل الإسلام جاهليين في زمن جاهلي، وهم كانوا جاهليين، أي: غير عالمين، أو غير متبعين لما يقتضيه العلم، أو كان سلوكهم على غير مقتضاه.

ويجب أن نشير إلى أن وصف الجاهلية للفترة التي سبقت الإسلام، هو وصف لهذه الفترة في مجموعها، وليس معنى ذلك أن كل من عاش فيها كان جاهلًا أو متصفًا بالجاهلية، فإن من العرب من عُرف بالعلم والحكمة والعقل، ولكن هؤلاء كانوا أفرادًا قلائل بالنسبة إلى المجموع، ولكن الأعم الأغلب هو تفشي الجهل بين العرب قبل الإسلام، ومن هنا غلب عليهم وصف الجاهليين، ووصف الفترة التي عاشوا فيها بالجاهلية.

١. من مفاهيم القرآن في العقيدة والسلوك، د. محمد البهي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص٢٤١: ٢٤٤ بتصرف.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب قصة زمزم وجهل العرب (٣٣٣٤).

وكان العرب يشهدون على أنفسهم بعد إسلامهم أنهم كانوا في جاهلية وشر، قال حذيفة بن اليمان ﷺ للنبي ﷺ: "يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فأتانا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر"؟[1] وقال النبي ﷺ لرجل من أصحابه عَيَّر أخاه بأمه: "إنك امرؤ فيك جاهلية"،[2] وذكر عمر بن الخطاب ﷺ أنه نذر في الجاهلية بنذر، فأمره رسول الله ﷺ بالوفاء[3]. وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشي: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار[4][5].

فهذا اعتراف من العرب بعدما أسلموا أنهم كانوا في جاهلية، فلماذا ينكر هؤلاء المشككون هذه الحقيقة؟! ولماذا يدَّعون أن محمدًا ﷺ هو الذي أطلق هذا الاسم®؟

ثانيًا. الجدال ليس دليل ذكاء أو ثقافة أو عمق علمي:

إن استغراب هؤلاء من وصف العرب قبل الإسلام بالجهل من قِبَل القرآن والرسول ﷺ، رغم أنهم كانوا يحاورون الرسول ﷺ في المسائل المعضلة التي ينفق الفلاسفة فيها حياتهم دون أن يوفَّقوا في حلها، وهم يقصدون بذلك إنكارهم النبوات والمعجزات، والبعث، وما أشبه ذلك - استغراب لا يعتمد على دليل ولا يسنده عقل.

وفي هذا الصدد يقول د. إبراهيم عوض: ألا ما أكثر العوام الذين يرهقون كبار المفكرين باعتراضاتهم الجاهلة السقيمة، وعنادهم الأرعن إذا وضعتهم المصادفات في طريقهم، ومن هؤلاء على سبيل المثال رجل من أهل الريف له علاقة ببعض زعماء طائفة البهرة[6]، كلما حاولت أن أشرح له أنهم لا يتبعون الإسلام الصحيح، ردَّ عليَّ بجميع ثقته: "ولكني رأيتهم يضعون المصحف على صدورهم احترامًا لكلام الله"! قل لي أيها القارئ العزيز: كيف يمكن أن أمضي مع هذا الرجل، صاحب العلم والذكاء، في مثل تلك المناقشات؟ وطبعًا هذا وأمثاله "أصحاب علم وذكاء" - ما يظن هؤلاء - أليسوا يجادلون فيما يتجادل فيه الفلاسفة، وفيما ينفقون فيه الأعمار الطوال دون أن

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة (٦٦٧٣)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن (٤٨٩٠).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن (٥٧٠٣)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس (٤٤٠٣).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتكاف، باب إذا نذر في الجاهلية أن يعتكف ثم أسلم (١٩٣٨)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب نذر الكافر وما يفعل فيه إذا أسلم (٤٣٨٢).

٤. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند أهل البيت، حديث جعفر بن أبي طالب ﷺ (١٧٤٠)، وابن خزيمة في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ذكر البيان أن فرض الزكاة كان قبل الهجرة إلى أرض الحبشة (٢٢٦٠)، وصححه الألباني في تحقيق فقه السيرة، ص١١٥.

٥. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، مرجع سابق، ص٩٥.

® في **"آثار دعوة النبي ﷺ على المجتمع العربي"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة والعشرين، من الجزء الرابع (دعوة النبي ﷺ وتبليغه الوحي). وفي **"عرب الجاهلية قبل البعثة المحمدية"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة التاسعة، من هذا الجزء.

٦. البهرة: طائفة شيعية تنتسب إلى الإسلام.

يصلوا إلى حل؟ لا بل هم أفضل من الفلاسفة؛ لأن الفلاسفة يفكرون مليًّا قبل أن يجيبوا، بل قد ينفقون في ذلك حياتهم، وربما لا يبلغون بعد هذا كله شيئًا، أما هؤلاء فإنهم "يفهمونها وهي طائرة"، وجوابهم جاهز لا يكلفهم جهدًا ولا يستغرق وقتًا، فما رأيك أيها القارئ في هذا اللون من الاستدلال؟

لقد كان مشركو العرب أجهل من عوامنا الحاليين وأمعن في الضلال وفي سخف العقل، وردودهم في القرآن خير شاهد على ما نقول: لقد كان ردهم على الرسول ﷺ عندما أخبرهم أنه نبي مرسل أنهم قالوا: ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ (الإسراء)، أوقالوا ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ (الزخرف)؛ إذ كانوا لا يفهمون كيف يكون النبي من غير مشاهيرهم، وذوي الثروات الطائلة منهم، أما إذا أنبأهم بأمر البعث فقد كانوا يتساءلون: ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (الصافات). هكذا... وهكذا، بل إن اليهود، وهم أهل كتاب وكانوا مثقفين ثقافة عالية بالنسبة للعرب، كان كل ما عندهم هو من مثل قولهم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾(آل عمران: ١٨١)، وذلك عندما كان الرسول ﷺ يحض على إقراض الله قرضًا حسنًا، أي على الإنفاق في سبيل الخير، بل لقد طلبوا منه أن يأتيهم بقربان تأكله النار حتى يصدقوا أنه نبي، وغير ذلك من السخافات والتنطعات والحماقات، أفهذه أفكار فلاسفة؟ أفذاك هو الدليل على علمهم وذكائهم ورقة عواطفهم؟ صدق من قال: "حاججت جاهلًا فغلبني، وحاججت عالمًا فغلبته"!

فهذا هو الأساس الأول الذي يقيم عليه هؤلاء تخطئتهم للقرآن وللرسول ﷺ في وصف الفترة السابقة على الإسلام بـ "الجاهلية"، أما الأساس الثاني فهو أن القرآن قد تحدى الجاهليين بقوله ﷻ: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ (هود: ١٣)، أو ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ (يونس: ٣٨)، والتحدي - كما يزعمون - لا يكون للضعيف ولا يكون إلا من الأقران الأكْفاء.

فلا يتصور أن تتحدَّى الولايات المتحدة الأمريكية - مثلًا - دولة من العالم الثالث، ولكنها قد تتحدى روسيا، أو الصين الشعبية في القوة العسكرية، واليابان في التجارة والاقتصاد، ولا يعقل أن يتحدَّى بطل العالم في رياضة ما لاعبًا مغمورًا، إنه إذا فعل ذلك سيكون موضع سخرية الجميع، وكذلك يزعمون أن تحدي القرآن له دلالة قاطعة على أنهم كانوا على قدر ملحوظ من التقدم من الناحية التي تحدَّاهم فيها، وهي الناحية البلاغية، والمعرفية، والثقافية، وهي تمثل جانبًا من الموازين التي توزن بها أقدار الشعوب.

وأول ما نصك به وجه هذا التلفيق الثقيل الظل، هو أنه لم يحدث أن بدأهم القرآن بالتحدي، بل هم الذين تحدَّوه زاعمين أنه من صنع البشر، بل بلغ بهم الحال أن أخذوا يذيعون أنهم قادرون على أن يأتوا بمثله، ومن ثم فلا فضل لمحمد ﷺ - في هذا - يخوِّل له ادعاء

النبوة في نظرهم: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٣١) ﴾ (الأنفال)، وكذلك كان اليهود من جانبهم يرفدونهم[1] بالأسئلة السخيفة، التي يظنون أنها ستحرج محمدًا ﷺ، زاعمين لهم أن وثنيتهم خير من التوحيد الذي جاء به، فكان لا بد أن يرد القرآن على تحدِّيهم، و إلا لقيل إن رب محمد ﷺ عاجز عن الرد، ولكان هذا تسليمًا بما يقولون.

ثم إن القرآن مثلًا قد تحدى الأرباب الوثنية أن يخلقوا ذبابًا، ولو اجتمعوا كلهم على ذلك، فهل معنى هذا أن الأصنام والأوثان كانت قادرة على الخلق والإبداع، بحيث يمكنها إيجاد ذباب من العدم؟ أليست هذه طريقتهم في الفهم؟ وكذلك تحدى القرآن الكفار أن يرجعوا أرواح موتاهم إذا بلغت الحلقوم، فهل معنى هذا أنه كان بإمكانهم أن يتغلبوا على الموت، ويطيلوا أعمار موتاهم إلى الأبد؟ أليس يرى القارئ تهافت منطقهم، وأنه ليس عندهم إلا اللجاج واللدد في الخصام؟ لقد كان المشركون يتهمون النبي ﷺ بأنه هو مؤلف القرآن، وأن قرآنه هذا ليس إلا شعرًا، أو كهانة، أو أساطير من أساطير الأولين، فكان الرد المنطقي هو أن يقول لهم: وأنتم بشر مثلي وتستطيعون أن تقولوا الشعر، أو تستعينوا بالكهان، أو تنقلوا عن أساطير الأولين، فهيا اجهدوا جهدكم وأشركوا معكم في الأمر من تحبون وأروني مقدرتكم على الإتيان بمثله، أو بعشر سور منه، أو حتى بسورة واحدة[2]!

١. يَرفِد: يمدُّ.

٢. اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، د. إبراهيم عوض، مرجع سابق، ص١٨٩: ١٩٤.

ثالثًا. إن حال العرب قبل بعثته ﷺ وما هم فيه من جاهلية، وانحلال اجتماعي، وتفشي العادات المنكرة هي التي قضت ببعثته ﷺ:

يقول الشيخ أبو الحسن الندوي واصفًا حال العرب في هذه الحقبة: "أما العرب، فقد امتازوا بين أمم العالم وشعوبه في العصر الجاهلي بأخلاق ومواهب تفردوا بها أو فازوا فيها بالقِدْح المُعَلَّى، كالفصاحة وقوة البيان، وحب الحرية والأنفة والفروسية والشجاعة، والحماسة في سبيل العقيدة، والصراحة في القول، وجودة الحفظ وقوة الذاكرة، وحب المساواة وقوة الإرادة، والوفاء والأمانة.

ولكن ابتلوا في العصر الأخير ـ عصر ما قبل البعثة ـ لبعد عهدهم من النبوة والأنبياء، وانحصارهم في شبه جزيرتهم، وشدة تمسكهم بدين الآباء وتقاليد أمتهم ـ بانحطاط ديني شديد ووثنية سخيفة قلما يوجد لها نظير في الأمم المعاصرة، وأدواء خلقية واجتماعية جعلت منهم أمة منحطة الأخلاق، فاسدة المجتمع، متضعضعة الكيان، حاوية لأسوأ خصائص الحياة الجاهلية، وبعيدة عن محاسن الأديان.

وثنية الجاهلية:

كان الشرك هو دين العرب العام والعقيدة السائدة، كانوا يعتقدون في الله أنه الإله الأعظم، خالق الأكوان، ومدبر السماوات والأرض، بيده ملكوت كل شيء فلئن سئلوا: من خلق السماوات والأرض ليقولن: خلقهن العزيز العليم، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧) ﴾ (الزخرف)، ولكن ما كانت حوصلة فكرهم الجاهلي تسع توحيد الأنبياء في خلوصه وصفائه وسموه، وما كانت أذهانهم البعيدة

العهد بالرسالة والنبوة والمفاهيم الدينية، تسيغ أن دعاء أحد من البشر يتطرق إلى السماوات العُلَى ويَحْظَى عند الله بالقبول مباشرة بغير واسطة وشفاعة، قياسًا على هذا العالم القاصر وعاداته وأوضاع الملوكية الفاسدة ومجاري الأمور فيها، فبحثوا لهم عن وسطاء توسلوا بهم إلى الله وأشركوهم في الدعاء، وقاموا نحوهم ببعض العبادات، ورسخت في أذهانهم فكرة الشفاعة حتى تحولت إلى عقيدة قدرة الشفعاء على النفع والضرر، ثم ترقّوا في الشرك فاتخذوا من دون الله آلهة، واعتقدوا لهم مماثلة ومشاركة في تدبير الكون، وقدرة ذاتية على النفع والضرر والخير والشر والإعطاء والمنع.

فإذا كان الأولون يعترفون لله بالألوهية والربوبية الكبرى، ويكتفون بالشفعاء والأولياء، كان الآخرون يشركون آلهتهم مع الله، ويعتقدون فيهم قدرة ذاتية على الخير والشر، والنفع والضر، والإيجاد والإفناء، مع معنى غير واضح عن الله كإله أعظم ورب الأرباب. ولم يزل هذا الفريق الثاني يقوي أمره ويستفحل مع إمعان القوم في الجاهلية وقرب هذه النزعة الوثنية إلى الحواس والمحسوسات، واتفاقه مع ضعف التفكير حتى أصبحت هذه العقيدة هي السائدة، وأصبح الذين يميزون بين الآلهة والوسطاء شواذ في الأمة، وهكذا انغمست الأمة في الوثنية وعبادة الأصنام بأبشع أشكالها، فكان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة صنم خاص، بل كان لكل بيت صنم خصوصي"[1].

١. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص٣٨.

الحياة الاجتماعية عند العرب قبل الإسلام:

لقد ساءت الأحوال الاجتماعية عند العرب قبل الإسلام، كما ساءت الأحوال الدينية، فلقد كان للعرب أوضاع، وتقاليد اجتماعية، وقوانين عرفية فيما يتعلق بالأنساب والأحساب، وعلاقة القبيلة بالأخرى، وعلاقة الأفراد بعضهم ببعض، وفيما يتعلق بالأسرة من نكاح وطلاق، وثبوت نسب، ووضع المرأة في الأسرة، والبنين والبنات، ونظام التوارث إلى غير ذلك مما يتعلق بالحالة الاجتماعية.

فقد حرص العرب حضرًا وبدوًا على المحافظة على أنسابهم، فلم يصاهروا غيرهم من الأجناس الأخرى، اعتزازًا بالدم العربي أن يختلط بغيره، وقد أبى بشدة النعمان بن المنذر أن يزوِّج إحدى بناته من كسرى، أو أحد أولاده مع أنه كان تابعًا له، وتحمل في سبيل ذلك ما تحمل، وقد بالغوا في التفاخر بهذا حتى أضاعوا وقتهم فيه، قال ﷻ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ (التكاثر).

ولما جاء الإسلام قضى على ذلك، وبيَّن لهم أن التفاضل، إنما هو بالتقوى والعمل الصالح، وأن النسب الأصيل إذا اجتمع إليه العلم والعمل بلغ الإنسان غاية الكمال.

وقد كانت المرأة عند كثير من القبائل كسَقَط المتاع[2]، فقد كانت تُورَّث، وكان الابن الأكبر للزوج من غيرها من حقه أن يتزوجها بعد وفاة أبيه، أو يَعْضلها[3] عن النكاح، حتى أبطل الإسلام ذلك،

٢. سَقَط المتاع: الرَّديء منه.

٣. عَضَل المرأة: منعها من التزوج ظلمًا.

وكان الابن يتزوج امرأة أبيه، فحرم الإسلام ذلك، وسماه "نكاح المقت"، وما كانوا يورثونها ويقولون: إنما يرث من يحارب ويجالد حتى جعل الإسلام لها حقًّا مفروضًا، كما كانوا يجمعون بين الأختين حتى حرم ذلك الإسلام.

ولم يكن للعرب حد محدود في النكاح، فقد جاء الإسلام ومنهم من له العشر من النساء والأكثر، والأقل، فقصر ذلك على أربع إن علم أنه يستطيع الإنفاق عليهن، والعدل بينهن، فإن خاف عدم العدل فليكتف بواحدة، وما كانوا في الجاهلية يلتزمون العدل بين الزوجات، وكانوا يسيئون عشرتهن، ويهضمون حقوقهن، حتى جاء الإسلام فأنصفهن، وأوصى بالإحسان إليهن في العشرة، وقرر لهن حقوقًا ما كن يحلمن بها.

وكذلك كانوا يسرفون في الطلاق من غير أن يكون هناك داع مشروع، أو مقبول، فلم يكن للطلاق عندهم حد محدود، فكان الرجل يطلق ثم يراجع، وهكذا، فلما جاء الإسلام قيَّد ذلك، وأعطى للزوج فرصة لتدارك أمره، ومراجعة زوجته مرتين، فإن طلَّق الثالثة فقد انقطعت عروة النكاح، ولا تحل له إلا بعد أن تنكح زوجًا آخر ثم يطلقها أو يموت عنها، ففي الكتاب الكريم: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ ﴾ (البقرة: ٢٢٩)[1]، وفيه: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ ﴾ (البقرة).

وكان العرب يُعيَّرون بالبنات؛ لأن البنت لا تخرج في الغزو، ولا تحمي البيضة - القبيلة - من المعتدين عليها، ولا تعمل فتأتي بالمال شأن الرجال، وإذا ما سُبيت اتخذت للوطء تتداولها الأيدي لذلك، بل ربما أُكرهت على احتراف البغاء، ليضم سيدها ما يصير إليها من المال بالبغاء إلى ماله - وقد كانت العرب تبيح ذلك -، وقد كان هذا يورث الهم والحزن والخجل للأب عندما تولد له بنت.

وقد حدثنا القرآن الكريم عن حالة من تولد له بنت قال ﷻ: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (النحل).

وكثيرًا ما كانوا يختارون دسها في التراب، ووأدها حية، ولا ذنب لها إلا أنها أنثى، ولذلك أنكر القرآن الكريم عليهم هذه الفعلة الشنيعة، قال ﷻ: ﴿ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴿٩﴾ ﴾ (التكوير).

وكان بعض العرب يقتل أولاده من الفقر، أو خشية الفقر، فجاء الإسلام وحرم ذلك قال ﷻ: ﴿ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ (الأنعام)، وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا

---

[1]. السيرة النبوية، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج١، ص٨٦: ٩٠ بتصرف.

كَبِيرًا ﴿٣١﴾ (الإسراء)[1].

"فلما جاء الإسلام قضى على ذلك، وكرم البنات والبنين، وأوصى بهن وبهم خيرًا، وكان في المثل العالية التي كان يضربها النبي ﷺ في معاملة بناته وبنات المسلمين أكبر معلم ومهذب في هذا "[2].

وكانت تقوم بين القبائل الحروب لأتفه الأسباب، من أجل ناقة، أو سباق فرس، أو نحو ذلك، وذلك كحرب البسوس التي قامت بين بكر وتغلب أربعين عامًا من أجل ناقة حتى أكلت الكثير من أبطالهم ورؤسائهم، وكحرب داحس والغبراء، التي قامت ودامت طويلًا بسبب سباق فرسين. وكان يغلب على بعض قبائل البدو السطو والإغارة بقصد نهب الأموال، وسبي الأحرار وبيعهم، كما حدث لزيد بن حارثة، فقد كان عربيًّا حرًّا، وسلمان الفارسي فقد كان فارسيًّا حرًّا، وقد قضى الإسلام على ذلك حتى كانت تسير المرأة ـ فضلًا عن الرجل ـ من صنعاء إلى حضرموت، لا تخاف إلا الله والذئب على غنمها[3].

وهكذا كانت الحياة الاجتماعية تعبر عن الفوضى السائدة في ذلك العصر، حيث وجدنا التفاخر بالأنساب، ووأد البنات، والسطو والإغارة على القبائل الضعيفة، وظلم المرأة، واضمحلال مكانتها بينهم، كل ذلك كان لا بد من تغييره وتعديله بما يناسب فطرة الإنسان السليمة من العدل، والمساواة بين الناس.

١. السيرة النبوية، د. علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ج١، ص٣٤، ٣٥.

٢. السيرة النبوية، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج١، ص٩٢.

٣. المرجع السابق، ص٩٣.

الحياة الأخلاقية عند العرب قبل الإسلام:

"كانت أخلاق العرب قد ساءت وأولعوا بالخمر، وشاعت فيهم الغارات، وقطع الطريق على القوافل، والعصبية، والظلم، وسفك الدماء، والأخذ بالثأر واغتصاب الأموال، وأكل مال اليتامى والتعامل بالربا والسرقة والزنا" [4].

"وجملة القول أنهم وصلوا إلى حال لا يستحقون فيها اسم الجماعة، فقد أمعنوا في القسوة والمنكرات، ولم يتذرعوا بعلم، أو يعتصموا بقانون، وانحط الضمير الإنساني فيهم إلى أسفل درجاته، حتى بدَّلوا بالفضيلة الرذيلة، ونوَّهوا بأصحابها" [5].

ولا جرم أن تغير حال أمة كالأمة العربية وإحيائها وإحياء أمم الأرض بها، وقلب نظمها، وإصلاح جميع أحوالها وأمورها، وإخراجها من الفساد، والاختلال والفوضى، برجل كمحمد ﷺ في حاله ونشأته، وفقره ويتمه وأميته، وبتلك السرعة العجيبة في ذلك الزمن القصير ـ أمر لم يُعهد له مثيل في تاريخ الإنسانية، فهو من أعجب العجائب، وأغرب الغرائب، بل هو معجزة التاريخ التي عقم بعدها، وبقيت وحدها.

حقًّا إنه لعجيب أن يتم هذا التحول في سنين قليلة، كأن ملائكة السماء هبطوا إلى الأرض، فنفثوا في نفوس العرب روح الصفاء والوئام، وأماتوا فيهم دواعي الانتقام، واستأصلوا عبادة الأصنام، والشغف بالقمار والخمور والزنا، وما إلى ذلك من القبائح والمناكير.

٤. السيرة النبوية، د. علي الصلابي، مرجع سابق، ج١، ص٤٠.

٥. محمد ﷺ المثل الكامل، أحمد جاد المولى، مرجع سابق، ص٦٢.

أبعد هذا كله يقولون: إن النبي ﷺ هو الذي وصفهم بالجاهليين؟! كيف ذلك؟ وهو الذي أخرجهم من جاهلية الشرك إلى نور العلم والتوحيد، وصدق وصف الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾ (الجمعة).

الخلاصة:

- مفهوم لفظ "الجاهلية" في آيات القرآن الكريم يحمل في كل آية منها صفة من صفاته التي تميزه بأنه يعبر عن ظاهرة اجتماعية إنسانية، قبل أن يكون وقتًا وزمنًا خاصًا، فكل عصر تنطبق عليه هذه الظاهرة يسمَّى عصرًا جاهليًّا، والعرب كانوا قبل الإسلام غير عالمين، أو غير متبعين لما يقتضيه العلم في سلوكهم، هذا واقع؛ ولذلك وصفوا بالجاهليين.
- الجدال ليس دليلًا على ذكاء أو ثقافة، أو عمق علمي، فما أكثر العوام الذين يرهقون كبار المفكرين، باعتراضاتهم الجاهلة السقيمة، وكان مشركو العرب أجهل من عوامنا الحاليين، وأمعن في الضلال وسخف العقل؛ إذ كانوا يتعجبون كيف يكون النبي المرسل من الله من غير المشاهير وذوي الثروات. قال ﷻ: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ (الزخرف).
- ولقد تردَّى العرب ـ قبل البعثة المحمدية ـ في هاوية الانحلال الاجتماعي، بما لم يُعهد له مثيل في تاريخ الأمم، وتفشَّى في العرب كثير من العادات المنكرة، كشرب الخمور، والميسر، والسلب والنهب، فجاء النبي ﷺ فغيرت رسالته وجه الأرض وقلبت نظم الأمم، وصبغتها بصبغتها في اللغة والدين، والأخلاق في سنين قليلة، وبسرعة خارقة للعادة.

الشبهة الحادية عشرة

إنكار نبوته ﷺ لكونه أُميًّا غير صالح لقيادة الأمم(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المشككين نبوة النبي ﷺ لكونه أُمِّيًّا، ويتساءلون: كيف يَصْلُح بأميته لقيادة العالم؟ وكيف تصلح أمته من بعده لذلك؟، وهم الذين وُصفوا جميعًا بالأمية والجهالة ـ على حد زعمهم ـ في قوله ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ (الجمعة: ٢)؟! ويؤكدون زعمهم هذا بالتأخر الحضاري الذي يسود العالم الإسلامي، والبون الشاسع بينه وبين الأمم المتقدمة. وهم في جملة ما زعموه يتذرعون بأبعد سبب ويتشبَّثون بأوهى خيط؛ رامين من وراء ذلك إلى نفي نبوته ﷺ وتجريده منها كلية.

وجوه إبطال الشبهة:

١) ليست الأمية مرادفة للجهل، فليس كل أميٍّ جاهلا، وليس كل جاهل أميًّا، وإذا كانت الأمية مذمَّة في حقِّ البشر، فهي مكرمة في حق محمد ﷺ؛ لأنها من دلائل صدق نبوته، وصدق ما جاء به، ودليل على

(*) اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، د. إبراهيم عوض، مرجع سابق.

إلهية رسالته.

٢) لقد أطلق الله ﷻ على العرب وصف الأميين، وهي كلمة تطلق على من ليس لهم كتاب سماوي، وكان اليهود يطلقونها على غير جنسهم من العرب وغيرهم من الأمم.

٣) لقد سادت الحضارة الإسلامية الدنيا كلها عدة قرون، في الوقت الذي كان العالم يموج فيه بالخرافات والجهل، أما تأخر المسلمين في العصر الحديث؛ فراجع إلى تخلفهم عن إدراك حقيقة الإسلام وفهمه الفهم الصحيح.

التفصيل:

أولا. الأمية لا تعني الجهل، فليس كل أمي جاهلا، والأمية ليست منقصة في حق محمد ﷺ بل هي من دلائل صدق نبوته، وصدق ما جاء به:

يجدر بنا قبل حديثنا عن أمية محمد ﷺ أن نقرر حقيقةً تغافل عنها الكثير من الناس، وهي أن الأمية لا تعني بحال من الأحوال الجهل، فليس كل أمي جاهلًا، وكذلك فليس كل جاهل أميًّا.

فالأمي هو من لا يقرأ ولا يكتب، والجاهل من لا يعلم ما ينبغي أن يعلم، وليس العلم كله منوطًا بقراءة وكتابة، وليس كل ما هو مكتوب مقروء علـمًا يكون الجهل به وصمة تنتقص من قدر من لا يقرأ ولا يكتب، والفيصل في هذا الشأن أن نعرف بالضبط ماذا تساوي القراءة والكتابة، فما من شك في أن البشرية قد اخترعت القراءة والكتابة في وقت متأخر نسبيًّا في تاريخها المعروف، بعد أن قطعت في مدارج الحضارة والتعلم والخبرة أشواطًا عسيرة شاقة، لذلك كان البشر كلهم في هذه المرحلة أميين، فهل كانوا لهذا السبب جهالًا كلهم بغير استثناء؟

محال عقلًا أن يكونوا كلهم جُهَّالًا، بل كانت لهم معرفة، وكان ثمة تفاوت بين آحادهم وعشائرهم فيما تيسر لهم من الخبرات والمعارف، فكان بعضهم أعلم من بعض؛ لأن بعضهم أذكى من بعض، فمنهم العالم والجاهل، ومنهم الحكيم والأحمق.

وكلهم مع ذلك سواسية حتمًا في صفة الأمية، بسبب مادي لا حيلة فيه، هو أن القراءة والكتابة لم تكن قد اختُرعت بعد، فليس هناك إذن أدنى ارتباط بين جهل وأمية، أو بين علم وقراءة وكتابة[1].

فقد يكون العقل النابه لأميٍّ دون قارئ، وقد يكون لأمي دون أميٍّ آخر، وقد يكون لقارئ دون قارئ آخر. ولكن كثيرًا من الناس لا يفطنون إلى ذلك الفارق بين المصطلحين: الأمية والجهل، ولا يفقهونه ــ على وضوحه كالشمس ــ، وعلى أساس سوء الفهم هذا تشدَّق ذوو المآرب الملتوية، إما عن خبث وإما عن مكر ودهاء، بأن محمدًا ﷺ كان جاهلًا؛ لأنه كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب[2]. والحق أنَّ مسألة أمية النبي ﷺ لم تكن محل خلاف، بل ظل وسيظل راسخًا في أذهان المجموع أن النبي ﷺ قبل بعثته وبعدها كان أميًّا لا يعرف القراءة والكتابة.

لقد وصف النبي ﷺ بأنه أمي؛ لأن العرب لم تكن تعرف القراءة والكتابة، فأرسل الله لهم رسولًا من أنفسهم لا يقرأ ولا يكتب، وكانت هذه إحدى

١. محمد في حياته الخاصة، نظمي لوقا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٢٠، ٢١ بتصرف.
٢. المرجع السابق، ص٣٠ بتصرف.

معجزاته، حيث كان يتلو عليهم القرآن مباشرة من الوحي الذي يبلغه عن الله ﷻ دون تغيير أو تبديل لكلماته، بينما كان الخطيب من العرب يعمد إلى الإضافة أو الحذف في أي خطاب يعيده مرة أخرى، ولقد اقتضت حكمة الله أن يظل كتابه محفوظًا، لا دخل لنبيه فيما نزل منه، وقد أخبره عن الذين أرسلهم قبله، وأن تكون الأمية هي ما يتميز به عنهم، وأنزل عليه بمناسبة ذلك قوله ﷻ: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (العنكبوت).

لقد جعل الله ﷻ النبي ﷺ لا يقرأ ولا يكتب؛ لينفرد ﷻ بتعليمه الفقه، وأحكام الشريعة، ويقصره على معرفة مصالح الدين دون ما تتباهى به العرب من علم قيافة الأثر وأوصاف البشر والخيل والأنساب والأخبار وتكلف قول الشعر، وليكون إذا جاء بالقرآن العظيم، وتكلم بالكلام العجيب كان ذلك أدل على أنه من الله[1].

فجَهْل النبي ﷺ بالقراءة والكتابة ليس مذمَّة، بل هو ميزة ومصدر عظمة؛ إقامة للحجة ودرءًا للشبهة، وحتى لا يكون للمعارض لمحمد ﷺ أدنى ريب في إلهية رسالته.

ولعل من المناسب هنا أن نذكر ما ترويه كتب الأدب من محاورة دارت بين الرشيد وأحد الشعراء، وصفه فيها الرشيد بالأمية، فكان على الفور أن عقد الشاعر وجهًا للشبه بين أميته وأمية محمد ﷺ، فغضب الخليفة لذلك، ومن ثَمَّ قال له: لقد زدت جهلًا؛ فإن الأمية منك مذمة ومن النبي ﷺ مكرمة[2].

وقد اختار الله للنبي ﷺ أن تكون يده بعيدة الصلة بالقلم، وعقله بمنأى عن توجيه المعلمين، كي لا يستريب في الوحي عاقل، قال ﷻ: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (العنكبوت)، فكان الوحي ـ على تلك الأمية ـ خالصًا من أي أثر للمعارف السابقة عليه، سائغًا ـ من أي كدرة بشرية ـ للشاربين.

حتى إن قريشًا لما أرادت أن تطعن الوحي في نقائه وسلامته، لم تجد غير غلام نصراني، كان النبي ﷺ يجلس إليه ويكلمه، فقالت: والله ما يُعلِّم محمدًا كثيرًا مما يأتي به إلا جبر النصراني غلام ابن الحضرمي، فقطع الله ﷻ لسانهم عن ذلك بأنَّ أنزل: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (النحل)، فلو أنه سبق له ﷺ الجلوس إلى معلم، أو ضُبط قبل البعثة متلبسًا بكتاب يقرؤه لوجدت مثل هذه الفرية فيهم أمدًا طويلًا، ولكن القدر السابق عليها جعلها تموت يوم ولادتها، لقد أعجزهم الله بذلك عن أن ينسبوا الفضل فيه إلى معلِّم معروف معهود فخبطوا خَبْط عشواء[3] في المجهول، ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ (الفرقان)، فمن اكتتبها؟ ومن عليه قرأها؟

ذلك طبع من جادل بالباطل ليدحض به الحق إذا لم يجد دليلًا، فإنه يتخبط على غير هدى في الادعاء ذات

1. أمية محمد ﷺ، خالد محمد عبده، مكتبة النافذة، مصر، ط١، ٢٠٠٦م، ص٣٤، ٣٥ بتصرف.

2. المرجع السابق، ص٣٧ بتصرف يسير.
3. خَبْط عشواء: ما يؤتى من الجهالة من غير تبصُّر.

اليمين وذات الشمال، لعله يصادف من صاحب الحق يأسًا أو يجد فيه كلالًا، ولقد كانوا في فريتهم الثانية هذه مقرين بأنه أمي، فلو أنه لم يكن أميًّا لكتب وما اكتتب، ولقرأ بنفسه دون حاجة إلى من يقرأ له، لقد تركهم الحق بسابق تدبيره لنبيه ﷺ صَرْعَى الجدل العقيم، فرد عليهم بأن الذي أملاها على محمد ﷺ هو من قال: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾(الفرقان)[1].

ونخلص من هذا كله إلى أن حكمة الله من جعل رسوله أميًّا لا يكتب ولا يقرأ تكمن في أنه ﷻ أراد ألا يشك أحد في نزاهة ما جاء به ﷺ، وأن مصدر ما جاء به هو الوحي الإلهي المطلق؛ ومن ثم فليست الأمية مذمة في حقه ﷺ ®.

ثانيًا. إن الأميين لقب يُطلق على من ليس له كتاب سماوي، وكان اليهود يطلقونها على غير جنسهم من العرب وغيرهم:

لقد اختلف المفسرون في تفسير معنى كلمة "الأميين" الواردة في الآية الثانية من سورة الجمعة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾(الجمعة). فمنهم من ذهب إلى أن الأميين هم العرب الذين لا يعرفون القراءة والكتابة، فالرسول أمي لا يعرف القراءة والكتابة، وأمته أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة أيضًا.

ومنهم من ذهب إلى أن معنى الكلمة المقصود في الآية هو ما كان اليهود يُطلقونه على غيرهم، ومن ليس من جنسهم.

ومما يرجح الرأي الثاني أننا عندما نراجع آية سورة الجمعة نرى أنَّ القرآن الكريم قد أورد معنى اللفظ الذي نبحث عنه، ذلك في تحديده لوظيفة الرسول الذي بعثه الله تعالى في الأميين.

إنه ليس ـ قطعًا ـ معلمًا للقراءة والكتابة، بل هو رجل مبعوث ليتلو عليهم آيات الله تعالى، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وهذه كلها أصول دينية تجعل من رسالة الرسول ﷺ تعليم قومه الأميين أشياء يفتقدونها، وهي تتمثل عند التحقيق في تعليمهم عقائد جهلوها، وشرائع غائبة عن حياتهم الخاصة والعامة.

وإن المعنى الذي يتبادر إلى الذهن من ذكر الله ﷻ لكل ذلك هو جهل المبعوث فيهم، وهم الأميون للعلوم الإلهية، لا لفنِّي القراءة والكتابة أو لغيرهما من أمور الدنيا. إن القراءة المتأملة في باقي الآيات تؤدي إلى أن يقرر المتأمل أنها تتضامن فيما بينها مع آية سورة الجمعة، في تأكيد المعنى نفسه؛ فقد ورد في الدعاء الإبراهيمي الموجود في سورة البقرة أن الوظيفة المرجوة لهذا الرسول هي أن يتلو على المبعوث فيهم آيات الله.

كما حدد الله ﷻ في الآية نفسها أن العمل الذي يقوم به الرسول الكريم فعليًّا، أي: بعد أن تحققت دعوة إبراهيم عليه السلام، يتمثل في ما جاء في ذلك الدعاء، يقول: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾(البقرة:١٢٩)،

---

١. مقدمات النبوة وإعداد الرسول ﷺ مع معجزاته وخصائصه، د. يحيى إسماعيل أحمد، مرجع سابق، ج١، ص١٤٧، ١٤٨ بتصرف يسير.

® في "إثبات آيات القرآن أمية النبي ﷺ" طالع: الوجه الأول، من الشبهة التاسعة عشرة، من هذا الجزء.

كما ورد في سورة آل عمران أن سبب امتنانه تعالى على المؤمنين لا يكمن في تعليمهم أمرًا من أمور الدنيا؛ بل لأنه أرسل فيهم رسولًا يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة[1]. قال تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

ولقد ورد في آية سورة الجمعة الإشارة إلى الأقوام الذين بعث الله ﷻ فيهم الرسول الخاتم بوصف "الأميين"، وقرر عنهم جهلهم بالكتاب السماوي، نصًّا في قوله ﷻ: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤)﴾ (آل عمران)، وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١)﴾ (البقرة).

وذلك حين جعل وظيفة الرسول المبعوث فيهم تزكية نفوسهم وتعليمهم الكتاب والحكمة، وقد اتضح بهذا أن استخدام مصطلح "الأميين" فيهم ليس لجهلهم بالقراءة، بل لجهلهم بحقائق الدين وتعاليم السماء[2].

إن مدار فهم أكثر معاني سورة الجمعة نفسها يتأسس على الفقه الجيد لعقيدة التفضيل اليهودية التي ادَّعوا فيها انقسام أمم الأرض إلى قسمين: اليهود، وهم أبناء الله وأحباؤه، والأميون، وهم بقية شعوب الأرض قال ﷻ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ (المائدة: ١٨)، وحكى عن أهل الكتاب قولهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾ (آل عمران)، ويكفينا أن ننبه على أن قوله ﷻ: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤)﴾ (الجمعة) لا يعدو أن يكون ردًّا إلهيًّا على زعم اليهود الاختصاص بفضل الله دون الأميين، وهي إبطال لهذه العقيدة في الوقت نفسه، بدليل إرساله تعالى لبعض الأنبياء، وإرساله النبي الخاتم من غيرهم؛ وذلك لأن هذه العقيدة بالأساس، تضاد إحدى صفات الله تعالى ذاته، أي العدل، إضافة إلى مضادتها لمبدأ الحرية الإلهية.

أما الآية التي وردت بعدها ففيها ما يشبه أن يكون نصًّا؛ بل هو نصٌّ في بيان سبب انتقال النبوة من بني إسرائيل إلى الأميين؛ ويكمن في أن اليهود لم يرعَوا حقوق الله تعالى وحقوق العباد حق رعايتها، فكفروا وحرَّفوا وادعوا ما لم يُنزِّل الله به سلطانًا، ولذلك تشبههم بالحمير، فقال ﷻ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥)﴾ (الجمعة).

وأكد الله ﷻ في الآية التي وردت بعدها مسألة اعتقاد اليهود اختصاصهم بالتفضيل الإلهي غير المشروط، وأبطله؛ وذلك أنه أساس كفرهم بنبوة محمد ﷺ، حيث ردوا عليه دعوته استنادًا إلى الزعم بقصر الله تعالى النبوة فيهم، فقال تعالى مبطلًا زعمهم،

---

١. هل كان محمد ﷺ أميًّا؟ د. لخضر شايب، دار قتيبة، دمشق، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ص١٦٧، ١٦٨ بتصرف يسير.

٢. المرجع السابق، ص١٦٩ بتصرف.

ومؤكدًا تَفَضُّلَه على "الأميين" الذين لم يكونوا في عُرف اليهود إلا جنسًا مخلوقًا لخدمتهم: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾ (الجمعة)[1].

وبهذا يتضح أن كلمة "الأميين" لا تعني الجهلاء الذين لا يعرفون شيئًا فحسب، بل كانت تُطلق أيضًا على من ليس لهم كتاب سماوي، وقد امتنَّ الله على أمة الإسلام أن بعث إليهم نبيًّا منهم ليعلمهم أمور دينهم.

ثالثًا. الحضارة الإسلامية المزدهرة في الماضي وسبب تراجعها الآن:

إن الأمة الإسلامية قد سادت العالم أجمع مدة طويلة من الزمن؛ بل وقد أخذت عنها أوربا معظم مؤلفات علمائها العرب والمسلمين في كافة العلوم الطبية والهندسية، والرياضية، والفلكية، وغيرها من العلوم الأخرى، وقد كانت مبتكراتهم في مجالات الطب والصيدلة والفلك والفن والمعمار... إلخ، خير شاهد على عظمة هذه الحضارة وشموليتها، أما ما أصاب الدول الإسلامية من تخلف وركود في العصر الحديث، فليس الإسلام سببًا فيه، إنما هو نتيجة تخلف المسلمين عن إدراك المعاني الحقيقية للإسلام. ويعبر المفكر الجزائري مالك بن نبي عن ذلك بقوله: إن التخلف الذي يعاني منه المسلمون اليوم ليس سببه الإسلام، إنما هو عقوبة مستحقة من الإسلام على المسلمين لتخلِّيهم عنه، لا لتمسكهم به كما يظن بعض الجاهلين.

فليست هناك صلة بين الإسلام وتخلف المسلمين؛ لأن الإسلام لا يزال وسيظل منفتحًا على كل تطور حضاري يشتمل على خير الإنسان، وعندما يفتش المسلمون عن الأسباب الحقيقية لتخلفهم فلن يجدوا الإسلام من بين هذه الأسباب.

فلا يجوز الخلط بين الإسلام والواقع المتدني للعالم الإسلامي المعاصر، فالتخلف الذي يعاني منه المسلمون يعد مرحلة في تاريخهم، ولا يعني ذلك بأي حال من الأحوال أنهم سيظلون كذلك إلى نهاية التاريخ، ولا يجوز اتهام الإسلام بأنه وراء هذا التخلف، كما لا يجوز اتهام المسيحية بأنها وراء تخلف دول أمريكا اللاتينية.

فحقائق التاريخ تبين بما لا يدع مجالًا للشك أن الإسلام قد استطاع بعد مدة زمنية قصيرة من ظهوره أن يقيم حضارة رائعة كانت من أطول الحضارات عمرًا في التاريخ، ولا تزال الشواهد على ذلك ماثلة للعيان فيما خلفه المسلمون من علم غزير في شتى مجالات العلوم والفنون، وخير مثال على ذلك: حضارة المسلمين في الأندلس وما تبقى من معالمها حتى يومنا هذا شاهد على ذلك في أوربا نفسها، وقد قامت أوربا بحركة ترجمة نشطة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر لعلوم المسلمين، وكان ذلك هو الأساس الذي بنيت عليه أوربا حضارتها الحديثة[2].

وبناء على ذلك فالمسلمون صالحون في أي وقت لقيادة الأمم وسيادتها، كما كانوا من قبل، وذلك إذا ما تمسكوا بدينهم واتبعوا تعاليمه التي تدعو إلى التفكر والاختراع، والأخذ بأسباب التقدم العلمي الحديث، وليس صحيحًا أن سبب تأخر المسلمين في الآونة

---

١. المرجع السابق، ص١٧٥، ١٧٦ بتصرف يسير.

٢. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٦٤٢، ٦٤٣ بتصرف.

الأخيرة هو الإسلام، ولكن على العكس من ذلك تمامًا فإن سبب تأخرهم هو بعدهم عن الإسلام وتعاليمه السامية، فالعيب في المسلمين وليس في الإسلام.

الخلاصة:

- إن أمية النبي ﷺ مصدر فخر له ولكل مسلم، وليست منقصة في حقه ﷺ؛ لأن ذلك دليل على صدق نبوته، وصدق ما جاء به، وأن مصدر القرآن الكريم مصدر إلهي لا دخل للبشر فيه، فهي مكرمة في حقه ﷺ، منقصة في حق أمته ولذا جاء ﷺ بدين يقضي على الأمية والجهل ويدعو إلى العلم والمعرفة.
- إن كلمة "الأميين" المذكورة في قوله ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ (الجمعة: ٢) كانت تطلق على من ليس له كتاب إلهي سابق، وهم العرب وغيرهم من الأمم الأخرى، وهذا اللفظ كان يُطلقه اليهود على غيرهم من الأمم لاحتقارهم؛ لأنهم ليس لهم صلة بالسماء وأنهم ـ أي: اليهود ـ أفضل الأمم.
- لقد سادت الحضارة الإسلامية العالم وذاع صيتها فترة طويلة من الزمن، وقد اعترف بها مشاهير أوربا وعلماؤها، و نصوا على أنها أصل الحضارة الأوربية الحديثة في كل العلوم الحديثة من طب، وهندسة وجبر، واجتماع.. وغيرها.
- إن السبب الذي يقف وراء التأخر الحضاري للمسلمين في العصر الحديث هو تخلفهم عن إدراك المعاني الحقيقية للإسلام، وتقصيرهم في التماس الأسباب التي تكفل لهم التقدم الحضاري ومواكبة غيرهم من الأمم، ولقد أدرك المسلمون الأوائل هذه المعاني، والتمسوا تلك الأسباب، فسادوا العالم كله قرونًا عديدة، ولا بد للمسلمين الآن ـ إن أرادوا أن يعيدوا هذه السيادة ـ أن يحذوا حذو سلفهم.

الشبهة الثانية عشرة

الزعم أنه ﷺ كان ساحرًا ولم يكن نبيًا (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغرضين أن محمدًا ﷺ كان إلى سمات السَّحَرة أدنى من المعهود من خصال الأنبياء؛ مبرهنين على ذلك بما يزعمونه من أن كلامه ﷺ إنما هو من جنس أسجاع الدجالين والمُشَعْبِذين، وبما ادَّعوه من أنه ﷺ كان على صلة بالجن حتى حبس جماعة منهم في تمثال له. ويرمون من وراء ذلك إلى صرف الناس عن اتباعه ﷺ، ونسبة ما بُعِثَ به إلي سحر السحرة ودجل الدجالين.

وجها إبطال الشبهة:

١) أعداء الرسول ﷺ نفوا عنه السحر، وإن كانوا قد كابروا وتمادوا في تكذيبهم له، كما أن السحر يختلف عن النبوة والوحي، ولا يصح أن يوصف به رسول الله ﷺ.

(*) محمد في مكة، مونتجمري وات، مرجع سابق. الإسلام في تصورات الغرب، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق. محمد رسول الله، إتيين دينيه، سليمان بن إبراهيم، ترجمة: د. عبد الحليم محمود، د. محمد عبد الحليم، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٨٦م. حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقاد، طبعة المؤتمر الإسلامي، مصر، ط١، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.

٢) لقد شَدَّد النبيُّ ﷺ في النهي عن اتخاذ الأوثان والتماثيل والتصاوير، أما أنه ﷺ حبس جماعة من الجن في تمثال له فلا دليل عليه، ولا يعرفه المسلمون ولا يثبتونه.

التفصيل:

أولا. انتفاء السحر عن رسول الله ﷺ:

نشير بداية إلى أن هذا المسلك الذي يسلكه خصوم الإسلام للنيل من النبي ﷺ، حينما ضاق بهم التفكير، واستبدَّ بهم القلق، وسيطر عليهم الفزع، فأطلقوا ألسنتهم بالسوء، وزعموا مزاعم باطلة فنسبوا السحر إلى الرسول ﷺ - قد سلكه من قبلهم مشركو مكة[١] فقد روت كتب السيرة: أنه عندما اقترب موسم الحج، اجتمع مشركو مكة في دار الوليد بن المغيرة ليتشاوروا في أمر النبي ﷺ، فقال الوليد: إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا، قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل، وأقم لنا رأيًا نقل به.

قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول: كاهن. قال: لا، والله، ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهَّان فما هو بزمزمة[٢] الكاهن ولا سجعه. قالوا: فنقول: شاعر. قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا أنواع الشعر فما هو بالشعر. قالوا: فنقول: ساحر. قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السُحَّار فما هو بنفثهم ولا عقدهم. ولكن قولوا: ساحر؛ جاء بقولٍ هو سحر يفرِّق بين المرء وزوجه، وبين الولد وأبيه، وكلام محمد - القرآن - يفرق بين المرء وزوجه، وبين الولد وأبيه، فقولوا ساحر.

واعترف المشركون في دخيلة نفوسهم بصحة تلك الملاحظات، فكلهم قد أحسوا - في قليل أو كثير - أنه قد غزا قلوبهم ذلك الكلام العجيب، الصادر من أعماق قلب الرسول المُوحَى إليه، وكلهم كثيرًا ما كانوا على وشك الخضوع لتلك الألفاظ الأخَّاذة التي ألهمها إيمان سماوي، ولم يمنعهم عن الإسلام إلا قوة حبهم لأعراض الدنيا، وللذاتهم وميولاتهم التي حاربها الدين الجديد حربًا شعواء[٣].

وذهب عتبة بن ربيعة إلى الرسول ﷺ يقول له: أأنت خير أم عبد الله؟ أأنت خير أم عبد المطلب؟! إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم، فقل يُسمع لقولك، لقد فضحتنا في العرب حتى طار فيهم أن في قريش ساحرًا، وأن في قريش كاهنًا، ما تريد إلا أن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى.. !! فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها؛ لعلك تقبل منها بعضًا، فقال ﷺ: "قل يا أبا الوليد أسمع".

فقال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا؛ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا؛ سوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا؛ ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًّا[٤] تراه لا تستطيع

---

١. انظر: النبوة المحمدية: دلائلها وخصائصها، د. محمد سيد أحمد المسيَّر، دار الاعتصام، القاهرة، ط٣، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٢٠٣.

٢. الزَّمزمة: الصوت المتتابع.

٣. محمد رسول الله، إتيين دينيه، مرجع سابق، ص١٢٤، ١٢٥.

٤. الرَّئِيُّ: التابع من الجِن.

رده عن نفسك؛ طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه - أو كما قال له - حتى إذا فرغ عتبة. قال الرسول ﷺ: "أَوَقَد فرغت يا أبا الوليد"؟ قال: نعم، قال: "فاسمع مني"، فقرأ رسول الله ﷺ: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (فصلت). ثم مضى رسول الله فيها فقرأها عليه، وقد أنصت عتبة لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما، يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى قوله ﷻ: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ (فصلت).

فأمسك عتبة على فيه ﷺ وناشده الرَّحم أن يكف عن ذلك، ثم انتهى إلى السجدة فيها فسجد، ثم قال: "قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك"!!

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولًا، والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر، ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعوني فاجعلوها بي، وخلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سَحَرَك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي لكم فاصنعوا ما بدا لكم.

وهذا الفكر الجاهلي هو فكر كل مجتمع ضال منحرف، يصم آذانه عن دعوة الحق، ويغمض عينه دون نور الهداية[1].

إنهم يغالطون أنفسهم، ويغالطون قومهم لستر مكابرتهم، ولدفع ما ظهر من الغلبة عليهم، وهذا شأن المغلوب المحجوج أن يتعلق بالمعاذير؛ ذلك لأن هناك فروقًا أساسية واضحة بين النبوة والسحر، في مصدرهما، والموصوف بهما والأثر الناتج عنهما:

١. فمصدر النبوة هو الله تعالى الذي يصطفي من يشاء من عباده، والله هو أهل التقوى وأهل المغفرة، وهو ﷻ نور السماوات والأرض، وهو ﷻ الرحمن الرحيم، قال ﷻ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ ﴾ (الزخرف).

أما مصدر السحر فهو شياطين الجن المتمردون على الطاعة، المتربصون بالإنسان، وشعارهم قول إبليس الأول: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ (الأعراف).

٢. وصاحب النبوة هو الإنسان الكامل والنموذج الرفيع للبشرية، وسيرته أنقى سيرة يعرفها التاريخ.

أما الساحر فهو الأفَّاك الأثيم، همته دنيئة، وسلوكه منحرف، وغايته سلب أموال الناس وهتك أعراضهم.

٣. وأثر النبوة هو صلاح المجتمع وكرامة الإنسان في الدنيا وسعادته في الآخرة، وأثر السحر هو تفريق الشمل، وتمزيق الوحدة والإفساد في الأرض. وقد أكد القرآن الكريم كل هذه المعاني في أكثر من

١. النبوة المحمدية: دلائلها وخصائصها، د. محمد سيد أحمد المسير، مرجع سابق، ص٢٠٤: ٢٠٦.

آية، فقال ﷻ في مصدر الوحي: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾ (الشعراء)، وقال ﷻ في صاحب السحر: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾ (الشعراء).

وقال في أثر السحر: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ (البقرة: ١٠٢)، فما أبعد النبوة عن السحر!! وما أرفع مكانة الأنبياء[1]!

وعند تفسير قول الله ﷻ: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ (يونس).

يقول الشيخ الشعراوي: "وقد قال الكافرون هذا الاتهام أكثر من مرة، فمرة يقولون عن القرآن: إنه سحر، ومرة يقولون عن محمد ﷺ: إنه ساحر، ولنسأل: ما معنى كلمة ساحر؟ إن الساحر هو الذي يصنع أشياء، ويوهمك أنها حقيقة؛ وهي ليست بحقيقة، فهو لا يغيِّر حقيقة الأشياء، بل يوهم من يراها بأنها تغيرت، والسحر يقتضي ساحرًا، ويقتضي مسحورًا، ويقتضي عملية السحر ذاتها، أما عن الساحر فهو الذات التي تقوم بعملية السحر، ويقول الحق ﷻ عن السحرة: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (الأعراف: ١١٦)، أي: سحروا الأعين التي ترى الأمر المسحور على غير حقيقته، رغم بقاء الشيء المسحور على حقيقته.

فهم إذن قد أوهموا الناس بغير واقع، لكن المعجزة ليست كذلك؛ لأنها لا توهم الرائي بل تغير من حقيقة المرئي فعلًا، وقد دلنا القرآن على حقيقة هذه المسألة بالتجربة العملية في قصة عصا موسى عليه السلام.

فالحبال والعصي التي ألقاها السحرة لم تتغير حقيقتها ولم تسعَ، وما إن رمى موسى عصاه حتى تحولت إلى حية فعْليَّة تلقف ما صنعوا، وهذا ما جعل السحرة يسجدون ويعلنون الإيمان؛ لأنهم رأوا حقيقة واضحة وهي أن العصا قد تحولت بالفعل إلى حية.

إذن: فالساحر يرى الشيء على حقيقته، والمسحور هو الذي تتغير رؤيته، فيخيل إليه أنه شيء آخر.

فالتخييل إذن إنما يحدث في عيني المسحور، أقول ذلك حتى نفهم غباء كفار قريش حين اتهموا رسول الله ﷺ بأنه ساحر يسحر الناس، فيخرج الولد على أبيه وأهله ويجعل العبيد يتمردون على سادتهم، ولو كان النبي ﷺ ساحرًا، فلماذا لم يُسْحِر مَنْ قالوا هذا الاتهام، وبقاء من يقول بمثل هذا الاتهام دليل على أن مسألة الإيمان بالمنهج وبالرسول لا علاقة لها بالسحر"[2].

ويوضح سيد قطب في "الظلال" خطورة هذا القول في هدم الدين من أساسه: "والمسافة قصيرة بين هذا القول، والقول بأن الدين من صنع البشر، فالنتيجة النهائية واحدة.

والمزلق خطر وخطير للغاية، والمنهج بجملته يستوجب الحذر الشديد منه ومن نتائجه القريبة والبعيدة، ومع وضوح قضية الوحي على هذا النحو؛ فإن الكافرين يستقبلونها كما لو كانت أمرًا عجيبًا:

---

١. المرجع السابق، ص٢٠٨: ٢١٠.

٢. المرجع السابق، ص٢٠٨: ٢١٠.

﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ (يونس).

ساحر؛ لأن ما ينطق به معجز، وأولى لهم ـ لو كانوا يتدبرون ـ أن يقولوا: نبي يُوحَى إليه؛ لأن ما ينطق به معجز، فالسحر لا يتضمن من الحقائق الكونية الكبرى ومن منهج الحياة والحركة، ومن التوجيه والتشريع ما يقوم به مجتمع راقٍ، وما يرتكز عليه نظام منفرد.

ولقد كان يختلط عندهم الوحي بالسحر؛ لاختلاط الدين بالسحر في الوثنيات كلها، ولم يكن قد وضح لهم ما يتضح للمسلم حين يدرك حقيقة دين الله ﷻ فينجو من هذه الوثنيات وأوهامها وأساطيرها"[1].

مما سبق يتضح أن خصوم الإسلام الذين نسبوا السحر إلى رسول الله ﷺ ـ نَفَوا عن رسول الله ﷺ هذه الفرية عندما رجعوا إلي أنفسهم، وصارحوها بالحقيقة؛ لأن الوحي الذي أتى به النبي ﷺ يختلف - في مصدره وخصائصه وطبيعة الإنسان الذي استقبله ـ عن السحر تمامًا.

ثانيًا. النبي ﷺ نهى عن اتخاذ التماثيل واقتنائها أشد النهي، فهل يتصور بعد ذلك أن يتخذ تمثالا يحبس فيه الجن؟

القول بأن المسلمين أنفسهم قد قالوا بهذا الهراء وأن مصادرهم قد دوِّن فيها هذا الباطل أمر لا يمكن تصديقه؛ لأن المسلمين يعرفون تمامًا أن النبي ﷺ قد حرَّم التماثيل؛ لأنها تذكِّر بالأصنام من ناحية، ولأن فيها مضاهاة خلق الله من ناحية أخرى.

وقد وردت أحاديث كثيرة صحيحة تدل على هذا التحريم منها ما رواه أبو هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: "لا تدخل الملائكة بيتًا فيه تماثيل أو تصاوير"[2].

وقوله: "أشد الناس عذابًا يوم القيامة المُصَوِّرُون"[3]

فهل يعقل بعد هذا التحذير الشديد منه ﷺ أن ينسب المسلمون إلى نبيهم أنه صنع لنفسه تمثالًا أو أوعز بصنعه؟!!

وقد ورد أنه ﷺ لم يدخل الكعبة ـ في فتح مكة ـ حتى أخرج كل ما فيها من صور وأصنام، فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ لما قدم أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة فأمر بها فأُخرجت[4]، وعن جابر ﷺ أن النبي ﷺ أمر عمر بن الخطاب وهو بالبطحاء أن يأتي الكعبة فيمحو كل صورة فيها، فلم يدخلها حتى محيت الصور[5].

وهذه الأحاديث في مجموعها تدل على أنه ﷺ أمر بالرسوم المخطوطة على الجدران فمحيت، كما أمر بالصورة المجسمة القائمة في جوفها فأُخرجت، ويبدو أنه حينما دخل بعد ذلك وجد آثارًا لتلك الرسوم

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٣، ص١٧٦١.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة (٥٦٦٧).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب عذاب المصورين يوم القيامة (٥٦٠٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة (٥٦٦١).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب من كبر في نواحي الكعبة (١٥٢٤)، وفي مواضع أخرى.

٥. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله ﷺ (١٤٦٥٤)، وأبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب في الصور (٤١٥٨)، وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

على بعض جدرانها فدعا بماء وجعل يبالغ في حتها ومحوها.

وهذا يدل بوضوح على حكم الإسلام في التصوير والصور المجسمة وغير المجسمة، ولننقل لك في ذلك نص الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم، قال: "قال أصحابنا وغيرهم من العلماء: تصوير صورة الحيوان حرام شديد الحرمة، وهو من الكبائر؛ لأنه متوعد عليه بهذا الوعيد الشديد المذكور في الأحاديث، وسواء صنعه بما يمتهن أم بغيره؛ فصنعه حرام على كل حال؛ لأن فيها مضاهاة بخلق الله ﷻ، وسواء ما كان في ثوب أم بساط أم درهم أم دينار أم فلس أم إناء أم حائط أم غيرها.

أما تصوير الشجر ورحال الإبل وغير ذلك مما ليس فيه صورة حيوان، فليس بحرام، هذا حكم نفس التصوير، وأما حكم اتخاذ المصور فيه صورة حيوان، فإن كان معلقًا على الحائط، أو ثوبًا ملبوسًا أو عمامة ونحو ذلك، مما لا يعد ممتهنًا، فحرام، وإن كان في بساط يداس ومخدة ووسادة ونحوها مما يمتهن، فليس بحرام"[1].

أيكون ﷺ بعد ذلك متخذًا أصنامًا أو تماثيل لنفسه يحبس فيها الجن، وهو الذي كسر الأصنام في البيت الحرام قبل أن يدخله؟! ومن الذي قال هذا؟ وما الدليل على ذلك الزعم الفاسد؟ وكيف يدعي هؤلاء أن النبي ﷺ اتخذ لنفسه تمثالًا، وقد حرم النبي ﷺ حتى الصور وجاءت شريعته العصماء للقضاء على تلك التماثيل والأصنام التي تُعبد من دون الله®.

الخلاصة:

- إن سيرة النبي ﷺ تنفي أن يكون ساحرًا أو كاهنًا؛ حتى لقد شهد له بذلك أعداؤه قبل أصحابه، وشهد القرآن نفسه بقوة أسلوبه، وحسن بيانه، وعجز الإنس والجن أن يأتوا بمثله، فكان ذلك بيانًا شافيًا كافيًا يشف عن مصدره الإلهي، كما أن الساحر لا يصلح أمة ويضع لها حضارة راقية من العدم ولا ينبئ بحقائق علمية وغيبية، ولو كان ﷺ ساحرًا فلماذا لم يُسحر مَنْ لم يؤمنوا به حتى يدخلوا دينه كغيرهم؟!
- إن النبي ﷺ لم يدخل الكعبة المشرفة يوم الفتح إلا بعد تحطيم ما بها من أصنام وتماثيل، وقد حرم النبي ﷺ كل هذه الأشياء على أمته؛ لأنها تذكر الشرك والكفر، فكيف يتخذ لنفسه تمثالًا يحبس فيه الجن؟! إن هذا محض كذب وافتراء لم يقل به أحد من قبل، ولا تثبته الروايات، فمن أين للمدعي هذه الأضلولات؟!

---

1. صحيح مسلم بشرح النووي، الإمام النووي، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض، ط٢، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ج٨، ص٣٢٣٥.

® في **"نهي النبي ﷺ عن النحت والتصوير والتماثيل"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الأولى، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته). والوجه الثالث، من الشبهة الخامسة والعشرين، من هذا الجزء.

الشبهة الثالثة عشرة

دعوى أنه ﷺ كان كاردينالا كاثوليكيًّا ولم يكن نبيًّا(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغرضين أن النبي محمدًا ﷺ كان كاردينالًا[1] كاثوليكيًّا، تجاهلته الكنيسة في انتخابات البابا؛ فسافر إلى العرب وخدعهم مدَّعيًا أنه من قريش، وابتدع الدين الإسلامي؛ لينافس المسيحية التي طُرِد منها، ويتساءلون: إذا كان الأمر كذلك فهل من المنطق أن نُسَلِّم له بالنبوة؟! ويهدفون من وراء ذلك إلى التشكيك في كونه ﷺ قرشيًّا كما قال، وفي حقيقة ما بُعِث به من تعاليم؛ بغية الطعن في ربانية إرساله وبعثته، وإنكار نبوته ﷺ.

وجها إبطال الشبهة:

١) من الحقائق الثابتة أن كتب السيرة، وكتب التاريخ كلها التي كتبها المسلمون أو غيرهم - والتي ذكرت حياة الرسول ﷺ منذ ولادته حتى وفاته - قد أقرت بما لا يدع مجالا لشك أو ادعاء أن النبي ﷺ قد ولد في مكة لأبوين قُرَشِيَّيْنِ، وعاش فيها حتى بعْثَتِهِ ﷺ.

٢) إن ما جاء به محمد ﷺ من عقيدة وتشريعات ومبادئ إسلامية خالصة، يناقض تمامًا أصول المسيحية المحرَّفة وأسسها؛ مما ينفي وجود أي صلة بين الدين الإسلامي والدين المسيحي المحرف، ووجود أي ابتداع بشري في تعاليم الإسلام الإلهية.

التفصيل:

أولا. لقد أجمعت كل كتب السيرة والتاريخ على عروبة محمد ﷺ، وأنه ولد في مكة لأبوين قُرَشِيَّيْنِ، ونشأ فيها حتى بعْثَتِهِ ﷺ:

إن الأصل العربي لمحمد ﷺ ومولده ونشأته في مكة بين العرب من الحقائق الثابتة التي لا يماري فيها عاقل، ولا تحتاج منا إلى بيان؛ لأن كتب السيرة كلها وكتب التاريخ جميعها التي ذكرت حياته ﷺ منذ ولادته حتى وفاته ولم تترك منها شيئًا، قد أجمعت على أن النبي ﷺ قد ولد في مكة لأبوين قرشيين، وعاش فيها حتى بعثه الله إلى الناس بشيرًا ونذيرًا وهو في سن الأربعين.

ولكن في مقابل هذه الحقيقة الواضحة، نجد بعضًا من المغرضين أو أصحاب الخيال المريض يتجاهلون حقائق التاريخ وما شهد به الواقع، فيصنعون تاريخًا متوهمًا من خيالاتهم المريضة، ويشكلون أحداثه بما يتفق مع أغراضهم.

ودون استناد إلى حجة - ولو واهية - من العقل والمنطق نراهم يَدَّعون أن محمدًا ﷺ كان نصرانيًّا، وأنه لم يكن عربيًّا، بل خدع العرب وادَّعَى أنه من قريش ليبتدع دينًا ينافس به دينه القديم، لا شك أننا أمام خيال مجنون لا يعنيه الحق في شيء.

وإن جاز لهؤلاء المغرضين أن يتغافلوا عن اهتمام العرب بأنسابهم وحرصهم عليها، ووجود من يعرف كل شيء عن أنساب القبائل العربية وهم النسابة، واستحالة أن يخدعهم أحد فيزعم أنه ينتمي إلى إحدى القبائل دون أن يكون منها، إن جاز لهؤلاء أن يتجاهلوا ذلك كله، فليس لهم أي حق في أن يتجاهلوا ما أجمعت عليه كتب السيرة وكتب التاريخ، بل وكتب الحديث

(*) الغرب والإسلام: أين الخطأ وأين الصواب، د. محمد عمارة، مرجع سابق.

١. الكارْدِينال: هو أحد أحبار النصارى الذين يُختار البابا من بينهم.

والتي أكدت الأصل العربي لمحمد ﷺ ونشأته وحياته في مكة قبل البعثة، ويمكننا أن نوضح هذه الحقيقة - على الرغم من يقيننا أنها من البدهيات - بعرض سيرته ﷺ بإيجاز شديد في النقاط الآتية:

لقد أجمعت كتب السيرة كلها أن وَالِدَي النبي ﷺ كانا عربيين من قريش، فأبوه هو: عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، الذي يصل نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام -: أما أمه فهي: آمنة بنت وهب بن عبد مناف، ويصل نسبها كذلك إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

في صبيحة اليوم الثاني عشر من ربيع الأول من عام الفيل، الموافق سنة سبعين وخمسمائة من ميلاد المسيح ولد محمد ﷺ في مكة بعد أن تُوفِّي أبوه عبد الله، فكَفَلَه جده عبد المطلب، وكان من عادة أشراف العرب أن يتلمَّسوا المراضع لأولادهم في البوادي ليكون الولد نجيبًا وصحيح البدن وصافي الذهن، فأرسله جده للرضاعة في بني سعد حيث قامت بإرضاعه السيدة حليمة السعدية.

عندما بلغ ﷺ السادسة من عمره، ارتأت أمه أن تذهب به إلى أخوال جده عبد المطلب بالمدينة من بني النجار، وليزوروا قبر عبد الله والد النبي ﷺ، وفي طريق العودة إلى مكة مرضت الأم، وحُمَّ القضاء، ودفنت بقرية الأبواء.

بعد موت أم النبي ﷺ ضمه جده إليه، وَرَقَّ له رقة لم يرقها على ولده، وكان يقربه منه ويدنيه، ولما حضرت الجد الوفاة، أوصى ابنه أبا طالب عمه الشقيق كفالةَ النبي ﷺ، وكان سن النبي ﷺ ثماني سنوات.

بعد موت جد النبي كفله عمه أبو طالب، الذي أحب محمدًا ﷺ حبًّا شديدًا، وكان يؤثره على ولده، فلا ينام إلا إلى جنبه، ويخرج فيخرج معه.

اتجه محمد ﷺ إلى العمل، وقد شبَّ عن الطوق، وإن كان لم يبلغ سن المراهقة، فاشتغل برعي الغنم؛ رعاها لأهله، ورعاها لبعض أهل مكة، فكان يرعى الغنم في مكة على قراريط يأخذها من أهلها.

لما بلغ ﷺ سن الثانية عشرة خرج مع عمه أبي طالب في تجارة له إلى الشام، وفي هذه الرحلة قابلهم بَحِيرا الراهب النصراني في بُصرَى من بلاد الشام، فبشر أبا طالب بنبوة محمد ﷺ وحَذَّره من اليهود إن ظفروا بمحمد ﷺ أو علموا خبره، فما إن فرغ أبو طالب من بيع تجارته حتى عاد به مسرعًا إلى مكة، وقد اشتد حرصه عليه وحبه له.

اتجه محمد ﷺ إلى التجارة منذ أن ناهز البلوغ الطبيعي، وقد رُوِي أنه زاولها مع شريك أو شركاء، وقد ثبت أنه كان شريكًا للسائب بن أبي السائب، وقد رأى فيه النبي ﷺ الشريك الأمين السمح في معاملته.

لم ينقطع محمد ﷺ عن قومه في أعمالهم الجماعية، فلم يكن يمتنع عن التعاون على خير يقومون به، وقد رُوِي عنه أنه ﷺ قد حضر ندوة قريش في صباه، وكذلك عاصر النبي ﷺ حرب الفجار، ولكنه لم يشترك فيها إلا دفاعًا عن أعمامه، فلم يغمس يده في تلك الحرب إلا أن يكون واقيًا لذوي رحمه الذين رعوه حق الرعاية، وكذلك شهد ﷺ حلف الفضول في دار عبد الله بن جدعان، وهو الذي تحالفت فيه بطون من قريش واتفقت على رَدِّ المظالم إلى أهلها.

لما كانت سنه ﷺ تخطو إلى الخامسة والعشرين،

اختارته السيدة خديجة ليخرج في قافلة قريش إلى الشام للتجارة في مالها، وفي هذه الرحلة التقى ميسرة خادم خديجة بالراهب نسطورا، فأخبره بأن محمدًا ﷺ النبيُّ المنتظر الذي تحدثت عنه الكتب السابقة، وقد باع ﷺ السلع وابتاع، وعاد بربح وفير.

لما رأت خديجة وسمعت من أمانة محمد ﷺ وسمو أخلاقه أرسلت إليه نفيسة بنت منية، لتعرض عليه أمر الزواج منها، فوافق ﷺ بعد استشارة أعمامه، كان وقتئذ في الخامسة والعشرين من عمره، وكان عمر خديجة - رضي الله عنها - أربعين سنة، وقد أنجبت له - رضي الله عنها - أولاده كلهم ما عدا إبراهيم، فقد أنجب رسول الله ﷺ من خديجة من الذكور: القاسم وعبد الله، ومن الإناث: زينب، ثم رقية، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة.

قبيل النبوة حُبِّب إليه ﷺ الخلوة عن الخلق، فكان يخلو بغار حراء في رمضان من كل عام، وفي العشر الأواخر من رمضان عام ٦١٠م أثناء وجوده ﷺ في غار حراء أتاه جبريل عليه السلام بأول سور القرآن الكريم، وأخبره باختيار الله له بالرسالة، وإخراج قومه من الكفر إلى الإيمان ومن الظلمات إلى النور[1].

هذه سيرته ﷺ وتلك حياته قبل إعلانه دعوته، وعليه فلم يظهر النبي ﷺ فجأة في حياة العرب كما يدعون؛ لأنه ولد بينهم، ونشأ وعاش حياته كلها - قبل البعثة - في مكة، ولم يكن وافدًا عليهم كما يزعم أصحاب الخيال المريض.

ثانيًا. إن ما جاء به محمد ﷺ من عقيدة وتشريعات إلهية ومبادئ إسلامية خالصة يتناقض تمامًا مع أسس المسيحية المحرَّفة وأصولها:

على الرغم من أن ما ذكرناه آنفًا عن حياة محمد ﷺ كافٍ تمامًا لنفي كونه ﷺ نصرانيًّا قبل بعثته، إلا أننا نزيد هذه الحقيقة بيانًا، حينما نؤكد أن ما جاء به محمد ﷺ من دين إلهي يختلف تمامًا مع أصول المسيحية بمختلف مذاهبها، وهو ما يعترف به علماء المسيحية أنفسهم.

ويمكننا بيان ذلك في الآتي:

- لا أحد يجهل أن المسيحية المحرفة قد قامت على التثليث، وتقوم فكرة التثليث تلك على الإيمان بإله واحد مؤلف من ثلاثة أقانيم، أو ثلاث خواص، وهي: الآب، والابن، والروح القدس، وهذه الأقانيم الثلاثة هي: الذات، والنطق، والحياة، فالله موجود بذاته، ناطق بكلمته، حي بروحه، وكل خاصية من هذه الخواص، أو العناصر التي يتكون منها الإله تعطيه وصفًا معينًا، أو مظهرًا خاصًّا، فإذا تجلَّى الله بصفته ذاتًا سُمي الآب، وإذا نطق فهو الابن، وإذا ظهر كحياة فهو الروح القدس، وفي النهاية يكوِّن الآب والابن والروح القدس إلهًا واحدًا هو الله[2]!

أما الإسلام فقد قام على التوحيد الخالص: التوحيد في العبادة؛ فلا يُعبد إلا الله، والتوحيد في التكوين؛

---

١. انظر: السيرة النبوية، ابن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٣م. السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: الشيخ محمد بيومي، مكتبة الإيمان، مصر، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م. خاتم النبيين ﷺ، الإمام محمد أبو زهرة، مرجع سابق. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق. السيرة النبوية: دراسة تحليلية، د. محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، الأردن، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٢. المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د. عبد المنعم فؤاد، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص٢٢٧، ٢٢٨ بتصرف يسير.

فخالق السماء والأرض وما بينهما هو الله وحده لا شريك له، والتوحيد في الذات والصفات؛ فليست ذاته بمركبة، وهي منزهة عن مشابهة الحوادث ﷻ[1].

يقول الله ﷻ: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) ﴾ (الإخلاص).

- وتؤمن الكنيسة أن المسيح ابن الرب ووحيده، وأنه إله، بل ويذهب الكاثوليك منهم إلى أبعد من ذلك فينسبون الألوهية إلى مريم العذراء أيضًا باعتبارها "أم الرب"، وهذا كله ينكره الإسلام، فالإسلام قد بَيَّنَ أن مولد المسيح من رحم عذراء دون أن يكون له أب، أمر لا يزيد إعجازًا عن خلق آدم دون أم أو أب؛ يقول ﷻ في محكم آياته: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) ﴾ (آل عمران)، وردًّا على قول النصارى: إن المسيح ابن الرب يقول الله تعالى: ﴿ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) ﴾ (التوبة)[2].

كما يؤكد القرآن الكريم أن المسيح ؑ وأمه ما هما إلا عبدان أنعم الله عليهما، يقول ﷻ: ﴿ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ (المائدة: ٧٥)، كما ردَّ القرآن الكريم بكل قوة على بعض النصارى الذين يزعمون أن المسيح ابن مريم هو جوهر الله، يقول ﷻ: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) ﴾ (المائدة).

- تؤمن المسيحية بمفهوم الخطيئة الأصلية، وهي خطيئة آدم في ظنهم وقد توارثها أبناؤه، فكان لا بد في ظنهم من فداء، وهذا الفداء لا يتم إلا بأن يقدم الإله ابنه - كما يزعمون - للصلب تكفيرًا عن خطيئة آدم التي توارثها أبناؤه، "فكل ابن أنثى - في عقيدتهم - يرث خطيئة آدم، ولا شيء ينجيه من العذاب الأبدي إلا موت ابن الله ليكفِّر بموته عن خطيئته"؛ ولهذا فهم يعتقدون أن المسيح عيسى ؑ قد صُلب ليكفر عن خطيئة آدم، ويخلِّص البشرية من وزر هذه الخطيئة، أما الإسلام فقد أنكر تمامًا هذه الفكرة "الصلب والفداء"؛ إذ نصَّ على أن الله قد غفر لآدم ذنبه، يقول ﷻ: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) ﴾ (البقرة)، كما يؤكد الإسلام أن الإنسان يولد بريئًا من كل ذنب، فلا حاجة لافتدائه سلفًا من الخطيئة الأصلية، وليس هنالك من علاقة بين الديانة والشعور بالذنب المتأصل في النفس. إن مفهوم الخطيئة الأصلية، وافتدائها بالنيابة ينقضه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (الإسراء: ١٥)،[3] كما هدم الإسلام فكرة صلب وقتل المسيح من أساسها

١. المرجع السابق، ص٢٤.

٢. عيسى رسول الإسلام، القس سليمان شاهد مفسر، ترجمة: أبو إسلام أحمد عبد الله، بيت الحكمة، مصر، ص١٨، ١٩.

٣. المسيحية والإسلام والاستشراق، محمد فاروق الزين، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط٣، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص٢٤٢.

بقوله ﷻ: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾(النساء: ١٥٧).

مما سبق يتبين لكل ذي لُبٍّ أن ما جاء به محمد ﷺ من عقيدة وتعاليم يتناقض تمامًا مع الأصول التي قامت عليها المسيحية، بل إننا لو أردنا أن نتتبع كل أوجه الاختلاف بين الإسلام والمسيحية سواء على مستوى التشريع، أم على مستوى النظرة إلى الأنبياء وغير ذلك لما وسعنا المقام، ولكن ما ذكرناه آنفًا كافٍ تمامًا لبيان الاختلاف، بل التناقض الجلي بين الإسلام والمسيحية بشكل ينفي تمامًا أن تكون هناك أي خلفية مسيحية في تعاليم الإسلام، وهذا ما شهد به علماء المسيحية أنفسهم، فقد جاء في "مؤتمر كولورادو" الذي عقد بأمريكا ١٣٩٨هـ/ مايو ١٩٧٨م، على لسان المؤسسة البروتستانتية "أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية" [(١)].

إننا نسأل هؤلاء الذين يتخيلون أن محمدًا ﷺ كان كاردينالًا في إحدى كنائس الكاثوليك قبل أن يدعو إلى الإسلام: هل تَنَكَّر هذا الكاردينال الخيالي لكُلِّ مبادئه ومعتقداته القديمة إلى درجة عدم تأثره ولو بنسبة ضئيلة بها؟! وكيف يكون ذلك؟ ونسألهم أيضًا: هل كل من حُرم البابوية قام بتأسيس دين انتقامًا من كنيسته التي استبعدته؟

إنكم لا تستطيعون أن تنكروا أن من أكبر الثوار على الكنيسة الكاثوليكية هو مارتن لوثر الألماني ـ ١٤٣٨/ ١٤٥٦م ـ ذلك الراهب الكاثوليكي الذي كشف سوء حالة الكنيسة وانحراف رجالها عن جادة الصواب، فقام بتأسيس المذهب البروتستانتي، ولكن هذا المذهب في مجمله وإن اختلف مع مبادئ المسيحية الكاثوليكية، يتفق معها في أصول العقيدة، ولا يمكن أن يوصف بأنه دين جديد غير المسيحية[(٢)].

هذا هو حال أكبر حركات الإصلاح في المسيحية، بل أقوى الحركات وقوفًا ضد الكنيسة وتمرُّدًا عليها، ولكنها ـ كما ذكرنا ـ لا تصل إلى أن تكون دينًا جديدًا.

إننا نود أن نسأل هؤلاء كذلك: إنكم تعلمون علم اليقين أن كل كنيسة مسيحية في الشرق أو في الغرب لها سجلاتها التي يكون فيها أسماء رجالاتها، فلماذا لم تعلن إحدى الكنائس في الشرق أو في الغرب أن محمدًا ﷺ كان ينتمي إليها في يوم من الأيام؟

إننا في النهاية لا يسعنا إلا أن نقول: إن الزعم بأن محمدًا ﷺ كان راهبًا نصرانيًّا حُرم البابوية، فأراد أن ينتقم من الكنيسة، فابتدع الإسلام هو خيال مجنون لا يعنيه التاريخ ولا الواقع ولا الحق في شيء؛ فكل نصارى الشرق والغرب، لن يستطيعوا أن يأتوا بسورة واحدة من الكريم، فضلًا عن مبادئ الإسلام، وعقيدته وتشريعاته، ولا عجب في هذا، فهو دين الله الخاتم الذي أوحى به إلى النبي ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ®.

١. هذا هو الإسلام، د. محمد عمارة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٢٢ بتصرف يسير.

٢. انظر: المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د. عبد المنعم فؤاد، مرجع سابق، ص٢٩٥، ٢٩٦.

® في **"مخالفة الإسلام لعقائد اليهود والنصارى المحرفة وردها"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة، والوجه الثالث، من الشبهة الرابعة، من الجزء الرابع (دعوة النبي ﷺ وتبليغه الوحي). والوجه الأول، من الشبهة السادسة، من الجزء السادس (تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده).

الخلاصة:

- لقد أجمعت كتب السيرة وكتب التاريخ جميعها التي لم تترك شيئًا من حياة النبي ﷺ إلا ذكرته أنه ﷺ ولد في مكة في عام الفيل لأبوين قرشيين، وقد مات أبوه قبل ولادته، ثم ماتت أمه وهو في سن السادسة، ثم كفله جده الذي توفي وهو في سن الثامنة، فضمه عمه أبو طالب إليه، وقد اشتغل ﷺ في رعي الغنم منذ صباه، وقد خرج مع عمه في رحلة إلى الشام في تجارة لعمه، وبعد بلوغه ﷺ عمل في التجارة، ثم خرج في رحلته الثانية إلى الشام في تجارة للسيدة خديجة - رضي الله عنها - التي تزوجها بعد رحلته تلك، وأنجبت له كل أبنائه ما عدا إبراهيم، ثم لما بلغ ﷺ سن الأربعين نزل عليه الروح الأمين جبريل عليه السلام بالوحي والرسالة، فكيف يزعم المدعون أنه ﷺ لم يكن عربيًّا، ولم ينشأ في مكة؟

- إن ما جاء به محمد ﷺ من عقيدة ومبادئ وتعاليم يجده المنصفون مناقضًا تمامًا لأسس النصرانية ومبادئها، ويكفي أن الإسلام ينكر التثليث، وينكر ألوهية المسيح، كما ينكر عقيدة الصلب والفداء، وكل هذه الاختلافات بين الإسلام والنصرانية تنفي بشكل يقيني أن تكون هناك خلفيات مسيحية في تعاليم الإسلام، وهذا ينفي أن يكون محمد ﷺ راهبًا نصرانيًّا قبل بعثته.

الشبهة الرابعة عشرة

الزعم أن الحماس الزائد هو الذي دفع محمدًا ﷺ إلى إعلان نبوته(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن رسول الله محمدًا ﷺ كان مجرد رجل صالح اعتقد أنه نبي فتحمس لنشر معتقداته، ويستدلون على ذلك بما يزعمونه من أنه ﷺ اعتمد في إثبات نبوته ونشر دعوته على قوة اعتقاده وشدة حماسته فقط، كما يزعمون أن حماسه الزائد لذاته وأهدافه الشخصية قد طغى بشدة على حماسه لقضية الدين والدعوة إلى الله في بعض مراحل دعوته.

ويرمون من وراء ذلك إلى قصر دوره ﷺ في الدعوة والتبليغ على كونه رجلًا صالحًا متحمِّسًا؛ بغية الطعن في نبوته ﷺ، والتشكيك في حقيقة أمره.

وجها إبطال الشبهة:

١) لقد اعتمد النبي ﷺ في إثبات نبوته ونشر دعوته على تأييد الله عز وجل له، ولم يغب عنه ﷺ ذاك المعتقد طرفة عين.

٢) لم تعهد البشرية - على طول تاريخها - رجلا أخلص لمعتقده ورسالته وتحمَّس لأمر دينه ودعوته إخلاصَ النبي ﷺ، ذلك الحماس الذي لم يفتر في أي مرحلة من مراحل الدعوة ولم ينشغل عنه ﷺ بأي غرض آخر.

(*) الإسلام في تصورات الغرب، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق.

التفصيل:

أولا. لم يعتمد محمد ﷺ في إثبات نبوته ونشر دعوته على قوة اعتقاده وحماسه لدعوة الناس فحسب، بل اعتمد في المقام الأول على تأييد الله له في مراحل الدعوة:

من الخطأ الكبير أن يعتقد أحد من الناس أن رسالة الإسلام قامت على حماسة النبي ﷺ وإيمانه المجرد بذاته؛ لأن العقل والواقع يرفضان رفضًا تامًّا أن تقوم دعوة ملأت مشارق الأرض ومغاربها، واستمرت وستستمر إن شاء الله إلى يوم الدين على اعتقاد من صاحبها، إلا إذا كان هذا الاعتقاد صادقًا.

لقد كان النبي ﷺ متحمسًا أشد التحمس في دعوته إلى الله ﷻ وقد كان ﷺ حريصًا أشد الحرص على هداية قومه، ودخولهم الإسلام، ولكن الذي يرفضه واقع دعوة النبي ﷺ أن تكون هذه الحماسة هي الدعامة الوحيدة التي اعتمد عليها ﷺ في دعوته إلى الإسلام، فكم من دعوة إلى الإصلاح والتغيير وئدت في مهدها رغم حماسة أصحابها لها، وكم من دعوة وصلت إلى عنان السماء بجهد أهلها، ثم ما لبثت أن هوت إلى الأرض، ودفنت مع أصحابها، وكم من دجّال ادعى النبوة، ولكن الله خذله وجعله عبرة لمن يعتبر.

إننا نسأل كل هؤلاء: أين هذه الدعوات؟ إنها قد ماتت على الرغم من إيمان أصحابها بها، وحماستهم الشديدة لها، لقد تلاشت هذه الدعوات كما يتلاشى الظلام أمام ضوء الشمس، وصارت كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف.

أين هذه الدعوات من دعوة الإسلام، ورسالة محمد ﷺ التي ملأت الآفاق، وظهرت دلائل صدقها، وما زالت تظهر في كل حين ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت: ٥٣)؟

إن دعوة النبي ﷺ إلى التوحيد قد أثارت حفيظة المشركين وحميتهم، بحيث شكّلوا خطرًا حقيقيًّا على حياته ﷺ منذ اللحظة الأولى التي جهر فيها بدعوته، وتعرَّض لكثير من الاضطهاد والأذى طوال فترة إقامته بمكة، وكذلك إجماع المشركين وعزمهم على قتله ليلة الهجرة، كما لم تكن حياته في المدينة المنورة بعد الهجرة أكثر أمنًا، ولا أرغد عيشًا؛ فقد أثارت دعوته حقد اليهود ومكرهم، حيث تشابكت أيدي اليهود والمشركين فشكّلوا خطرًا مزدوجًا على حياة النبي الكريم ﷺ، وكثرت المؤامرات الهادفة إلى اغتياله، كتلك التي حاول فيها اليهود إلقاء صخرة عليه وهو في زيارة لحيِّهم، كما حاولوا قتله بالسم عن طريق إطعامه بعضًا من شاة مسمومة أثناء زيارته لخيبر، ولا يغيب عن الأذهان غزوة الأحزاب التي اتحد فيها المشركون واليهود لمحاربة الإسلام واستئصاله، وغير ذلك كثير من المؤامرات الهادفة للقضاء عليه وعلى دعوته، فإذا لم يكن محمد ﷺ نبيًّا، فمن كان يحفظه ويعصمه من الناس إذن؟

لا يمكن لعاقل أن يصدق أن رجلًا مثل محمد ﷺ ـ والذي انشغل بدعوة الناس دعوة عملية، وانشغل بأعدائه، وانشغل بتأسيس الدولة الإسلامية، وانشغل بفتوحاته المقدسة، رجل عانى في حياته، ولم يتراجع عن شيء آمن به ودعا إليه ـ كان دجَّالًا كاذبًا، اعتقد أنه نبي

وصدَّق اعتقاده، فقام يدعو الناس معتمدًا على حماسته في الدعوة، وعلى اعتقاده فحسب[1].

والأقرب للمنطق والعقل والواقع أن دعوة محمد ﷺ قد قامت على نصرة الله لنبيه ﷺ وتأييده له في كل مراحل هذه الدعوة، ويمكن أن نوضح بعضًا من هذه الدعائم التي اعتمد عليها رسول الله ﷺ في دعوته الناس للإيمان بالله، والإيمان به كنبي خاتم، ورسول من رب العالمين وهي:

١ . إقرار الله تعالى له ولدعوته:

من أدلة صدق النبي ﷺ إقرار الله لدعوته؛ فإن الله ﷻ أخبر أن محمدًا ﷺ لو تقوَّل على ربه شيئًا من الأقاويل لأهلكه قال ﷻ: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) ﴾ (الحاقة). وقال ﷻ: ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) ﴾ (يونس)، وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) ﴾ (الزمر)، ولكن النبي ﷺ ما خاب بل هُدي وأفلح في كل المجالات.

وقد قرر ابن القيم هذا الدليل في كتابه "هداية الحيارى" أوضح تقرير، فقال: وقد جرت لي مناظرة بمصر مع أكبر من يشير إليه اليهود بالعلم والرياسة، فقلت له في أثناء الكلام: أنتم بتكذيبكم محمدًا ﷺ قد شتمتم الله أعظم شتيمة، فعجب من ذلك، وقال: مثلك يقول هذا الكلام؟ فقلت له: اسمع الآن تقريره، إذا قلتم: إن محمدًا ملك ظالم، وليس برسول من عند الله، وقد أقام ثلاثًا وعشرين سنة يدَّعي أنه رسول الله أرسله إلى الخلق كافة، ويقول أمرني الله بكذا ونهاني عن كذا، وأوحى إليَّ كذا، ولم يكن من ذلك شيء، وهو يدأب في تغيير دين الأنبياء، ومعاداة أممهم، ونسخ شرائعهم، فلا يخلو إما أن تقولوا: إن الله ﷻ كان يطَّلع على ذلك ويشاهده ويعلمه، أو تقولوا: إنه خفي عنه ولم يعلم به، فإن قلتم: لم يعلم به. نسبتموه إلى أقبح الجهل، وكان من علم ذلك أعلم منه، وإن قلتم: بل كان ذلك كله بعلمه ومشاهدته واطلاعه عليه، فلا يخلو إما أن يكون قادرًا على تغييره والأخذ على يديه ومنعه من ذلك أو لا، فإن لم يكن قادرًا فقد نسبتموه إلى أقبح العجز المنافي للربوبية، وإن كان قادرًا وهو مع ذلك يعزُّه وينصره، ويؤيِّده ويعليه ويعلي كلمته، ويجيب دعاءه، ويمكِّنه من أعدائه، ويظهر على يديه من أنواع المعجزات والكرامات ما يزيد على الألف، ولا يقصده أحد بسوء إلا أظفره به، ولا يدعوه بدعوة إلا استجابها له، فهذا من أعظم الظلم والسفه الذي لا يليق نسبته إلى آحاد العقلاء، فضلًا عن رب الأرض والسماء، فكيف وهو يشهد له بإقراره على دعوته وبتأييده وبكلامه، وهذه عندكم شهادة زور وكذب، فلما سمع ذلك قال: معاذ الله أن يفعل الله هذا بكاذب مفتر بل هو نبي صادق[2].

ومثل هذا "لو أن حاجب الأمير قال للناس: إن الأمير قد أمركم بفعل كذا وكذا. فإن الناس يعلمون أنه

١ . وامحمداه: الحميم والنار على من سب النبي المختار، محمد عبد الحليم عبد الفتاح، طبعة خاصة، ط١، ٢٠٠٦م، ص٢٠١ بتصرف.

٢ . هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن القيم، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، د. ت، ص٨٧، ٨٨.

لا يتعمَّد الكذب في مثل هذا، وإن لم يكن بحضرته، فكيف إذا كان بحضرته وبعلمه".

وكان النبي ﷺ لا يكاد يدعو بدعاء إلا استجاب الله تعالى له في الحال، عن أنس بن مالك ﷺ: أن رجلًا دخل المسجد يوم جمعة، من باب كان نحو دار القضاء، ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبل رسول الله ﷺ قائمًا، ثم قال: يا رسول الله، هلكت الأموال وانقطعت السُّبل، فادع الله يغيثنا، فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: "اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا"، قال أنس: والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قَزَعَة[1]، وما بيننا وبين سَلْع[2] من بيت ولا دار، قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت، فلا والله ما رأينا الشمس ستًّا[3]. وفي رواية: فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر[4] على لحيته ﷺ، ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبله قائمًا فقال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها عنا. قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: "اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام[5] والظِّراب[6] وبطون الأودية، ومنابت الشجر". قال: فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت فأقلعت وخرجنا نمشي في الشمس، وصارت المدينة مثل الجَوْبة[7]، وسال الوادي قناة شهرًا، ولم يجئ أحد من ناحية إلا حدَّث بالجود[8].

إلى غير ذلك من الأدعية الكثيرة جدًّا، التي استجاب الله له ﷺ فيها في الحال، وهذا لا يمكن أن يتيسر لكاذب، بل لا يكون إلا لصادق مؤيد من الله ﷻ، فيطوِّع له الطبيعة، ويسخِّر له السحاب والأمطار.

٢. تأييد الله له، والأمثلة كثيرة نكتفي منها بالآتي:

- **تأييد الله لرسوله أثناء هجرته:**

خرج النبي ﷺ وصاحبه أبو بكر الصديق ﷺ، مهاجرين إلى المدينة النبوية، واختفيا في غار ثور ثلاثة أيام، وصعد المشركون إلى الغار بحثًا عن النبي ﷺ وأبي بكر، فحفظ الله نبيه وأبا بكر منهما، قال أبو بكر: قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا تحت قدميه، فقال النبي ﷺ: "يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما"؟[9] وأشار القرآن إلى ذلك فقال ﷻ: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ

١. القَزَعة: قِطَع السحاب المتناثرة في السماء.

٢. سَلْع: اسم جبل.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة (٩٦٨)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء (٢١١٥).

٤. يتحادر: يتساقط.

٥. الآكام: التِّلال.

٦. الظِّراب: جمع ظَرِب، وهو الجبل المنبسط.

٧. الجَوبة: كل متسع من الأرض بلا بناء.

٨. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب رفع اليدين في الخطبة (٨٩١)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء (٢١١٦).

٩. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين وفضلهم (٣٤٥٣)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق (٦٣١٩).

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) ﴾ (التوبة).

- **نصرة الله لرسوله ﷺ بالريح الشديدة في غزوة الأحزاب:**

يقول الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ (١٠) هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا (١١) ﴾ (الأحزاب).

فلقد تجمع الأحزاب من الكفار لقتال النبي ﷺ، وكان عددهم نحوًا من عشرة آلاف، وتحالفوا مع اليهود القاطنين في شرق المدينة على حرب النبي ﷺ وأصحابه، واشتد الحال على المسلمين الذين حفروا خندقًا بينهم وبين الكفار، واستمر الكفار قريبًا من شهر، وهم يحاصرون المسلمين في المدينة.

فدعا النبي ﷺ ربه أن ينصره على المتآلئين على الإسلام فقال: "اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم"[1].

فاستجاب الله دعاء رسوله، وأرسل على الأحزاب ريحًا شديدة أقضَّت مضاجعهم[2]، وجنودًا زلزلتهم مع ما ألقى الله بينهم من التخاذل، فأجمعوا أمرهم على الرحيل وترك المدينة النبوية. ولو كانت هذه المعجزة لم تقع لَتشكَّكَ المسلمون في القرآن، وربما ارتدوا عن دينهم، قائلين: كيف نصدق ما لم يقع؟!

- **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى "يوم بدر":**

يقول تعالى لنبيه ﷺ في شأن القبضة من التراب التي حصب[3] بها وجوه الكافرين يوم معركة بدر حين خرج عليهم ﷺ من العريش بعد دعائه وتضرعه فرماهم بها، وقال: "شاهت الوجوه"[4][5]. فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ (الأنفال: ١٧)، أي: هو الذي بلغ ذلك إليهم وكبتهم بها لا أنت.

ولو لم تكن تلك الرمية من الرسول ﷺ قد حدثت لسارع المسلمون والمؤمنون بتكذيب الآية، واتهام الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - بالكذب، وحاشاه ﷺ أن يكذب[6].

كان الله ﷻ هو المؤيد لهذه الدعوة في كل مراحلها، والموفق نبيه لهداية خلقه، ولا شك أن الحماس وحده لا يكفي لبناء دين، أو إخراج أمة من الظلام إلى النور، وقد صدق القائل:

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة (٢٧٧٥)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو (٤٦٤١).

٢. أقضَّت مضاجعهم: أقلقتهم كأنهم ينامون على الحصى.

٣. حَصَب: رمى.

٤. شاهت الوجوه: قَبُحت.

٥. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين (٤٧١٩).

٦. واممداه، محمد عبد الحليم عبد الفتاح، مرجع سابق، ص١٩٥: ١٩٩ بتصرف يسير.

إذا لم يَكُنْ عَونًا من الله للفَتَى
فأَوَّلُ ما يَقْضِي عليه اجتهادُه

ويقول كارليل - أحد المستشرقين غير المسلمين - مبينًا هذه الحقيقة: "لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد متمدن من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يشيع المغرضون من أن محمدًا خدَّاع ومزوِّر، وعلينا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فالرسالة التي دعا إليها هذا النبي ﷺ ظلت سراجًا منيرًا أربعة عشر قرنًا من الزمان لملايين كثيرة من الناس، وما الرسالة التي رواها محمد ﷺ إلا الصدق والحق، وما كلمته إلا صوت الحق صادر من العالم المجهول، وما هو إلا شهاب أضاء العالم أجمع، ذلك أمر الله وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء" [1].

ثانيًا. لم تعرف البشرية، ولن تعرف رجلا كان مخلصًا ومتحمسًا لقضية الدعوة إلى الله مثل محمد ﷺ:

لقد كان النبي ﷺ متفردًا في عزيمته، مثالًا ساميًا في الصبر، وكان ﷺ أشرف الناس مقصدًا، وأخلصهم نية لله، ولا عجب في ذلك، فهو الذي وضع الميزان الذي تقاس به الأعمال في الإسلام يقول ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نَوَى...". الحديث [2].

ومن ثم فلنا أن نقول ونحن واثقون بكل ما نقوله: إن البشرية لم تعرف، ولن تعرف شخصية أخلصت في الدعوة إلى الله ﷻ مثل محمد ﷺ الذي جاءه الوحي قائلًا له: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢)﴾ (المدثر)، فقام يدعو إلى دين الله حتى أتاه اليقين، وقد ظل طوال حياته يراقب الله ويخشاه في جميع الأمور، فإذا جاءه أمر يحبه قال: "الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات"، وإذا أتاه أمر يكرهه قال: "الحمد لله على كل حال" [3]. وإن غزا قال: "اللهم أنت عَضُدي [4] ونصري، بك أَحُول [5]، وبك أَصُول [6]، وبك أقاتل". [7] وإن أراد نومًا قال: "باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه". [8] وإن استيقظ قال: "الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور". [9] وإن أكل قال: "الحمد لله كثيرًا طيبًا مباركًا فيه غير مكفيٍّ ولا مُوَدَّعٍ ولا مُسْتَغْنًى عنه رَبَّنَا". [10] وإذا أفطر من صيام قال: "ذهب الظَّمأ، وابتلَّت

---

١. الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، مرجع سابق، ص٤٥٩.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: "إنما الأعمال بالنية" (٥٠٣٦)، واللفظ للبخاري.

٣. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب فضل الحامدين (٣٨٠٣)، والطبراني في المعجم الأوسط (٦/ ٣٧٥)، برقم (٦٦٦٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٦٥).

٤. عَضُدي: ناصري ومُعيني.

٥. أَحُول: أكيد العدو.

٦. أَصُول: أقهر.

٧. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب ما يدعى عند اللقاء (٢٦٣٤)، والترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب في الدعاء إذا غزا (٣٥٨٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٥٧).

٨. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب التعوذ والقراءة عند النوم (٥٩٦١)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٧٠٦٧).

٩. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا نام (٥٩٥٣)، وفي مواضع أخرى.

١٠. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأطعمة، باب ما يقول إذا فرغ من طعامه (٥٩٥٣)، وفي مواضع أخرى.

العروق، وثبت الأجر إن شاء الله".[1] وإذا انقلب من الليل إلى فراشه قال: "لا إله إلا الله الواحد القهار، رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار".[2] وإذا خاف قومًا قال: "اللهم إنا نجعلك في نُحورهم، ونعوذ بك من شرورهم".[3] وإذا حلف قال: "والذي نفس محمد بيده"[4].

من ذلك يتبين أنه ﷺ، كان في جميع شئونه لا ينظر إلا إلى الله، ولا يستمد المعونة إلا من الله، ولا يرى لنفسه ولا لغيره حولًا ولا قوة[5].

لقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ومن هذا التعليم والتأديب قوله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾(الأنعام)، فهل يعقل لمن كانت هذه حياته أن يفتر لحظة واحدة، أو تشغله حاجة نفسه عن الدفاع عن دعوته إلى الله؟

لقد كان ﷺ يحب لله ويكره لله، وكان - منذ بداية الدعوة حتى وفاته ﷺ - مخلصًا لله في كل ما يفعل مُنْكِرًا ذاته، متواضعًا أشد التواضع، منشغلًا عن حاجة نفسه وحاجة أهله، وكل ما يهمه هو هداية الناس إلى الإسلام، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وقد أدرك هذه الحقيقة بعض المنصفين من علماء الغرب، ومثل هذا ما ذكره د. م. ج دُرَّاني - وهو أحد الغربيين - عن ، ورغم كل ذلك يرفض أن يكف عن السعي لخيرهم، هل يمكن لأحد أن يتحمل كل هذا العناء والألم من أجل دعوة مزيفة؟ هل يستطيع أي مُدَّعٍ غير مخلص أن يبدي هذا الثبات، والتصميم على مبدئه، والتمسك محمد ﷺ وما تحمله من أذى في سبيل دعوته لله إذ يقول: "تحمل ﷺ ثلاثة عشر عامًا كاملة من المتاعب في مكة دون انقطاع، وعشر سنوات في المدينة دون توقف، فتحمل ذلك كله، فلم يتزحزح شعرة عن موقفه، وكان صامدًا رابط الجأش، صلبًا في أهدافه وموقفه، عرضت عليه أمته - قومه - أن تنصبه ملكًا عليها، وأن تضع عند قدميه كل ثروات البلاد إذا كفَّ عن الدعوة إلى دينه، ونشر رسالته، فرفض هذه الإغراءات كلها واختار بدلًا من ذلك أن يعاني من أجل دعوته. لماذا؟ لماذا لم يكترث أبدًا للثروات، والجاه، والملك، والمجد، والراحة، والدعة، والرخاء؟ لا بد أن يفكر المرء في ذلك بعمق شديد إذا أراد أن يصل إلى جواب عليه".

ويقول كذلك: "هل بوسع المرء أن يتصور مثالًا للتضحية بالنفس وحب الغير، والرأفة بالآخرين أسمى من هذا المثال؟! حيث نجد رجلًا يقضي على

---

١. حسن: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصوم، باب القول عند الإفطار (٢٣٥٩)، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب الصيام، باب ما يقول إذا أفطر (٣٣٢٩)، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (٩٢٠).

٢. صحيح: أخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب عمل اليوم والليلة، باب ما يقول إذا انتبه من منامه (١٠٧٠٠)، والحاكم في مستدركه، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل (١٩٨٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٦٦).

٣. أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث أبي موسى الأشعري ﷺ (١٩٧٣٥)، وأبو داود في سننه، كتاب سجود القرآن، باب ما يقول الرجل إذا خاف قومًا (١٥٣٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٠٦).

٤. صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الأيمان والنذور والكفارات، باب كيفما كانوا يحلفون (١٢٤٨٦)، وابن ماجه في سننه، كتاب الكفارات، باب يمين رسول الله ﷺ التي كان يحلف بها (٢٠٩٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٦٩).

٥. محمد المثل الكامل، أحمد جاد المولى، مرجع سابق، ص٩٣، ٩٤ بتصرف يسير.

سعادته الشخصية لصالح الآخرين، بينما يقوم هؤلاء القوم أنفسهم الذين يعمل على تحسين أحوالهم، ويبذل أقصى جهده في سبيل ذلك يقومون برميه بالحجارة، والإساءة إليه، ونفيه، وعدم إتاحة الفرصة له للحياة الهادئة حتى بعد هجرتهبه حتى آخر رمق دون أدنى وجل أو تعثُّر أمام الأخطار وصنوف التعذيب التي يمكن تصورها، وقد قامت عليه البلاد بأكملها وحملت السلاح ضده"[1]؟!

ويؤيده قول توماس كارليل: "كان محمد ﷺ مثلًا للإخلاص، والوقوف إلى جانب الحق والعدالة في كل ما يفعل، وكل ما يقول وكل ما يفكر فيه، لم يكن محبًّا لنفسه، بل كان محبًّا لغيره أمينًا في أداء رسالته".

وقوله أيضًا: "يزعم المتعصبون من النصارى والملحدين أن محمدًا ﷺ لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية، ومفاخر الجاه والسلطان. كلا وايم الله! لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القفار والفلوات، المتورد المقلتين، العظيم النفس المملوء رحمة وخيرًا، وحنانًا وبرًّا، وحكمة وحجى، وإربة ونُهى، أفكار غير الطمع الدنيوي، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه، وكيف لا، وتلك نفس صافية ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين"[2].

نعم، لقد كانت سيرة النبي ﷺ من مبدأ ميلاده إلى أن توفاه الله مثالًا جليًّا للإخلاص والتفاني في الدعوة في سبيل الله، فلننظر مثلًا إليه ﷺ وما أصابه في غزوة أُحد من حوادث أليمة، فإنه مع هذا لم يتكدر خاطره، ولم يصبه هَمٌّ أو غم؛ لأنه يعلم أن ما أصابه كان في سبيل الله ولله، فلم يكن النبي ﷺ يفكر إلا في الدعوة إلى الله، لم ينتظر أجرًا ولا مكافأة مقابل دعوته، فكان شعاره: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ (يونس: ٧٢).

حتى إن ربه أشفق عليه فعاتبه قائلًا: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ (الكهف).

ومن ثم فلا يحق لأحد من الناس أن يزعم أن محمدًا ﷺ لم يكن مخلصًا لله، أو أن حماسه في الدعوة إلى الله قد فتر في أي مرحلة من مراحل دعوته ﷺ؛ لأنه كما سبق القول لم تعرف البشرية ـ ولن تعرف ـ رجلًا أخلص في دعوته لله مثل محمد ﷺ، ولا أصدق نية منه ﷺ، الذي عرضت عليه الدنيا بحلاوتها ونضارتها، وكنوزها، فأعرض عنها، واكتفى برضا ربه ﷻ.

هل يمكن أن يكون رجل في زهد محمد ﷺ غير مخلص لقضية ربه، أو أنه كان يسعى بدافع من الأنانية، هذا ما لا يمكن أن يقرَّه عقل منصف®.

® في **"إخلاص النبي ﷺ في عبادته لله ﷻ وإيمانه بدعوته"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السابعة، من الجزء الثاني (أخلاق النبي ﷺ). والوجه الأول، من الشبهة السادسة عشرة، من الجزء الرابع (دعوة النبي ﷺ وتبليغه الوحي). وفي **"مرحلتا دعوة النبي ﷺ"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثامنة، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته). وفي **"شهادة منصفي الغرب بكمال عقل النبي ﷺ وتسامحه وصدقه وإخلاصه"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الرابعة، من الجزء الثاني (أخلاق النبي ﷺ). والوجه الأول، من الشبهة السادسة عشرة، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته). والوجه الثاني، من الشبهة السادسة والعشرين، من هذا الجزء.

١. الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، الحسيني الحسيني معدي، دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص١٢٢، ١٢٣.

٢. محمد المثل الأعلى، توماس كارليل، ترجمة: محمد السباعي، مكتبة النافذة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م، ص٧٠.

الخلاصة:

- إن العقل والواقع يرفضان رفضًا تامًّا أن تكون رسالة محمد ﷺ، قد قامت على قوة اعتقاده أو حماسه للدعوة فحسب؛ لأن البشرية لم تشهد مثل هذه الدعوة التي قامت على مجرد اعتقاد صاحبها، أو حماسته لدعواه، فما بالنا بدعوة الإسلام التي ملأت بنورها مشارق الأرض ومغاربها.
- إن محمدًا ﷺ قد اعتمد في المقام الأول على تأييد الله له ونصره في كل مراحل دعوته، والأمثلة على ذلك كثيرة لا حصر لها، يضيق المقام هنا عن ذكْرها مثل تأييد الله له أثناء هجرته، ونصرته بالريح الشديدة في غزوة الأحزاب، واستجابة الله له في كل ما دعاه، وكل هذا دليل جليٌّ على صدق نبوة محمد ﷺ.
- لقد كان النبي ﷺ متفردًا في عزيمته، وكان أشرف الناس مقصدًا وأخلصهم نية لله، فقد كانت حياته كلها لله، وحماسته من أجل الله، لا ينسب لنفسه أي فضل، مفتخرًا دائمًا بفضل الله عليه، فقد كان في جميع شئونه لا ينظر إلا إلى الله، ولا يستمد المعونة إلا من الله، ولا يرى لنفسه ولا لغيره حولًا ولا قوة؛ لهذا حق لنا أن نقول: إن البشرية لم تشهد رجلًا أخلص لله مثل محمد ﷺ هذا الإخلاص الذي لم يشغله عنه أي شيءٍ آخر، أو أية قضية أخرى، حتى ولو كانت حاجة نفسه وأهله ﷺ.

الشبهة الخامسة عشرة

الزعم أنه ﷺ كان مجرد إنسان فاضل ولم يكن نبيًّا (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتقولين أن النبي ﷺ كان مجرد إنسان فاضل، مبرهنين على ذلك بما ادَّعوه من أن دلائل صدق نبوته التي أوردها العلماء لا تفيد اليقين؛ لأن أكثرها جاء برواية آحاد، ثم إن الصفات التي تَذْكر محاسن أحواله لا تدل على نبوته ﷺ؛ إذ إن أفاضل الحكماء في الأخلاق والمحاسن قد يتَّصفون بهذه الصفات، مما يجعلهم قدوة للناس في الأخلاق والعلم. هادفين من وراء ذلك إلى تجريده ﷺ من خصوصية نبوته وما تقتضيه من خصوصية صفاته؛ وبذلك يتسنى لهم التشكيك في نبوته جملة وتفصيلًا.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لقد ورد كثير من الأدلة على صدق نبوة محمد ﷺ في القرآن الكريم، وهو متواتر وقطعي الثبوت، فكيف يقال إنها أخبار آحاد، كما أن القرآن نفسَه أكبر دليل على صدق نبوته ﷺ.

٢) لقد بلغ النبي ﷺ ذروة الفضائل والمحاسن والخصال الحميدة، مما يؤكد أنه لم يكن مجرد إنسان فاضل فحسب، بل كان نبيًّا مرسلًا من عند الله ﷻ.

٣) في الدستور الذي بُعِثَ به النبي ﷺ، وفي السمات التي وُسِمَ بها ما يشهد له بالنبوة، وإلا فهل يجد الأدعياء في جَعْبَتِهم من المصلحين الفضلاء من له ما للنبي ﷺ

(*) التبشير العالمي ضد الإسلام، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة النور، القاهرة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

من الصفات؟! وإذا كانت الإجابة بالنفي، فهل من المنطق أن نسوِّي في الحكم بين متفاوتين في المؤهلات والسمات؟!

التفصيل:

أولا. القرآن الكريم أكبر دليل على صدق نبوته ﷺ:

من استعرض آيات القرآن الكريم يجد التلازم الواضح بين التوجيهات الإلهية، وبين صاحب الرسالة محمد بن عبد الله ﷺ، ويجد أيضًا التنويه في مناسبات عديدة بهذا النبي وما خصَّه الله ﷻ به من أنواع التكريم الإلهي، وبيان مكانته لديه، ليظل هذا النبي عنوان الرسالة، وشعلة الحق، وقدوة الأمة والبشرية جمعاء، ونذكر هنا بعضًا من دلائل نبوته ﷺ مما ورد في القرآن:

- **قصة الإسراء والمعراج:**

وردت في مطلع سورة الإسراء وسورة النجم، وقد بيَّنت القصة عظيم منزلة النبي محمد ﷺ وقربه من ربه، ومشاهدته العجائب، قال الله ﷻ: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ (الإسراء)، وقال ﷻ أيضًا: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾(النجم).

إن العروج بالرسول ﷺ بجسده وروحه معًا في جزء يسير من ليلة واحدة، آية عظيمة دالة على صدق نبوته وتأييد الله له، وهذه معجزة واضحة لهذا النبي ﷺ لا يتحصَّل عليها إلا رسول، ولا يتسنَّى لرجل فاضل مهما بلغت درجته أن يرى ما رآه النبي ﷺ؛ فقد رأى في الطريق بين مكة والقدس، وفي السماوات العلا أشياء كثيرة، مثل رؤية الأنبياء ومخاطبتهم، وعجائب الملكوت، وغرائب الجبروت، ومشاهدة الملائكة المقربين، وحملة العرش، ورؤية العرش المحيط بالسماوات والأرضين، مع العلم أن ما بين الأرض وسماء الدنيا مسافة خمسمائة عام، وكذا ما بين كل سماء وسماء، وكذا سُمْك كل سماء، وكون جميع السماوات والأرضين بجنب الكرسي كحلقة في فلاة، وهو بجنب العرش أيضًا كحلقة أخرى في فلاة. والله قادر على جميع الممكنات، فلا مجال إذن لإنكار مثل هذه الحركة السريعة للنبي ﷺ، بل إنها تثبت رسالته ونبوته وعظمته وقدره ﷺ.

- **عصمة النبي ﷺ من أذى الناس:**

نجد ذلك في قول الله ﷻ: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (المائدة: ٦٧)، أي: يحفظك من تعرُّض أعدائك لك، ومن أمثلة عصمة الله لنبيه قبل نزول آية العصمة إنجاؤه من أذى كفار قريش في حادث الهجرة، ومكرهم به حين اتفقوا على قتله بضربة واحدة بالسيوف من أشد فتيانهم، ليشكر نعمة ربه بخلاصه من مكرهم به واحتيالهم عليه، فقال الله ﷻ: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الأنفال).

وقد نزلت بعد تآمر المشركين في دار الندوة في مكة على قتل النبي ﷺ بمشاركة القبائل العربية.

لقد نجَّى الله تعالى نبيه ﷺ من هذه المؤامرة، وقد وصف ذلك في كتابه العزيز: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ

بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (التوبة).

لقد دفع الله عن رسوله ﷺ أذى قومه القرشيين، بعد اتفاقهم الجماعي على قتله، فأخذ الله أبصارهم وأعماهم، وغفلوا عن البحث عنه في غار بأعلى جبل ثور، يبعد عن يمين مكة مسيرة ساعة.

- **إعطاؤه في الجنة نهر الكوثر:**

قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾ (الكوثر) أعلمه الله ببعض ما أعطاه، والكوثر: حوضه، لما رواه أنس أن النبي ﷺ قال: "أتدرون ما الكوثر؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: نهر وَعَدَنِيه ربي، عليه خير كثير، هو حوضي تَرِدُه[١] أمتي يوم القيامة"[٢].

- **تنزيل القرآن والفاتحة:**

قال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (الحجر)؛ أي: أعطيناك علم ما اشتمل عليه القرآن من قصص ومواعظ فيها البلاغة والإعجاز، والثناء على الله بما هو أهله وغير ذلك. وإن هذه الميزات لنبينا ﷺ تجعله خاتم الأنبياء وإمام الرسل، وتجعل الشهادة برسالته كالشهادة بوحدانية الله تعالى[٣].

هذا وإن القرآن الكريم قد ثبت ثبوتًا قطعيًّا يقينيًّا، إذ نُقل إلينا عن طريق التواتر، ولم يكن من تأليف أحد من الخلق، ولا نظْمه، فضلًا عن أن يكون من تأليف محمد ﷺ أو من نظمه، وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، إذ حكم العادة البشرية جارٍ على أن من لم يقرأ ولم يكتب، ولم يجلس بين يدي معلم قط، يستحيل في حقه أن يأتي بمثل القرآن من نفسه، لا سيما وأن النبي ﷺ قد قضى أربعين سنة من عمره المبارك لم يتكلم فيها بوحي، ولم ينطق فيها بقرآن قط[٤].

وبناء على ما سبق، فإنه لا يجوز لنا ولا لأحد ـ ألبتة ـ أن يعتبر القرآن الكريم أخبار آحاد أو ظني الثبوت، وإلا لما صُدِّقت جميع الكتب والصحف المنزلة من عند الله تعالى، يقول المستشرق بودلي: "بين أيدينا كتاب فريد في أصالته وفي سلامته، لم يشك في صحته كما أُنزل، وهذا الكتاب هو القرآن"[٥].

ثانيًا. تكامل أخلاق النبي ﷺ يؤكد نبوته:

إنك قد تجد أناسًا يتقدمون الصفوف في بعض المسائل، ولكنك تجدهم في أواخر الصفوف في مسائل ومجالات أخرى، فمن أعظم دلائل النبوة الأخلاق الحسنة والفضائل العليا، فشتان بين الدَّعِيِّ الكاذب والنبي الصادق، فالدعي الكاذب تفضحه أخلاقه وتكشفه جرائمه، أما النبي الصادق فتلوح عليه علامات الصدق وتزينه الأخلاق الحسنة ويجافيه سيئها ـ فإن رسول الله ﷺ كان أحسن الناس خُلُقًا، جمع الله له من أوصاف المدح والثناء ما تفرَّق في غيره، صانه الله

---

١. تَرِدُه: تشرب منه.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب حجة من قال: البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة (٩٢١).

٣. شمائل المصطفى ﷺ، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٥٧: ٦٣ بتصرف.

٤. عقيدة المؤمن، أبو بكر جابر الجزائري، دار الكتب السلفية، القاهرة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص١٨٦.

٥. المختصر القويم من أدلة نبوة الرسول الكريم، د. وليد نور، مكتبة الصفا والمروة، الإسكندرية، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٢٦.

تعالى وحفظه من أدنى وصف يعاب بـه صـاحبه، فلـم يستطع أعداؤه الذين يتربصون بـه، ويقفـون في طريـق دعوته، مؤذين له محذِّرين منه تحصيلَ شيء يعيبونه مـن أخلاقه، وأنَّى لهم ذلك وقـد شـهدوا ـ هـم أنفسـهم ـ بصدقه وأمانته، وهما الغاية من الأخلاق[1].

وانطلاقًا مما سبق من أن الصدق والأمانة هما الغايـة في الأخلاق؛ فإن "من أعظم دلائل نبوة رسـول الله ﷺ أن أعداءه شهدوا له بالصدق والأمانة، فها هـو ذا أبـو سفيان، وكان يوم لقائه مع هرقل على الشرك والعـداوة لرسول الله ﷺ يشهد أنه ﷺ لم يكذب قط في حياته، فـما كان جواب هرقل على هذه الشهادة إلا أن قال: ما كـان ليترك الكذب على الناس ليكذب على الله" [2].

ولقد كان المشركون يعلمـون يقينًا صـدق رسـول الله ﷺ، وقـد عـاش بيـنهم أربعـين عامًـا قبـل البعثـة، وتعامل معهم، وتعاملوا معه حتى لقبوه بالأمين.

ولا يفوتنا في هذا الشأن قولهم له في أول دعوته لهـم حين جمعهم، "فقـال: أرأيـتكم لـو أخـبرتكم أن خـيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنـتم مُـصَدِّقِيّ؟ قـالوا: نعم، ما جرَّبنا عليك إلا صدقًا" [3].

ولما قال الأخنس بن شريق لأبي جهل: "يا أبا الحكم أخـبرني عـن محمـد، أصـادق هـو أم كـاذب؟ فقـال: "ويحك، والله إن محمدًا صادق وما كذب محمد قط"[4].

فهذا أبو جهل أكبر أعداء النبي ﷺ يقر بأخلاقـه ﷺ وصدقه، وما حمله على عداوته إلا الحسد والبغـي، كـما اعـترف هـو قـائلًا: "تَنازَعنـا نحـن وبنـو عبـد منـاف الشرف؛ أطعَمُـوا فأطعمنـا، وحملـوا فحملنـا وأَعْطَـوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الـوحي مـن الـسماء، فمتـى نـدرك هذه؟ والله، لا نؤمن به أبدًا، ولا نصدقه" [5].

ومن عجائب الأخبار أن سعد بـن معـاذ رضي الله عنه أخـبر أُميَّة بن خلف أن الرسول ﷺ زعم أنه قاتله، فقال أمية: إيايَ، قال: نعم، فقال أمية: والله، مـا يكـذب محمـد إذا حدَّث، فرجـع إلى امرأتـه، فأخبرهـا فقالـت: والله مـا يكذب محمد، فلما كانوا يـوم بـدر أراد عـدم الخـروج، فقال له أبو جهل: إنك من أشراف الوادي، فـسِرْ يومًـا أو يومين فسار معهم، فقتله الله[6].

فهـؤلاء أشراف مكـة قـد حـاربوا رسـول الله ﷺ وطاردوه، ورغم ذلك لم يستطيعوا أن ينكـروا أخلاقـه وصدقه ﷺ، ولـو كـان رسـول الله ﷺ كاذبًـا مـا وجـد أعداؤه مطعنًا فيه أفضل من ذلك[7].

ومما سبق يظهر لنا بجلاء أن كثيرًا من أهل زمانه ﷺ

---

١. المرجع السابق، ص١٨٩ بتصرف.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سـورة آل عمـران (٤٢٧٨)، وفي مواضـع أخـرى، ومـسلم في صـحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقـل يـدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتـاب التفسير، بـاب سـورة الشعراء (٤٤٩٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيـمان، بـاب في قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (الشعراء) (٥٢٩).

٤. أخرجه ابـن جريـر في تفسيره (١١/ ٣٣٣)، تفـسير سـورة الأنعام، الآية (٣٣).

٥. أخرجه محمد بن إسحاق في السيرة، الجزء الرابع من عذب في الله بمكة من المؤمنين، ومن طريقه البيهقي في دلائل النبوة، جماع أبواب المبعث، باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله تعالى من الإعجاز.

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، بـاب علامـات النبوة في الإسلام (٣٤٣٣)، وفي موضع آخر.

٧. المختصر القويم من أدلة نبوة الرسول الكريم، د. وليـد نـور، مرجع سابق، ص١٩٥ : ١٩٨ بتصرف.

قد شهدوا بأخلاقه وصدقه، بل قد جاءت هذه الشهادة من أعدائه، بل من أعتى وأعدى أعدائه، والفضل ما شهدت به الأعداء.

ولا شك أنهم عدد كبير وليسوا آحادًا، وذلك عندما دعاهم ﷺ أول مرة، وكذلك عندما سألهم هرقل، فقد كانت قافلة تجارية كبيرة من قريش، فأجلسهم هرقل خلف أبي سفيان، فشهد شهادة الحق وهو يومئذ على شركه، ولم يكذبه أحد منهم. فإذا كان أعدى أعداء النبي ﷺ قد اعترف بأخلاقه وصدقه، فما بالك بمن خلفه، ناهيك عن أقوال الصحابة واعترافهم بذلك، ناهيك أيضًا عن أقوال كثير من أهل الكتاب، فكيف يقال بعد ذلك إنها أخبار آحاد؟

إنا نرى القائد في ساحات القتال، وفي فنون الحرب مهما بلغ في مهاراته هذه فإنه لا يكاد يبلغ درجة إنسان رحيم في ساحات أخرى، كالشفقة ورقة العاطفة والفهم، بل لكونه معتادًا على القتل فلن يكون إنسانًا رحيمًا في معظم الأحوال؛ ذلك لأن عواطفه وأحاسيسه قد فقدت حساسيتها ودقتها من كثرة ما اقترف من أعمال القتل، فلا يشعر بأدنى عاطفة وهو يقوم بقتل إنسان، وقد يكون هناك سياسي ناجح في ميدان السياسة، ولكنك قد تراه مبتعدًا عن الصدق بنسبة نجاحه هذا، وقد لا يحترم حقوق الناس، أي أنَّ ابتعاده عن الصدق، وعن المروءة بنسبة نجاحه في ميدان السياسة ـ يكون أمرًا واردًا. وهذا يعني أن ارتفاعًا في ميدانٍ ما قد يستتبعه هبوط في ميدان آخر.

ولكنه ﷺ كان ذروة الكمال في جميع الميادين، فكيف يكون غيره ﷺ مساويًا له؟ كما تستطيع مشاهدة كيف أن الإنسان الذي افتتن بتيار الوضعية، فأصبح يجري وراء إجراء التجارب على كل شيء. وكيف أن الحياة الروحية والقلبية لمثل هذا الرجل لا تتجاوز خط الصفر، بل هناك أشخاص وصلوا بعقولهم إلى قمة إفرست، ولكنهم في حياتهم القلبية والروحية تراهم هابطين إلى مستوى قاع البحر الميت. فكم من شخص انساب عقله إلى عينيه فلا يرى شيئًا سوى المادة، يقف ذاهلًا أحمق أمام منطق الوحي، قد عميت عيناه عن رؤية الحقيقة.

من هذا الشرح الوجيز، يُعرف أن هناك أشخاصًا ينجحون في ساحات وميادين معينة، ولكنهم يفشلون في ساحات وميادين أخرى أكثر أهمية، أي أنَّ الصفات المتناقضة الموجودة في الإنسان تعمل إحداها ضد الأخرى، فعندما تتوسع صفة ما وتقوى يكون هذا ضد صفات أخرى، وعندما تنمو إحداها وتقوى، تضمر الأخرى وتضعف.

ولكن هذا الأمر غير وارد بالنسبة لرسول الله ﷺ؛ فهو إلى جانب كونه محاربًا عظيمًا كان صاحب شفقة عظيمة.. كان سياسيًّا ولكنه في الوقت نفسه صاحب مروءة كبيرة. وبينما كان يعطي أهمية للأمور الملموسة وللتجارب، فإنه كان ذروة في حياة الروح، وفي حياة القلب، ويمكن العثور على أمثلة كثيرة بهذا الصدد في معركة أحد، ففي تلك المعركة استشهد عمه حمزة رضي الله عنه وقد كان يراه شقيق نفسه، لم يستشهد فقط بل مُزِّق جسده تمزيقًا، كما مُزِّق جسد ابن عمته عبد الرحمن بن جحش تمزيقًا، وشُجَّ رأسه المبارك ﷺ، وكسرت أسنانه، وغطَّى الدم جسده الشريف.

وبينما يكثف أعداؤه الهجوم عليه جاهدين للوصول إليه لقتله، كان هذا الإنسان العظيم فوق كل عظمة

رافعًا يديه يبتهل إلى الله تعالى قائلًا: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" [1]، فما أعظم وما أروع هذه الشفقة في شخص يحاول أعداؤه قتله فلا يدعو عليهم، بل يبتهل لله تعالى أن يغفر لهم!!

إنه رسول الله ﷺ يردُّ السيئة بالحسنة، فما أعظمه من رسول دانت له القلوب بالمحبة، وظهرت عظمته، وتجلت رحمته فوق كل البشر، وبطل القول بأن هناك من يدانيه أو حتى يقاربه، لقد حاربه القوم بكل ما أوتوا من قوة، حتى فتح مكة. لم يبق في يد أعدائه أية وسيلة للإيذاء ولم يجربوها معه، ولم يوجهوها نحوه.. تأملوا كيف أنهم أخرجوه هو وأهله وأصحابه من بيوتهم إلى منطقة صحراوية معلنين عليهم المقاطعة، ومعلِّقين بنود هذه المقاطعة الشريرة على جدار الكعبة، وكانت تقضي بعدم التعامل معهم بيعًا وشراءً، وعدم التزوج من بناتهم أو تزويج البنات لهم، وقد دامت هذه المقاطعة ثلاث سنوات، حتَّى اضطروا إلى أكل العشب والجذور وأوراق الأشجار، حتى هلك منهم الأطفال والشيوخ من الجوع، دون أن تهتز منهم شعرة، أو تتحرك عندهم عاطفة رحمة، ولم يكتفوا بهذا بل اضطروهم لترك بيوتهم وأوطانهم والهجرة إلى أماكن أخرى بعيدة، ولم يدعوهم في راحة هناك؛ فبدسائسهم المختلفة سلبوا منهم طعم الراحة والاطمئنان، وفي معارك بدر وأحد والخندق اشتبكوا معهم في معارك ضارية، وحرموهم حتى من أبسط حقوقهم كزيارة الكعبة، وأرجعوهم إلى ديارهم بعد إبرام معاهدة ذات شروط قاسية.

ولكن الله ﷻ أنعم عليهم ففتحوا مكة، ودخلها رسول الله ﷺ على رأس جيش عظيم [2]. فكيف كانت معاملته لأهل مكة بعد كل هذا التاريخ المملوء عداوة وبغضًا؟ لقد كانت كما اعترف مشركو مكة أنفسهم، معاملة أخ كريم وابن أخ كريم.

فهل يمكن بعد كل هذا أن يُقال: إن محمدًا ﷺ كان إنسانًا عاديًّا غير مؤيَّد بالوحي؟ بالله عليك من يدانيه في عظمته؟ ومن يكون بجواره في حكمته وأخلاقه؟! ثم أين هذه الأخلاق، وفي قلوب مَنْ من البشر؟! لن تجد إلا جوابًا واحدًا: محمد رسول الله ﷺ ®.

ثالثًا. إن الدستور الذي بُعث به النبي ﷺ لخير شاهد على نبوته ﷺ في مقابل ما ادعاه بعضهم:

إن شريعة الإسلام المحكمة التي شملت ـ أقوالًا وأفعالًا ـ جوانب الحياة كافة من اجتماع وسياسة واقتصاد وحرب وسلام ـ لخير شاهد ـ لمن أراد أن يبصر ـ على صدق نبوته ﷺ، فلو كان ﷺ مجرد إنسان فاضل، أو مصلح فحسب ـ لما تناولت الشريعة التي جاء بها جميع جوانب حياة الإنسان، وترتيبها على هذا النحو المحكم الدقيق، الذي نوَّه به أعداء الأمة

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ ﴾ (الكهف: ٩) (٣٢٩٠)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد (٤٧٤٧).

٢. عظمة الفطنة في نبوة محمد ﷺ، محمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل، القاهرة، ط٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، ص١٢٧: ١٢٩.

® في **"صبر النبي ﷺ على إيذاء المشركين له وثباته على دينه"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثامنة، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته). وفي **"تسامح النبي ﷺ مع أعدائه وعفوه عند المقدرة"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة عشرة، من الجزء الثاني (أخلاق النبي ﷺ).

الإسلامية.

إن ما تعارف عليه الناس في شأن المصلحين أو الأخيار من بني الإنسان أمر واضح، وهو لا يتعدى ظهور هذا الإنسان الخيِّر أو المصلح في أزمة معينة أو مشكلة بعينها ليعالجها، ولم يذكر التاريخ أن هناك مصلحًا أو إنسانًا خيِّرًا قام من تلقاء نفسه بتحمل أعباء تنظيم البشرية كلها كما فعل محمد ﷺ.

هذا فضلًا عن جملة شارات اتسم بها النبي خاصة يعرفه بها الناس فيدركون أنه النبي المرسل، وهذا لا يتأتَّى لمصلح أو رجل فاضل، فَمَنْ مِنَ المصلحين والفضلاء وصل إلى ما حققه النبي ﷺ من الإصلاح ؟ لم يؤثر أن أحدًا من هؤلاء المصلحين - بالغًا من الإصلاح ما بلغ ومن الفضل ما بلغ - كان له ما كان للنبي المصطفى ﷺ.

ونحن نتوجَّه بالكلام لكل من يطعن في نبوة محمد ﷺ: إذا كنتم توقنون أن ثمة أُناسًا اتصفوا بأخلاق حسنة وخصال حميدة، لا تختلف في كثير أو قليل عن صفات النبي ﷺ؛ لكي تصلوا من ذلك إلى الزعم بأنه ﷺ مجرد إنسان فاضل وليس نبيًّا مرسلًا من قبل الله ﷻ فأتوا لنا باسم واحد فحسب من هؤلاء الذين ذكرتموهم، ولم تعيِّنوا لنا أسماءهم.

ثم هل أُثِرَ عن واحد من هؤلاء الكثيرين المزعومين - أَنْ شهد له أعداؤه قَبْلَ أصدقائه وأتباعه بالصدق والأمانة والأخلاق الفاضلة مثلما شُهد للنبي ﷺ بذلك؟! وهل أتى واحد من أولئك المزعومين بمعجزة واحدة من المعجزات التي أجراها الله ﷻ على يَدَي رسولنا ﷺ؟!

الخلاصة:

- القرآن الكريم أكبر دليل على صدق نبوته ﷺ وما خصه الله ﷻ به من أنواع التكريم الإلهي، وبيان مكانته لديه، لِيظلَّ هذا النبي عنوان الرسالة، وشعلة الحق وقدوة الأمة والبشرية جمعاء، والقرآن قطعي الثبوت ومتواتر وليس أخبار آحاد.
- ثم إن الأعداء قد شهدوا بأخلاق النبي ﷺ، وحديث هرقل مع أبي سفيان شاهد بذلك، وحديث النبي ﷺ إلى قومه أول مرة وقولهم له: "ما جربنا عليك كذبًا قط" شهد بذلك، وكذا أقوال الأتباع، وكثير من أهل الكتاب، فكيف يقال إن كُلَّ هذا أخبار آحاد ؟!
- ثم إن النبي ﷺ كان ذروة في جميع الأخلاق، ولم يكن يدانيه أحد، أو حتى يقترب منه في عظمته ونجاحه في جميع الميادين، على خلاف أي إنسان آخر قد يكون ناجحًا في جانب على حساب الهبوط في جانب آخر، أما محمد ﷺ، فكان غاية في العظمة وفي الأخلاق وفي كل ميادين الحياة، فمن يدانيه ﷺ؟!
- إن النور الذي جاء به ﷺ، والهدي الرباني الشامل لجميع أمور الدين والدنيا ليقطع بكونه ﷺ نبيًّا رسولًا ولم يكن مجرد إنسان فاضل. أما الأخيار من بني الإنسان فأدوارهم معلومة محددة، وهم يهبون لإصلاح خلل ما أو فساد من نوع معين تفشَّى في وقت معين، ولم يسطِّر التاريخ أن خيِّرًا أو مصلحًا، جاء لإصلاح شئون العالمين جميعًا.

الشبهة السادسة عشرة

ادعاء أنه ﷺ كان مجرد مصلح اجتماعي ولم يكن نبيًّا مرسلا(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين أن محمدًا ﷺ كان مصلحًا اجتماعيًّا فقط، مبرهنين على ذلك بقوله ﷻ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ (هود: ٨٨) متوهمين أنها على لسان محمد ﷺ، وأن هذه هي حقيقة دعوته ﷺ بنص كلامه وبدلالة الآية، وأنه ما وصل إلى ما وصل إليه - من كونه أعظم المصلحين في العالم - إلا بالدستور الإصلاحي الذي خرج على قومه به. ويهدفون من ذلك إلى تجريده ﷺ من نبوته، وقَصْر ما بُعث به على كونه دستورًا إصلاحيًّا اجتماعيًّا؛ بغية صرف الناس عن الإيمان بنبوته ﷺ وتشكيكهم في حقيقتها.

وجها إبطال الشبهة:

١) إن الإصلاح العام لكل ما في الكون من معتقدات وعبادات ومعاملات هو مهمة الأنبياء جميعًا، ومنهم محمد ﷺ خاتم النبيين، والآية التي استدلوا بها تتحدث عن موقف سيدنا شعيب مع قومه، لا عن رسول الله ﷺ، على أن إثبات الإصلاح لا ينفي النبوة، فإنه من غايات إرسال الأنبياء عامةً.

٢) لم يكن النبي ﷺ مصلحًا اجتماعيًّا فحسب؛ بل كان رسولًا بعثه الله لهداية البشر، ولو كان مجرد مصلح لقبل ما عرض عليه قومه من الملك والزعامة واتخذها وسيلة تمهِّد له الطريق إلى الإصلاح الذي ينشده.

التفصيل:

أولا. الإصلاح هو مهمة الأنبياء جميعًا:

لقد بعث الله الأنبياء جميعًا ليصلحوا ما أفسده الناس من الشرك والضلال وعبادة غير الله ﷻ، فكل نبي عندما يبعث في قومه فإنما يبعثه الله عندما يرى أن الأرض قد فسدت وساء حالها، وأن الناس تركوا عبادة الله وعبدوا غيره، فيبعث النبي ليذكرهم بعبادة الله ﷻ، ويدلهم على الطريق المستقيم الذي حدده الله لعباده في الأرض، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ (الذاريات).

وإذا تتبعنا أخبار الأنبياء والرسل - عليهم السلام - مع أقوامهم نجد أنهم إنما أرسلوا لهداية الناس وتوجيههم إلى الطريق المستقيم، يقول سبحانه في حق قوم نوح: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝٢٩﴾ (هود)، فقد وصف الله ﷻ قوم نوح عليه السلام بالجهل؛ لأنهم لم يفهموا المهمة التي جاء من أجلها سيدنا نوح عليه السلام من الدعوة إلى الله والإصلاح في الأرض، ولكنه وجد منهم الجهل والغباء.

وإذا ما تتبعنا قصة سيدنا هود عليه السلام نجد أن الله ﷻ أرسله لعبادة الله وحده، ومنع قومه من الإجرام في الأرض، قال ﷻ: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا

(*) الفكر الاستشراقي: تاريخه وتقويمه، د. محمد الدسوقي، دار الوفاء، مصر، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م. السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال الجبري، مرجع سابق.

مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (هود)، ثم قال في نهاية الآية التالية: ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (هود).

فقد وصفهم الله ﷻ بالافتراء تارة، وبالإجرام تارة أخرى، وأنه إنما أُرسل إليهم ليصلح حالهم ويردهم إلى عبادة الله ﷻ؛ لذلك أخبر الله عن قوم سيدنا صالح أنه أمرهم أن يعبدوا الله ﷻ ولا يشركوا به شيئًا، فقال ﷻ: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ (هود).

فقد أمرهم سيدنا صالح بأن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وأن يستغفروا من الذنوب والمعاصي، ويتوبوا إلى الله ﷻ فإنه قريب مجيب، فهو إنما جاء لإصلاح أمته من الشرك، والفساد، وأمرهم بالاستغفار من هذه الذنوب والمعاصي، ثم جاء أمر الإصلاح إلى سيدنا شعيب في تلك الآية الكريمة، قال ﷻ: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾ (هود: ٨٨).

وفي هذه الآية نجد عزم سيدنا شعيب على إصلاح ما أفسده قومه في الأرض من الشرك ونقصان الميزان، إلا أنهم لم يستجيبوا لما أمرهم به، وقد أمرهم بمثل ما أمر الرسل قبله أقوامهم من التوبة والاستغفار مما اقترفوه من ذنوب، ولكنهم قوم يجهلون.

وهكذا كانت رسالة كل الأنبياء - عليهم السلام - واحدة، وهي إصلاح الكون من الشرك والفساد، والمعاصي، وإثبات العبودية لله ﷻ، وقد جاء نبينا ﷺ لإصلاح قومه وسائر الأمم من الأمراض التي تفشّت فيهم، وتركهم عبادة الله وحده، وعبادتهم للأصنام، وفعلهم الفواحش والكبائر، يقول ﷻ: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾ (الأحقاف)، فالأنبياء والرسل إنما بعثوا للهداية والإصلاح ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

ومن ثم فإن مهمة الإصلاح لا تتنافى بحال من الأحوال مع النبوة؛ لأن الأنبياء جميعًا كانوا يسعون للإصلاح، فكل نبي مصلح، ولكن ليس كل مصلح نبيًّا، فالإصلاح هدف من أعظم أهداف الرسالات والنبوات، ولكنه ليس الغاية، فالغاية هي تعبيد الناس لربهم وطلب مرضاته، وإقامة المجتمع الفاضل هي الوسيلة الموصلة لهذه الغاية، ولا يصح في رسالة النبي أن تصبح الوسيلة غاية.

ثانيًا. محمد ﷺ رسول من الله وليس مصلحًا اجتماعيًّا فحسب:

في البداية نود أن نوضح بأننا لا نعترض بحال من الأحوال على وصف النبي ﷺ بالمصلح الاجتماعي، فلا شك أن محمدًا ﷺ هو أعظم المصلحين الذين شهدتهم البشرية، إذ استطاع أن يخرج الناس من ظلمات الشرك والوثنية إلى نور الإيمان والوحدانية، وأن يعبر بهم من الجهل والتخلف والفوضى إلى العلم والتمدن والحضارة، ولكن الذي نعترض عليه ولا نقبله بحال من الأحوال، هو القول بأن محمدًا ﷺ كان مصلحًا اجتماعيًّا فحسب لا نبيًّا مرسلًا، وذلك لأن دور المصلح الاجتماعي يقتصر على إصلاح مجتمعه الذي يعيش فيه فحسب، وفي الزمان الذي يعيش فيه، بينما كان دور النبي ﷺ هو إصلاح المجتمعات جميعًا، في كل زمان ومكان، وعلى جميع المستويات العقائدية، والتشريعية،

والاجتماعية، والاقتصادية... إلخ.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن المصلح الاجتماعي يعتمد في دعوته على تنظيم علاقة الفرد بنفسه، وعلاقته بالمجتمع، بينما اعتمد النبي ﷺ في دعوته على تنظيم علاقة الفرد بخالقه، وهي التي ينتج عنها إصلاح علاقته بنفسه والمجتمع، ومن ناحية ثالثة فإن المصلح الاجتماعي يهدف إلى إصلاح أوضاع طبقة معينة من المجتمع تكون أوضاعها متدهورة إلى حدٍّ ما، ويعتمد على أهل هذه الطبقة في ثورته ولإصلاح المجتمع وتعديل أوضاعه.

والمتأمل في وضع الجزيرة العربية وقت البعثة المحمدية، يستنتج أنه لا يمكن أن تحدث ثورة، أو تنجح دعوة لتغيير المجتمع؛ وذلك لأن الحالة الاجتماعية في قريش لم تكن تحتاج للإصلاح الاجتماعي فقط، ولكن إصلاح شامل في عامة المجالات، ووضع قريش الداخلي الذي يحتاج إلى تغيير في نوعين من أصناف المجتمع هما: العبيد، والنساء.

وإذا تأملنا وضع العبيد في الجزيرة العربية، استنتجنا أنه لا يمكن أن تحدث أي تغييرات في وضعهم الاجتماعي نظرًا للأسباب الآتية:

١. جميع العبيد كانوا يملكون فرصة للتحرر عن طريق السعي إلى إرضاء أسيادهم، ناهيك عن أن كثيرًا منهم يرتبطون باتفاق مع أسيادهم على الحرية، ومحاولة العصيان أو التمرد أو الثورة سوف تلغي هذا الاتفاق المبرم على الحرية مع أسيادهم.

٢. إن سفر العبيد مع أسيادهم التجار يجعلهم يشاهدون ويعاينون أشكالًا من المعاملة السيئة للأسياد من غير العرب لعبيدهم، وهذا يعطي العبيد نوعًا من الرضا عن أسيادهم ذوي المعاملة المقبولة بالنسبة إليهم.

٣. إن عقوبة العبد الآبق[1] هي القتل، وهو عقاب يمنع التفكير في محاولة الهرب في نظر العبيد.

٤. إن العبد المحرَّر يطمح في موالاة القبيلة والعائلة التي حررته برضا منها، ودون إكراه نظرًا لحاجته إلى مصاهرتهم، وتنشئة أبنائه بينهم، والانصهار في تلك القبيلة.

مما سبق يتبين أن العبيد في الجزيرة لم تتفاعل ظروفهم، ولم يُدفعوا إلى الإحساس بالاضطهاد والظلم الذي يدفعهم إلى الثورة والعصيان، ولو أن محمدًا ﷺ دعا إلى الثورة أو إلى التحرير من رِقِّهم على رغم أنوف ساداتهم لرفض العبيد دعوة محمد ﷺ.

أما وضع المرأة في الجزيرة العربية فقد كان وضع الافتخار والاعتزاز، إذ إن العربي يفتخر بنسبه الشريف إلى أمه، كما يفتخر بنسبه الشريف إلى أبيه، وإن سبي امرأة حرة قد يؤدي إلى إشعال الحرب بين القبائل المتحالفة، ناهيك عن أن أبناء المرأة المسبية يلحقهم العار إلى الأبد.

هذا وقد منح العرب نساءهم حق اختيار الزوج، فلا يحق لعربي إكراه بناته أو شقيقاته على الزواج بمن لا يرغبن به، كما أنه ظهر من النساء من مارسن التجارة أمثال خديجة ـ رضي الله عنها ـ وقد منح العرب للمرأة حق التملك، وحق الاحتفاظ بنسبها وحق التعلم، وحق اقتناء الجواري، وحق التفريق إذا أرادت ترك زوجها لأسباب مقبولة، كما أعطى العرب المرأة حق

---

١. الآبق: الخارج عن طاعة سيده.

تكرار الزواج للمطلقة، وحق إبداء الرأي في أمور القبيلة العامة.

وعلى الجملة فقد كانت النساء العربيات يتمتعن بوضع اجتماعي مقبول، إن لم يكن ممتازًا مقارنة بوضع النساء عند بقية الشعوب، فعلى سبيل المثال عقد الفرنسيون اجتماعًا ليقرروا إذا كانت المرأة إنسانًا أم لا؟ وبعد نقاش قرر المجتمعون أن المرأة إنسان، ولكنها مخلوقة لخدمة الرجل، وكان ذلك في الفترة نفسها التي نتحدث عنها عن وضع المرأة عند العرب.

ولو كانت استهدفت دعوة النبي ﷺ تحرير النساء أو إطلاقهن لرفضت النساء دعوته واتباعه[1].

فكيف يكون النبي ﷺ مجرد مصلح اجتماعي؟! وما الثورات التي قام بها لإصلاح هذا المجتمع؟! وما الداعي إلى القيام بمثل هذه الثورات؟ إنما كان يدعو إلى عبادة الله وحده، وترك الشرك والظلم والباطل، ثم تلا ذلك في مرحلة أخرى بعض التشريعات التي أبقت على بعض عادات قريش، وبعضها الآخر قامت الشريعة بتغييره وتبديله للأفضل.

ثم إن النبي ﷺ قد آمن به كل فئات المجتمع، فإذا جاز لنا تقسيم المؤمنين برسالة التوحيد، فإننا لا نجد من المؤمنين طبقة واحدة فقط استجابت لدعوة التوحيد دون غيرها من الطبقات، فلقد كان من أوائل المسلمين:

١. **من طبقة التجار**: أبو بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وسعد بن أبي وقاص... فماذا يستفيد التجار من الإسلام؟

٢. **من طبقة السادة**: عمر بن الخطاب، وحمزة بن عبد المطلب، وسعيد بن زيد العدوي، والأرقم بن أبي الأرقم.. فماذا يستفيد السادة من الإسلام؟

٣. **من طبقة الموالي**: صهيب الرومي، وعمار بن ياسر، وزيد بن حارثة، فماذا أراد الموالي من الإسلام؟

٤. **طبقة نساء الموالي**: سمية والدة عمار بن ياسر، استشهدت تحت التعذيب رافضة الارتداد عن الإسلام، فلماذا دخلت في الإسلام؟

٥. **من طبقة أشراف النساء**: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت الخطاب، وأم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية، وأم سلمة، فلماذا دخل هؤلاء النسوة في الإسلام؟

٦. **طبقة جواري النساء**: أم عبيس، وزنيرة، والنهدية وبنتها، ... فلماذا تدخل الجواري في الإسلام؟

٧. **طبقة العبيد**: عامر بن فهيرة، وبلال بن رباح، وخباب بن الأرت، فلماذا دخل العبيد في الإسلام؟

٨. **طبقة رعاة الأغنام**: عبد الله بن مسعود، وأبو ذر الغفاري، وأخوه أنيس الغفاري، فلماذا أسلم هؤلاء الرعاة؟

لقد آمنت كل هذه الفئات بدعوة محمد ﷺ؛ لأنها تدعو إلى التوحيد فحسب، فلقد كان نتيجة إسلام التجار أن قاطعت قريش شراء بضائعهم، وكان نتيجة إسلام السادة تسفيه عقولهم، وكان نتيجة إسلام المولَى صهيب الرومي سَلْب ماله الذي ورَّثه إياه سيده، بينما كانت عقوبة ياسر العنسي وزوجته سمية التعذيب حتى الموت، وعقوبة أشراف النساء عزوف قريش عن مصاهرتهن، وعقوبة الجواري والعبيد التعذيب،

١. قوانين النبوة، موفق الجوجو، مرجع سابق، ص٦٤١: ٦٤٣ بتصرف.

وكانت قريش تهدف من وراء هذه العقوبات أن يرتد هؤلاء المؤمنون عن التوحيد إلى الشرك، لكن كل هؤلاء رفضوا الارتداد إلى الشرك، وثبتوا على التوحيد.

وهكذا يتضح أن محمدًا ﷺ لم يكن مصلحًا اجتماعيًا، ولا غايته تحرير العبيد، ولا إنصاف المرأة، ولا إزالة الطبقات، ولا توزيع الثروة، بل كان داعيًا إلى الله وإلى توحيده فقط. لكن غرسة التوحيد ما لبثت أن أثمرت تحريرًا للعبيد، وإكرامًا للمرأة، وإتمامًا لمكارم الأخلاق، وبناء لدولة العدل والحق والخير[1].

ثم لو كان النبي ﷺ يسعى من وراء دعوته إلى الإصلاح الاجتماعي، ولم تكن دعوته هذه عن عقيدة ورسالة كُلِّفَ ﷺأن يبلغها للناس كافة، لو كان الأمر مجرد إصلاح اجتماعي فقط، لكان الأمر أيسر ما يكون وأهون ما يكون؛ فقد عرضوا عليه الملك والجاه والسلطان في مقابل أن يترك دينه أو حتى يقلع عن سب آلهتهم وتسفيه أحلامهم، ولكنه ﷺ لم يكن له غرض آخر غير أداء رسالته وتبليغها إلى الناس كافة، وهي عبادة الله وحده وترك عبادة ما دونه ﷻ وإقامة المجتمع المسلم على منهاج الله وحده، ولن تكون الثانية إلا بعد تحقيق الأولى، فقد روى أصحاب السِّير أن قريشًا اتبعت مع النبي ﷺ سياسة المفاوضات بعدما فشلت سياسة التعذيب والاضطهاد له ولأصحابه، وذلك ضمن خطتهم للقضاء على دعوة الإسلام أو إثناء النبي ﷺ عن المضي في سبيل دعوته.

ومن ذلك أن عتبة بن ربيعة جاء إلى رسول الله ﷺ، وجلس إليه وكان مما قال له: إنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعِبْتَ به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها، ولعلك تقبل منها بعضها، فقال رسول الله ﷺ: "قل يا أبا الوليد أسمع"، قال: يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئت من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد شرفًا سوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا[2]... إلخ. فلو كان هدف النبي ﷺ الإصلاح الاجتماعي الذي ينشده من خلال الملك والجاه والمال والسلطان الذي سوف يتمتع به، فلماذا يتأخر عن تحقيقه وقد تيسرت كل السبل لذلك؟

ثم إن أشراف قريش عادوا فكرروا المحاولة التي قام بها عتبة بن ربيعة، فذهبوا إليه مجتمعين وعرضوا عليه الزعامة والملك، فقال رسول الله ﷺ: "ما بي ما تقولون. ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولًا، وأنزل عليَّ كتابًا، وأمرني أن أكون بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم" [3].

ومن هذا يتضح لنا حقيقة الدعوة التي قام بها رسول الله ﷺ وتفصلها عن كل ما قد يلتبس بها من

---

١. انظر: المرجع السابق، ص٦٤٨: ٦٥١.

٢. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، مرجع سابق، ص١٠٦.

٣. فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الدعوة الإسلامية، مصر، ط٧، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص٨٩.

الأهداف، والأغراض التي قد يضمرها في أنفسهم عادةً أرباب الدعوات الجديدة، والمنادون بالثورة والإصلاح، فهل كان النبي ﷺ يضمر من وراء دعوته الوصول إلى ملك؟ أو كان يضمر الوصول إلى مستوى رفيع من الزعامة أو الغنى؟

هذه الاحتمالات وسائل قد يتذرع بها محترفو الغزو الفكري وأعداء هذا الدين؛ ولكن يا لأَسْرارِ الحياة العظيمة التي هيأها رب العالمين لرسوله! لقد ملأ الله تعالى حياة رسوله بالمواقف والمشاهد التي تقطع دابر كل احتمال، وتقطع السبيل إلى كل وسواس، وتدع أرباب الغزو الفكري حيارى في الطريقة التي ينبغي أن يسلكوها في حربهم الفكرية.

كان من جليل حكمة الله تعالى أن يقوم مشركو قريش بسلسلة من المفاوضات مع رسول الله ﷺ بعد أن صوروا في أنفسهم كل هذه الاحتمالات وهم أدرى الناس بطبيعة دعوته والغاية البعيدة من رسالته، وبأنه لن ينزل عند شيء من عروضهم، ولكن هكذا أرادت الحكمة الإلهية حتى ينطلق التاريخ بتكذيب كل من سيأتي من محترفي التشكيك والغزو الفكري مع الزمن.

لقد سخَّر الله من قبلهم عتبة بن ربيعة وأمثاله، محترفي هذه الدوافع والآمال ووضعها بين يدي نبينا محمد ﷺ لتكون قريبة سائغة، فلماذا لم يَلِن الرسول ﷺ لهم، ولم يتحول إلى هذه الغنيمة التي سيقت إليه ما دام أنها الدافع له من وراء رسالته ودعوته ﷺ كما يزعمون[1] ؟!

الخلاصة:

- إن مهمة الأنبياء جميعًا هي إصلاح ما أفسده الناس من الشرك والضلال، فكل نبي عندما يُبعث في قومه، فإنما يبعثه الله تبارك وتعالى عندما يرى أن الأرض فسدت وساء حالها، فلا عجب أن يبعث الله ﷻ محمدًا ﷺ لإصلاح قومه من الأمراض التي تفشَّت فيهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ومن الشرك والوثنية إلى الإيمان والتوحيد، وعليه فلا يوجد أي تعارض بين النبوة والإصلاح؛ لأن كل نبي يكون مصلحًا.
- لا يمكن أن نقبل بحال القول بأن دور محمد ﷺ كان مقتصرًا على الإصلاح الاجتماعي فحسب؛ وذلك لأن المصلح الاجتماعي يهدف إلى إصلاح مجتمع معين في فترة معينة، ويعتمد في دعوته على تنظيم علاقة الفرد بنفسه وعلاقته بالمجتمع فحسب، لكن دعوة محمد ﷺ كانت دعوة لإصلاح أحوال الناس جميعًا في كل زمان ومكان، وقامت في الأساس على تنظيم علاقة الفرد بربه، ولم تعتمد على طبقة معينة من المجتمع بل احتوت كل الطبقات دون تمييز أو تفريق.

1. المرجع السابق، ص٨٩، ٩٠ بتصرف.

الشبهة السابعة عشرة

الزعم أنه ﷺ كان رجلا سياسيًّا طامحًا للسلطة والملك ولم يكن نبيًّا مرسلاً(*)

مضمون الشبهة:

يـزعم بعـض المـشككين أن محمـدًا ﷺ لم يكـن نبيًّـا مرسـلًا؛ بـل كـان مجـرد طـامح للـسلطة والزعامـة والرئاسة، ويبرهنون على ذلك بما يزعمونه مـن أنـه ﷺ كان حلقـة في سلـسلة أجـداده ـ قـصيّ وهاشـم وعبـد المطلب ـ الذين كانوا زعماء لقريش ورأسوا مكـة، وأن الظروف التي توفَّرت له ﷺ جعلته أكثر حظًّا منهم لنيل السلطة والرئاسة في قومه، فحقَّق ما لم يُحقِّقـه أجـداده، وأسَّس الدولة القُرَشِيَّة التي كانت لها سيادة على العرب بفضل جهوده ﷺ، فكان تَتِمَّة حسنة لأجداده. ويهدفون من وراء ذلك إلى تجريده من نبوته ﷺ وقصر جهوده في الدعوة عـلى مـا وصـموه بـه مـن طمـوح إلى الـسلطة والملك.

وجها إبطال الشبهة:

١) لم يكن أجداد النبـي ﷺ أول مـن تولَّـوا زعامـة مكة كما يزعم المتوهمون؛ بل كان قبلهم زعـماء لهـا مـن قبائل أخرى كالجراهمة والخزاعيين، فلماذا لم يظهر منهم نبي كما ظهر الرسول ﷺ من قريش؟!

٢) إن المتأمل في سيرة النبي ﷺ يجده أزهـد النـاس في الملك والزعامة، وأبعدهم عن مظـاهر الحيـاة الـدنيا وزخرفها، وقـد ظـل ﷺ كـذلك حتـى بعـد أن دان لـه العرب، ودخل الناس في دين الله أفواجًا.

التفصيل:

أولا. لم يكن أجداد النبي ﷺ أول من تولَّوا زعامة مكة:

لقد كان العماليق، ثم الجراهمة، ثم الخزاعيون، عـلى التوالي يسودون مكة قبـل أجـداد الرسـول ﷺ بأزمـان طوال، وكان مضاض والـسميدع الجرهميـان يعـشِّران ـ يحصِّلان العُشْر ـ من الداخلين إلى مكـة. كـذلك بلـغ عمرو بن لُحي من الشرف في مكة ما لم يبلغه أحـدٌ مـن قبل؛ فقد كان غَنيًّا فاحش الغنى، وكان قوله فيهـا دينًـا يُتَّبع، وكان يلي أمور البيت ويطعم الجميع اللحم.

أما آخر من تولَّى الكعبة من خزاعة فهـو حليـل بـن حبشية بن سلول، الذي تزوج قصيٌّ ابنتـه حُبَّـى، وعـن طريقها انتقلت ولاية البيت إليه.

وعلى أية حال فالكعبة والحج إليها كانـا موجـودين قبل قـصيٍّ بـدهر طويـل، فيتـضح ممـا سـبق أنـه لـيس صحيحًا أن قصيًّا هو أول رئـيس لمكـة أيًّـا كـان معنـى الرئاسة، وحتى لو حصرنا نظرنا في أسلاف الرسول ﷺ فلم يكن قصيٌّ أولهم؛ إذ كان قبله فِهْر وبينه وبين قـصي خمسة أبناء.

وعلى أية حال فإن الرئاسة والزعامة هنا إنـما همـا في أغلب الظن زعامة قبلية ومكانة اجتماعية أكثر منهـا أي شيء آخر.

(*) مجتمع يثرب، خليل عبـد الكـريم، سـينا للنـشر، القـاهرة، ١٩٩٧م. حنق اليهود عـلى الأنبيـاء، د. محمـد عبـد القـادر أبـو فـارس، دار الفرقـان، الأردن، ١٩٩٨م. قـريش مـن القبيلـة إلى الدولة المركزية، خليل عبد الكريم، سينا للنشر، القاهرة، د. ت. اليـسار الإسـلامي وتطاولاتـه المفـضوحة عـلى الله والرسـول والصحابة، د. إبراهيم عوض، مرجع سـابق. ثـورة الإسـلام في ضوء ظروف البيئة التي ظهـر فيهـا، ترجمـة وتفنيـد: د. إبـراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٩٩م.

ولعل أكبر ما يثير العجب هو أن ملوك اليمن أنفسهم لم يفكروا في أن يمدوا سلطانهم خارج حدود بلادهم، رغم أنهم كانوا أصحاب ملك موغل في القدم وحضارة مزدهرة، وتحت أيديهم الجيوش المجيَّشة، فكيف يفكر أي مكيٍّ قُصيًّا كان أو غيره في هذا؟!!

ولم تكن أيضًا في يد هاشم بن قصيٍّ أية سلطة سياسية أو عسكرية البتة؛ إذ عقب موت قصيٍّ انتقلت كل الزعامات التي كانت في يده إلى يد ابنه عبد الدار، الذي تنازع أولاده من بعده، وانتهى الأمر بانتقال الزعامة الدينية إلى بني ابنه عبد مناف والد عبد المطلب جد النبي ﷺ، أما الزعامتان السياسية والعسكرية - وهما اللتان تحتاجهما الدول في نشوئها وبقائها - فذهبتا إلى عبد شمس جد الأمويين.

ثم لو كان عبد المطلب حاكمًا كما يزعم المتوهمون؛ أكانت قريش تنازعه في بئر زمزم حين أراد تجديدها بعد انطمارها وتقول له: "إنها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها حقًّا فأشركنا معك فيها"، فلا يجد بدًّا من أن يذهب معهم إلى كاهنة من بني سعد لتفصل في هذا الخلاف بينه وبينهم؟ وأيضًا هل كانت تعترض عليه قريش عندما رأوه يحفر بين وثني إساف ونائلة، وكذلك في نذره حين لقي من قريش ما لقي: لئن ولُد له عشرة نَفَر، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه لينحرنَّ أحدهم لله عند الكعبة.. إلى آخر القصة المعروفة التي انتهت بمفاداة عبد الله والد النبي ﷺ بمائة من الإبل؛ إذ كان هو الذي خرجت عليه القرعة بالذبح كما هو معلوم.

تُرى لو كان عبد المطلب حاكمًا ملكًا على قومه كما يزعمون؛ فهل كان يحفر بيده بئر زمزم؟ فأين كانت حاشيته؟ وأين كان خدمه وعبيده؟

إن الأقرب إلى منطق العقل والأكثر تلاؤمًا مع وقائع التاريخ أن المجتمع المكي كان مجتمعًا قبليًّا كما يقول د. شوقي ضيف: فهو لا يعدو أن يكون اتحاد عشائر ارتبط بعضها ببعض في حلف؛ لغرض سدانة الكعبة من جهة، والقيام على تجارة القوافل من جهة أخرى، ولا سلطان لعشيرة على عشيرة، بل كل عشيرة تتمتع بالحرية التامة ولا طاعة عليها لأحد... ووجود ملأ فيها أو مجلس شيوخ لا ينقض هذه الحقيقة، إذ لم يكن عمله يعدو مجلس القبائل[1].

وبعد، فهل ورث النبي ﷺ هذه الزعامة، أو أنه وُلد يتيمًا، وعاش يتيمًا يرعى الغنم، ويتاجر مع عمه حتى تزوج السيدة خديجة - رضي الله عنها -؟! وماذا أعدَّ ليكون رئيسًا أو سلطانًا أو زعيمًا خلال مدة أربعين سنة قبل بعثته؟ إنه ﷺ ما جاء إلا ليدعو الناس إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام دون أن يطمح إلى سلطة أو رياسة كما يزعمون.

ثانيًا. إن المتأمل في سيرة النبي ﷺ يجده أزهد الناس في الملك والزعامة وأبعد الناس عن مظاهرهما:

لقد جاءت دعوة محمد ﷺ لتُبيِّن للناس أن الحاكم الحقيقي للبشر لا يجوز أن يكون غير الله، وأن خضوع البشر لغير سلطان الله وحاكميته شرك، وأن التفسير الأساسي الذي ينبغي أن يتم في العالم هو نقل البشر من خضوع بعضهم لحاكمية بعض إلى خضوع الكل لله الواحد الأحد، وأن الأمة التي تحمل هذه القضية بكل

---

١. اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، د. إبراهيم عوض، مرجع سابق، ص١٣٧: ١٥١ بتصرف.

متطلباتها هي التي سيكون بيدها مفاتيح الحياة البشرية ولها قيادها، ومن هذه البداية ـ انسجامًا معها ـ يقوم كل شيء في حياة البشرية ثانيًا، وحياة الأمة التي تحمله أولًا.

ونحن إذا تأملنا حياة النبي ﷺ من بدايتها إلى منتهاها نجدها تطبيقًا لهذه الدعوة، فقد كان ﷺ أزهد الناس في الملك والرياسة والزعامة، وأبعد الناس عن مظاهرهما حتى بعد أن أقام دولته ودانت له العرب ودخل الناس في دين الله أفواجًا، ومما يدل على ذلك:

١. رفضه ﷺ محاولة قومه لإغرائه بالملك والسيادة:

قال ابن إسحاق: اجتمع عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث بن كلدة أخو بني عبد الدار، وأبو البختري بن هشام، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، والعاص بن وائل، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميَّان، وأمية بن خلف، أو من اجتمع منهم، قال: اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه؛ حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فَأْتهم.

فجاءهم رسول الله ﷺ سريعًا وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بَدَاء[1]، وكان عليهم حريصًا يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم[2]، حتى جلس إليهم، فقالوا له: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلًا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفَّهت الأحلام، وفرَّقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت لهذا الحديث تطلب به مالًا؛ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا؛ فنحن نسوِّدك علينا، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًّا تراه قد غلب عليك، بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه، أو نعذر فيه.

فقال لهم رسول الله ﷺ: "ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني رسولًا وأنزل عليَّ كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم" [3].

فها هو ذا محمد ﷺ نبي الإسلام يُعرَض عليه الملك والسيادة في قومه ـ وهو لم يزل في بداية دعوته ولم يؤسس دولة ولم يفتح بلدانًا ـ كي يتخلَّى عن دعوته، ولكنه يظل صامدًا ويرفض إغراءات قومه ولا يبالي باضطهادهم، ترى لو كان هدفه الملك والسيادة هل كان يرفض مثل هذه العروض، أو يتحمل كل هذا الإيذاء؟ لا شك أنه لو كان النبي ﷺ يطمع في الملك لاستجاب للإغراءات ولفرح بعروض قومه،

١. البَدَاء: ظهور الرأي بعد أن لم يكن.
٢. العَنَت: المشقة.
٣. الرسول ﷺ، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص٩٠: ٩٣.

وَلَاسْتَطَاعَ تحقيق هدفه في وقت مبكر دون أي مجهود، ولكنه رسول الله ﷺ أرسله الله ليكون للعالمين بشيرًا ونذيرًا.

٢. ابتعاده ﷺ عن مظاهر الملك والرياسة:

إن المتأمل في كل أفعال النبي ﷺ وأقواله يجدها تدل دلالة قاطعة على زهده في الملك والزعامة والرياسة؛ فقد كان ﷺ أزهد الناس، وفقره ﷺ كان فقر اختيار لا فقر اضطرار؛ لأنه ﷺ فتحت عليه الفتوح، وجلبت إليه الأموال وهو معرض عن الدنيا كل الإعراض، ينام على الحصير حتى يُرى أثره في جنبه الشريف، فإذا قيل له: ألا نبسط تحتك ألين منه؟ يقول: "مالي وللدنيا ما مثلي ومثل الدنيا إلاكراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها"[1].

وكان ﷺ يقنع باليسير من الدنيا ويقول: "اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا"[2]، وتقول السيدة عائشة: "ما رفع رسول الله قط عشاء الغداء، ولا غداء العشاء، ولا اتخذ من شيء زوجين ولا قميصين ولا رداءين ولا إزارين ولا من النعال"[3].

وكذلك كان رسول الله ﷺ أشد الناس تواضعًا وأبعدهم عن الكِبْر والخُيَلاء، لقد خُيِّرَ بين أن يكون نبيًّا ملكًا، أو نبيًا عبدًا؛ فاختار الثاني، وكان ﷺ يكره من أصحابه أن يقوموا له؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك"[4]. وقال: "آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد"[5]. ويقول: "لا تُطْرُوني كما أَطْرَت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد الله، فقولوا: عبد الله ورسوله"[6].

وكان ﷺ يركب البعير والحمار، ويردف وراءه غيره، ولا يقبل أن يسير أحد وراءه وهو راكب، وحجَّ على رَحْلٍ رثٍّ، وعليه قطيفة لا تساوي أربعة دراهم، وقال: "اللهم اجعله حجًّا لا رياء فيه ولا سمعة"[7]، ودخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة فقال له: "هوِّن عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد"[8]؛ أي: اللحم المُشقَّق

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، من مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (٢٧٤٤)، والحاكم في مستدركه، كتاب الرقاق (٧٨٥٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٦٩).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه (٦٠٩٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب في الكفاف والقناعة (٢٤٧٤).

٣. أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤/ ١٠١)، السيرة النبوية، باب ذكر تقلله وزهده وتبتله في العبادة.

٤. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه (١٢٣٦٧)، والبخاري في الأدب المفرد، باب قيام الرجل لأخيه (٩٤٦).

٥. صحيح: أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب أهل الكتابين، باب الأكل بيمينه والأكل وشماله في الأرض (١٩٥٤٣)، ومن طريق البيهقي في شعب الإيمان، باب في المطاعم والمشارب وما يجب التورع عنه منها (٥٩٧٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٤١).

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ (مريم: ١٦) (٣٢٦١).

٧. صحيح: أخرجه الترمذي في الشمائل المحمدية، باب ما جاء في تواضع رسول الله ﷺ (٣٣٥)، وصححه الألباني في مختصر الشمائل (٢٨٨).

٨. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأطعمة، باب القديد (٣٣١٢)، والحاكم في مستدركه، كتاب المغازي والسرايا (٤٣٦٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٠٥٢).

المجفَّف[1].

كل هذا يدل دلالة قاطعة على أن النبي ﷺ لم يكن ملكًا ولا حتى طامحًا إلى الملك؛ لأن حياته التي عاشها كانت أبعد ما تكون عن مظاهر الملوك والسادة.

٣. شهادة معاصريه بأنه لم يكن ملكًا:

- **شهادة هرقل ملك الروم:**

عندما وصل كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل ملك الروم، أرسل يبحث عن بعض قوم محمد ﷺ في البلاد الشامية، فعلم بركب تجار من مكة المكرمة، على رأسهم أبو سفيان قائد الشرك، فدعاهم إلى مجلسه، وحَوْل هرقل عظماء الروم، ثم دعا أبا سفيان ومن معه ودعا الترجمان، وقد جاء أن هرقل سأل أبا سفيان فيما سأله عن محمد ﷺ: هل كان من آبائه من ملك؟ فقال أبو سفيان: لا. وقد قال له هرقل وهو يرد عليه: وسألتك؛ هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا، فلو كان من آبائه من ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه.

فتأمل قول هرقل لأبي سفيان: "وسألتك؛ هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا، فلو كان من آبائه من ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه"[2].

فقد استخدم هرقل مبدأ الاستدلال العقلي فتوصل إلى أنه ﷺ لم يكن طالبًا للملك، على الرغم من أنه لم يكن يعرف شيئًا عن حياته.

- **شهادة عدي بن حاتم الطائي:**

كان عدي بن حاتم نصرانيًّا، وهو ابن حاتم الجواد المشهور، وكان امرءًا شريفًا في قومه، وكان يأخذ من قومه المِرباع،[3] فلما سمع برسول الله ﷺ ودعوته كره دعوته، وترك قومه ولحق بنصارى الشام.

قال عدي: فكرهت مكاني هناك أشد من كراهتي له - أي لرسول الله ﷺ - فقلت: لو أتيته فإن كان ملكًا أو كاذبًا لم يخفَ عليَّ، وإن كان صادقًا اتبعته. فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلت عليه وهو في مسجده، فسلمت عليه، فقال: "من الرجل"؟ فقلت: عدي بن حاتم! فقام رسول الله ﷺ فانطلق بي إلى بيته، فوالله، إنه لعامد[4] بي إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته، فوقف لها طويلًا، تكلمه في حاجتها، فقلت في نفسي: والله ما هذا بملك!

ثم مضى بي رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بي بيته، تناول وسادة من أَدَم[5] محشوَّة لِيفًا، فقذفها إليَّ فقال: "اجلس على هذه"، قلت: بل أنت فاجلس عليها. فقال: "بل أنت". فجلست عليها، وجلس رسول الله ﷺ على الأرض.

فقلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك. ثم قال: "إيه يا عدي بن حاتم، هل تعلم من إله سوى الله"؟ قلت: لا. ثم قال: "هل تعلم شيئًا أكبر من الله"؟ قلت: لا. قال: "ألم تكن ركوسيًّا"؟[6] قلت: بلى. قال: "أَوَلَم

---

١. السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج٢، ص٦٥٦، ٦٥٧ بتصرف يسير.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة آل عمران (٤٢٧٨)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧).

٣. المِرباع: وهو ربع ما يصلهم من غنائم الحروب، كان العرب يجعلون ذلك للرئيس منهم.

٤. عَمَد: قَصَد.

٥. الأَدَم: الجِلد.

٦. الرَّكوسية: قومٌ لهم دين بين النصارى والصابئة.

تكن تسير في قومك بالمِرباع"؟ قلت: بلى. قال: "فإن ذلك لم يكن يحل في دينك"؟ قلت: أجل والله. ثم قال: "لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى من حاجة أهله، فوالله، ليوشكنَّ المال أن يَفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله، ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وايمُ الله، ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت عليهم"! قال: فأسلمت. قال عدي: فرأيت اثنتين: الظَّعينة[1]، وكنت في أول خيل أغارت على كنوز كِسرَى، وأحلف بالله لتجيئن الثالثة.

ففي هذه القصة التي روتها كتب السيرة تحليل دقيق، بل وتجسيد واضح لشخصية سيدنا محمد رسول الله ﷺ، تلك الشخصية التي ظهرت جلية واضحة لعدي بن حاتم، مصفاة عن شوائب الزعامة والملك وحب الإمارة والكبرياء والجاه، ولا يتراءى فيها سوى الإعلام بأنه رسول رب العالمين إلى الناس أجمعين[2].

مما ذكرناه آنفًا من رفضه ﷺ إغراءات قومه له بالملك والسيادة، وكذلك ما ذكرناه من ابتعاده ﷺ عن مظاهر الملك والزعامة في سلوكه وخلقه وتعامله مع الآخرين، وكذلك شهادة بعض معاصريه بنفي كونه ﷺ ملكًا، كل هذا يؤكد بما لا يدع مجالًا للشك أن محمدًا ﷺ لم يكن يطمح لملك أو زعامة، بل كان نبيًّا أرسله ربه للعالمين بشيرًا ونذيرًا، فمثله مثل سائر الأنبياء - عليهم السلام - لم يكونوا يطلبون ملكًا، ولا يطلبون دنيا، إنهم لا يطلبون إلا رضا الله ﷻ عن طريق القيام بمهامهم على أفضل وجه[3]؛ لأنهم لو كانوا يطلبون دنيا أو ملكًا ما صدقهم أحد ولما آمن بهم أحد؛ لأنهم حينئذ يعرفون مراميهم وأهدافهم وما يسعون إليه®.

الخلاصة:

- لم يعتمد النبي ﷺ على سلطان أجداده لبناء دولة، ولكنه كان داعيًا إلى الله ﷻ، ومبلغًا رسالته التي أمره الله بتبليغها للناس، مصداقًا لقوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾(المائدة: ٦٧)، ثم إن قصيًّا - الذي يزعمون أن محمدًا ﷺ ورث السلطان عنه لم يكن أول رئيس لمكة فقد كان قبله بعض رؤساء القبائل الأخرى مثل: الجراهمة، والخزاعيين، فلماذا لم يظهر منهم نبي كما ظهر النبي ﷺ في قريش؟
- لقد كان للرسول ﷺ دعوة خاصة به، ولم يكن يريد الملك، ولا السلطة، وإنما كانت دعوته إلى توحيد الله ﷻ وإخلاص العبادة له ﷻ، ونبذ عقائد الشرك، وترك عبادة الأصنام التي كان يعبدها قومه.
- لقد كانت حياة النبي ﷺ وسيرته خير دليل على

---

١. الظَّعينة: المرأة المرتحلة.

٢. فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مرجع سابق، ص٣٣٢، ٣٣٣ بتصرف يسير.

٣. قوانين النبوة، موفق الجوجو، مرجع سابق، ص١١٣ بتصرف يسير.

® في **"نفي سعي النبي ﷺ للزعامة أو الملك"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الحادية والعشرين، من الجزء الرابع (دعوة النبي ﷺ وتبليغه الوحي).

عدم تطلعه لملك أو سلطة، فقد رفض ﷺ إغراء قومه له حينما عرضوا عليه أن يجعلوه ملكًا عليهم مقابل التخلِّي عن دعوته.

- عاش النبي ﷺ متواضعًا زاهدًا بعيدًا عن مظاهر الملك والرئاسة، فلم يؤثر عنه أنه استعمل حاجبًا يمنع الناس الدخول عليه، ولا عاش عيشة الملوك في التنزه والترفع عن أتباعه، بل كان مثل سائر الأنبياء - عليهم السلام -، لا يطلب إلا رضا الله تعالى، ولا يبتغي ملكًا ولا زعامة، ولا أية مصلحة دنيوية.

الشبهة الثامنة عشرة

الزعم أنه ﷺ كان واحدًا من عظماء القادة والساسة وليس نبيًّا مرسلا(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغرضين أن محمدًا ﷺ لا يعدو أن يكون قائدًا ماهرًا، وسياسيًّا من طراز خاص، كغيره من عظماء القادة والساسة، زاعمين أن ما عُرف عنه ﷺ من قيادة حكيمة، وسياسة فريدة في إدارة الحروب، وفتح البلاد، إنما يرجع إلى ما كان يتمتع به من استعدادات ومهارات خارقة استطاع من خلالها أن يجمع الناس تحت قيادته، وليس لكونه نبيًّا يوحي إليه.

هادفين من وراء ذلك إلى حصر ما أحدثته نبوته - بموجب الرسالة السماوية التي انطوت عليها - في بوتقة القيادة الحكيمة والمهارة الفردية والقدرات الخاصة.

وجه إبطال الشبهة:

لا شك أن النبي ﷺ كان أعظم القادة السياسيين الذين عرفتهم البشرية، ولاعجب في ذلك، فقد بلغ ﷺ الذروة في كل شيء، وهذا لا يتنافى بحال من الأحوال مع كونه نبيًّا مرسلًا، بل إن هذا الجانب العظيم من شخصيته، دليل قاطع على نبوته.

التفصيل:

كونه ﷺ قائدًا عظيمًا وسياسيًّا محنكًا لا يتنافى بحال من الأحوال مع كونه نبيًّا مرسلا:

مما لا شك فيه أن مهارة القيادة وتملُّك زمام الأمور لا يتنافى مع النبوة والرسالة، بل إن النبوة والرسالة تحتاج إلى أن يكون صاحبها ممتلكًا صفات القائد العظيم، الذي يستطيع أن يُصرِّف أموره بحنكة ومهارة، مستعينًا في ذلك بما يوحيه إليه ربه ﷻ، مهتديًا بما يأتيه من تعاليم السماء، وهذا ما حدث مع النبي ﷺ أثناء قيامه برسالته ودعوته وقيادته للناس.

ويجدر بنا قبل أن نتكلم عن النبي ﷺ قائدًا أن نذكر أهم المؤهلات التي يجب توفرها في أي قائد:

على القائد أن يملك قابلية إعطاء القرارات الصحيحة، وإعطاء القرار بمثابة الأسس للأعمال التي يجب إنجازها، وهناك أوقات مهمة يجب فيها اتخاذ قرار سريع، والقائد يتميز عن الآخرين في مثل هذه الأوقات بقابليته لاتخاذ القرار السريع الذكي والصائب.

على القائد أن يملك الشجاعة الفطرية التي تجعله

(*) شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة، خليل عبد الكريم، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٧م. اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، د. إبراهيم عوض، مرجع سابق.

ثابتًا على مبدئه حين تتفرق عنه جماعته، وعليه ألا يخاف الموت أبدًا، فالذي يخاف من كل شيء ويخشى من كل خطوة لا يمكن أن يكون قائدًا ينظِّم ويدير جماعته.

القائد شخص يدرك مسئولياته إدراكًا جيدًا، والشعور بالمسئولية هذا جزء لا يتجزأ من كيانه، كما أنه يبقى مستعدًّا لتحمُّل التبعات الثقيلة لدعوته حتى النهاية، وإن أصبح وحيدًا.

على القائد أن يكون بعيد النظر يتجاوز زمنه، ويكتشف مسار الحوادث المستقبلية بحَدْسه وبفكره الثاقب، ويراها مثلما رأى الأحداث الماضية، ويعطي أحكامه وقراراته على هذا الأساس.

على القائد أن يكون إنسانًا مستقرًّا من الناحية النفسية، لا يتأثر ولا يغيِّر وضعه تحت تأثير أي حادثة.

القائد شخص يعرف التقييم الجيد للأفراد، ويعرف أكثر من غيره نوعية الأفراد الموجودين تحت قيادته، ويعرف أين يستعمل، ومن يستعمل منهم، وفي تحقيق أي هدف، والشخص الذي لا يعرف توزيع الأعمال حسب القابليات، ولا يسجِّل نجاحًا في هذا الأمر لا يستطيع أن يكون إداريًّا جيدًا فضلًا عن أن يكون قائدًا.

القائد هو الشخص الذي يحب رعيته، بحيث يشعر كل فرد منهم أنه أقرب إلى قلبه من الآخرين، وهو الشخص الذي تقابله رعيته أيضًا بالحب، فتكون ثقته بالرعية تامة وثقة رعيته به تامة.

ولقد حفل التاريخ الإنساني بكثير من القادة العظام، ولكن لا يوجد أي قائد جمع في نفسه كل هذه الصفات التي عددناها، أما القادة الذين جمعوا بعض هذه الصفات فقلة أيضًا، منهم: الإسكندر الأكبر ونابليون وهتلر، ومن المسلمين: محمد الفاتح، والسلطان سليم الأول، وصلاح الدين الأيوبي، وطارق بن زياد، لا شك أن هؤلاء كانوا قادة عظامًا.

بيد أننا إذا قمنا بتقييمهم من زاوية الصفات التي سردناها لوجدنا أنه لا يمكن مقارنتهم أبدًا بقائد القادة محمد ﷺ[1].

وهذا ما حدا ببعض الكُتَّاب الغربيين المنصفين ـ وهو مايكل هارت ـ أن يجعل النبي ﷺ في المرتبة الأولى من بين الشخصيات التي أثَّرت في تاريخ البشرية، وذلك في كتابه "الخالدون مائة أعظمهم محمد"، ووضع السيد المسيح عليه السلام في المرتبة الثالثة، بينما وضع سيدنا موسى عليه السلام في المرتبة الأربعين!!

وفي تحليله لهذا يقول مايكل هارت: يوجد على وجه التقريب من المسيحيين ضعْف عدد المسلمين في العالم.. بطبيعة الحال يبدو غريبًا أن أعتبر محمدًا ﷺ أولى بالتقديم من حيث التأثير في تاريخ العالم على المسيح عيسى عليه السلام.

ويوجد سببان رئيسيان لهذا القرار:

الأول: أن الرسول ﷺ قد وضع دورًا أكثر أهمية في تأسيس الدين الإسلامي وتطويره أقوى من نبي الله عيسى عليه السلام في تطويره للديانة المسيحية، و الذي يعتبر مسئولًا فقط عن الجوانب الرئيسية الأخلاقية في الديانة المسيحية واختلافها عن أخلاقيات الديانة اليهودية.

الآخر: من الناحية الأخرى كان محمد ﷺ هو المسئول الوحيد في الدين الإسلامي عن كل جوانبه اللاهوتية ـ العقائدية ـ والأخلاقية على حد سواء، وقام

---

١. الرسول ﷺ قائدًا، محمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل، القاهرة، ط٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، ص١٦١: ١٦٥ بتصرف.

الرسول ﷺ بالدور الرئيسي في وضع أسس الإسلام وقواعد العبادات والمعاملات في هذا الدين.

وقد عقَّب جول ماسرمان اليهودي الديانة، والمحلل النفسي، وأستاذ علم النفس بجامعة شيكاغو على منهجية الدراسة في وضع الترتيب لهؤلاء المائة، بأن وضع ثلاثة معايير لتحديد الترتيب العلمي المنهجي لهؤلاء:

- أن يحقق المصلحة للجماعة التي يقودها.
- توفير نظام اجتماعي مضمون وآمن للجماعة.
- أن يكون له القدرة على إمداد أتباعه بالعقائد الصحيحة المتزنة الحقيقية.

ولا شك أن الرسول ﷺ هو من يجمع تلك المعايير الثلاثة التي جعلت منه الأول على هذه المجموعة[1].

بيد أن صفة القيادة الناجحة التي توفرت في شخصية الرسول ﷺ لا تنفي عنه النبوة، بل تؤكدها، كما أنها تدل دلالة قطعية على أن جميع تصرفاته وأفعاله ﷺ وحي من الله ﷻ، والشواهد على حسن سياسته وحكمته في تدبير الأمور وإدارة الحروب كثيرة ومتعددة.

إن تلك السياسة الواعية الحكيمة التي عُرف بها النبي ﷺ رغم نشأته في بيئة بسيطة يتيمًا فقيرًا أميًّا، لتدلُّ - بما لا يدع مجالًا للشك - دلالة قاطعة على صدق نبوته ﷺ، فقد كان مثالًا رائعًا لرجل الدولة الحكيم، والسياسي البارع، والقائد الناجح البصير بدقائق الأمور، القادر على معالجة الحوادث بالحكمة، ألا يدل ذلك كله على أن جميع تصرفاته وأفعاله ﷺ وحي من عند الله ﷻ؟

ولقد برز هذا الجانب العظيم من شخصيته ﷺ بصورة واضحة جَلِيَّة في المدينة المنورة، إذ كانت مقرًّا للدولة الناشئة، ومن هذه الأمور التي تدل على حسن سياسته ﷺ:

بناؤه للمسجد منذ الأيام الأولى من وصوله للمدينة المنورة؛ إذ أحسَّ بثاقب بصره أنه لا بد من وضع القاعدة الأساسية للدعوة إلى الله، وأداء العبادة، فشرع في بناء المسجد ليكون مكانًا للعبادة، ومركزًا للدعوة، ومقرًّا للسلطة التنفيذية، والقيادة العليا، حيث يلتقي القائد فيه مع أتباعه، ينصحهم ويشرِّع لهم ويشاورهم في مهام الأمور، كما يلتقي مع الوفود القادمة إليه ويدعوهم إلى الإسلام، وكان أيضًا المدرسة التي يتلقَّى فيها الناس العلم النافع، وكان كذلك منطلقًا للجيوش التي تتوجه للغزو والفتوح.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار؛ حرصًا منه على وحدة صف المسلمين، وتلاحمه بعضه مع بعض، وطمسًا لدعوى العصبية التي كانت متفشية بين القبائل العربية، واقتلاعها من نفوس الجماعة المسلمة.

وقد جعل ﷺ لرجل من قريش أخًا له من الأوْس، وللآخر من الخزرج، ولم يزل يؤاخي بين هؤلاء وهؤلاء، ويوثِّق الأواصر، حتى لم يبقَ أحد من المهاجرين إلا وله أخ في الله من الأنصار، ثم غرس في نفوس الجميع معنى الأخوة في الله، الذي هو أسمى من كل الروابط؛ أسمى من رابطة الدم، واللحم والنسب، والعصبية للبلد، حتى قدَّم رباط العقيدة على رباط الدم في الميراث في المرحلة الأولى لقيام الدولة الإسلامية - ونُسخ فيما بعد - وهذا من أعظم الأسس التي أُقيم

1. مفاهيم نصرانية خاطئة عن محمد والمسيح، د. سامي نجيب محمد، مرجع سابق، ص١٧٦ : ١٧٨ بتصرف.

عليها صرح الدولة الإسلامية الناشئة.

إن هذا العمل الجليل الذي قام به النبي ﷺ، يدل على بعد نظره ورجاحة عقله، وخبرته في أمور السياسة؛ لأن قوة الصف من وحدته، وليس أوثق من رباط الأخوة في الله الذي يؤلِّف بين النفوس من شتى البقاع والأصقاع، ويصهرها في بوتقة واحدة قوية مرهوبة الجانب.

الدستور العظيم الذي وضعه ﷺ للمجتمع الجديد في المدينة المنورة، لتحقيق الأمن والسلام الداخلي والخارجي، فلقد ضمَّ المجتمع عناصر شتى: الأوْس والخزرج الذين كانوا يعيشون فيها، منهم من دخل في الإسلام، ومنهم من بقي على عبادة الأوثان، ثم اليهود أصحاب الفتن والقلاقل، ثم المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم فرارًا بدينهم، وكان الأعداء يحيطون بهم من كل جانب، فرأى ﷺ بثاقب بصره أنه لا بد من وضع دستور واضح المعالم، يبين لكل فئة من هذا المجتمع ما لها وما عليها لمصلحة الوطن، الذي يعيشون فيه، ولحمايته من الأعداء المحيطين به من كل جانب؛ ولذا أخذ العهود والمواثيق على اليهود؛ لاحترام ما جاء في الدستور الجديد والالتزام به، ضامنًا لهم الحرية الدينية.

ومن ذلك أيضًا مصالحة أهل مكة، وكتابة معاهدة بينه وبينهم، وذلك عندما توجَّه هو وأصحابه إلى مكة يريدون أداء العمرة، فحالت قريش بينهم وبين ما يريدون، فكتب الكتاب الذي عُرف بـ "صلح الحديبية"، وقد تضمن هذا الصلح شروطًا ظاهرها أنها ليست في مصلحة المسلمين، وخاصة ذلك الشرط الذي أملته قريش، الذي يقول: إن من يلجأ إلى محمد خلال مدة الصلح من غير إذن وليه من قريش يردُّه إليها، وألا تردَّ قريش من يلجأ إليها من أصحاب محمد، فشقَّ ذلك على المسلمين، وكادوا أن يهلكوا مما دخل عليهم من أمر ذلك الصلح، حتى إن عمر بن الخطاب وثب إلى رسول الله ﷺ قائلًا: ألستَ برسول الله؟ قال: "بلى"، قال: أوَلَسْنا بالمسلمين؟ قال: "بلى"، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: "بلى"، قال: فعلامَ نعطي الدنيَّة في ديننا؟ قال: "أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني" [1].

ومرت الأيام وأثبتت أن الخير كان في هذا الصلح، وكشفت عن كِياسة[2] رسول الله ﷺ ورجاحة عقله؛ إذ أسفر هذا الصلح عن فتح مكة بعد مضي سنتين عليه، فكان بركة على الإسلام، حتى ذلك الشرط البغيض الذي شقّ على المسلمين قبوله، تحوّل بعد سنة من المعاهدة إلى حربة في صدر قريش، حينئذ لجأت إلى رسول الله ﷺ مستغيثة مستصرخة لإلغائه؛ لأن المسلمين الفارين بدينهم من قريش لجئوا إلى الجبال في ساحل البحر وقطعوا الطريق على تجارة قريش، وهكذا تبين للناس حسن سياسته ﷺ وبالغ حكمته في تصريف الأمور[3].

وكذلك فإن الناظر في سيرته ﷺ في غزواته

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب (٢٥٨١)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية (٤٧٣٣).

٢. الكِياسة: الذكاء وحُسن التصرف.

٣. الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، مرجع سابق، ص٣٥٤: ٣٥٧ بتصرف.

ومعاملاته لأعدائه، يرى مواقف كثيرة تدل على عظمة قيادته، وكمال معرفته وخبرته بأساليب الحروب، وحسن إدارته للجيوش، مع أنه لم يتعلم الفنون الحربية، ولا الهندسة العسكرية في مدرسة أو كلية، وتتجلَّى تلك الصور في المعارك الحربية التي خاضها، وفي الخطط الدفاعية التي رسمها، والنظم الحربية التي سنَّها، لقد انتصر ﷺ - على قلة جيشه - في مواقع كثيرة، ودخل مكة مصدر الهجوم ومنبع المؤامرات فاتحًا، وقضى على اليهود، وتتبعهم حتى قضى على نفوذهم بعدما غدروا كثيرًا بمعاهداته، ولم يكفُّوا عن المؤامرات والمكايد، ولم تكن سياسته سياسة اعتداء وقهر وظلم، وإنما كانت سياسة دفاع ومقاومة وعدل، وبذلك فقد جمع الله له بين كمال الأخلاق، وحسن السياسة وتصريف الأمور، ووَضْعها في مواضعها.

ومن ذلك: موافقته على ما أشار به الحباب بن المنذر، وذلك أن النبي ﷺ لما جاء بدرًا نزل عند أقرب ماء هناك، فقال الحباب: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل، أمنزلًا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، أو نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله ثم نغوِّر[1] ماءه من القُلُب[2]، ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماء فنشرب ولا يشربون، فقال ﷺ: لقد أشرت بالرأي، فنهض ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم فنزل عليه، ثم أمر بالقُلُب فغوِّرت، وبنى حوضًا على القليب الذي نزل عليه، فمُلئ ماء ثم قذفوا فيه الآنية.

ومن مواقفه ﷺ الجليلة التي تدل على براعته العسكرية، وقيادته الحربية، رعايته بنفسه تنظيمَ الصفوف واستعراض الجنود، ففي يوم أُحُد كان ينظم صفوف أصحابه، ويرتب أجنحتهم، ويضع الحامية اللازمة في مؤخرة المسلمين، ويأمر الرماة ألا يغادروا أماكنهم مهما وجدوا من أمر إخوانهم المقاتلين حتى يتلقوا الأوامر منه ﷺ، فكان في مقدمة المخططين لفنون القتال وطرائقه، آخذًا بالأسباب التي تساعد على خذلان الأعداء، وهزيمتهم بإيقاع الفتنة بينهم، وتشتيت شملهم وكسر ظهرهم والتضييق عليهم[3].

ومن مواقفه مع اليهود ما يرويه لنا أنس بن مالك رضي الله عنه عند فتح خيبر قائلًا: واستقبلنا عمال خيبر غادين قد خرجوا بمساحيهم[4] ومَكَاتلهم[5]، فلما رأوا رسول الله ﷺ والجيش قالوا: محمد والخميس[6]، فأدبروا هربًا، فقال رسول الله ﷺ: "الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين"[7].

ويقول ابن إسحاق: "وكان رسول الله حين خرج من المدينة إلى خيبر سلك على عَصَر[8] فبنى له فيها

1. غار الماء: ذهب في الأرض وسفل فيها.
2. القُلُب: جمع قَليب، وهو البئر.

3. محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي الحسيني، مرجع سابق، ص٢٣١، ٢٣٢ بتصرف.
4. المساحي: الفئوس.
5. المكاتِل: جمع مِكْتَل، وهو السلة أو القفة الكبيرة المصنوعة من ورق النخل.
6. الخميس: الجيش.
7. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب الصلاة في الثياب، باب ما يذكر في الفخذ (٣٦٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب فضيلة إعتاقه أمته ثم يتزوجها (٣٥٦٣).
8. عَصَر: جبل بين المدينة ووادي الفرع.

مسجدًا، ثم على الصهباء[1]، ثم أقبل رسول الله بجيشه حتى نزل بوادٍ يقال له الرجيع، فنزل بينهم وبين غطفان، ليحول بينهم وبين أن يمدُّوا أهل خيبر، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ، فبلغني أن غطفان لما سمعت بمنزل رسول الله ﷺ من خيبر جمعوا له، ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه، حتى إذا ساروا مَنْقَلة[2] سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حسًّا، ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم فرجعوا على أعقابهم، فأقاموا في أهليهم وأموالهم وخلَّوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر يفتحها حصنًا حصنًا".

تأمل: عنصري المفاجأة والمداهمة، حيث لم يستطع يهود حصون خيبر أن يجمعوا قوتهم، وتأمل حيلولة رسول الله ﷺ بينهم وبين المدد، وتأمل الاحتياطات المتخذة لإبقاء غطفان في مواقعها[3].

لقد كان رسولنا العظيم ﷺ شجاعًا مقدامًا لم يتراجع في غزوة قط، وكان الأبطال يتراجعون، ومن المهاجرين والأنصار مَنْ يفرون أحيانًا، ولكنه ﷺ كان يثبت ثبات الجبال الراسيات لا يتزحزح عن موقفه، ولا يزول عن مكانه، وقد ثبت في مكانه في غزوة أحد التي غُلب فيها المسلمون.

ووقف ثابتًا في غزوة حنين، وقد فرَّ المسلمون على كثرتهم إذ ذاك، وكيف لصاحب رسالة أن يفرَّ أو أن يتراجع وهو أوثق الناس برسالته وجهاده وربه؟! ومع ذلك فقد كان رحيمًا في حربه مع أعدائه كما هو رحيم في سلمه بالناس جميعًا[4].

أجل هناك شخص واحد استطاع أن يجمع في نفسه صفات القيادة الناجحة، هذا الشخص هو النبي محمد ﷺ.

ومما سبق يتأكد لنا أن النبي ﷺ كان خير القادة وأقدرهم على تصريف الأمور، وأخبرهم بطبائع الرجال ومواهب أصحابه، بيد أننا مع هذا لا يمكننا عزل الجانب الإنساني في شخصه ﷺ عن الجانب التأييدي من الله ﷻ له بالوحي، فهذا مع ذاك أثمر لنا النبي القائد الماهر والسياسي المحنك، ولا نرى أي تعارض بين كونه ﷺ قائدًا عظيمًا وكونه نبيًّا مرسلًا، أليس النبي ﷺ بشرًا يُوحَى إليه؟!

الخلاصة:

كان النبي ﷺ خير القادة؛ لامتلاكه كل مقومات القيادة الناجحة، من قدرة على اتخاذ القرار الصحيح، وشجاعة وثبات، وإدراك للمسئولية، وبُعد للنظر، ومعرفته لمواهب أصحابه وقدراتهم... إلخ، ولم تجتمع كل هذه المقومات في شخص مثلما اجتمعت للنبي ﷺ، حتى إننا لا نبالغ حين نقول: إنه ﷺ كان أعظم القادة السياسيين الذين عرفتهم البشرية، ولكن هذا لا يتنافى بحال من الأحوال مع كونه نبيًّا مرسلًا، بل كل هذا يؤكد نبوته ﷺ؛ لأن أحدًا من البشر لا يستطيع أن يصل إلى ما وصل إليه النبي ﷺ إلا إذا كان مؤيدًا بالوحي الإلهي.

---

١. الصهباء: اسم موضع بالقرب من خيبر.

٢. المَنْقَلة: المرحلة من مراحل السفر.

٣. الرسول ﷺ، سعيد حوى، مرجع سابق، ص٢٣٠.

٤. حياة وأخلاق الأنبياء، أحمد الصبَّاحي عوض الله، دار اقرأ، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٣٩٢ بتصرف يسير.

الشبهة التاسعة عشرة

إنكار أمية النبي ﷺ(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المغالطين ما كان من أميته ﷺ، مدعين أنه كان يقرأ ويكتب، ولكنه دعا نفسه النبي الأمي؛ بغرض استمالة قلوب قومه للإيمان بدعوته، وللتأكيد على أنه لم يَتَلَقَّ القرآن من غيره، ويستدلون على ذلك بما يزعمونه من أنه ﷺ وقَّع بنفسه بعض الوثائق التاريخية مثل صلح الحديبية، وأنه ﷺ حين أدركته الوفاة طلب صحيفة ليكتب عليها اسم من يخلفه، وبما توهَّموه من تناقض في قوله عز وجل: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢) ﴾ (الجمعة).

ويتساءلون: كيف يطلب الله منه أن يتلو ويقرأ عليهم ويعلِّمهم الكتاب والحكمة وهو أميّ؟! بل كيف يُطْلَب منه أن يقرأ في قوله عز وجل: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) ﴾ (العلق). إن كان حقًّا لا يعرف القراءة؟! يقولون: إن محمدًا ﷺ كان تاجرًا ناجحًا؛ ولا بد أن يكون تعلَّم شيئًا من العلوم والفنون التي كانت منتشرة في مكة وما حولها أثناء أسفاره.

هادفين من وراء ذلك إلى إنكار حقيقة الأمية التي لازمت وصف النبي ﷺ بالنبوة؛ بغية التشكيك في النبوة ذاتها.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لقد أثبت القرآن الكريم في غير ما موضع أميَّة النبي ﷺ، قال عز وجل: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) ﴾ (العنكبوت: ٤٨).

٢) كان عدد من تعلموا القراءة والكتابة في مكة قليلًا؛ لاعتمادهم على الحفظ في الصدور، ولقد حصرتهم بعض المصادر وذكرت أسماءهم وهم سبعة عشر رجلًا ليس بينهم النبي ﷺ، بل اشتهر ﷺ بأميته ولم يثبت عنه أنه غاب عن مكة غيبة تمكنه من التعليم حتى في رحلاته التجارية.

٣) تؤكد الروايات الصحيحة أن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو الذي كتب صلح الحديبية بين النبي ﷺ وعمرو بن سهيل، وليس النبي ﷺ كما يزعمون.

٤) الحديث الذي جاء في الصحيحين من أن رسول الله ﷺ حينما أدركته الوفاة طلب صحيفة ليكتب عليها اسم من يخلفه، لم يشر - من قريب ولا من بعيد - إلى ما ذهب إليه الطاعنون من كتابة النبي ﷺ اسم من يخلفه بنفسه.

التفصيل:

أولا. القرآن الكريم أثبت في غير موضع أمية النبي ﷺ:

حفل القرآن الكريم بآيات كثيرة تدل على أمية النبي ﷺ، قال عز وجل: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) ﴾ (العنكبوت)، وقال الله عز وجل: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا

(*) مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، مرجع سابق. الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، د. محمود ماضي، دار الدعوة، القاهرة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م. موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.

﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ (الفرقان)[1]، وقوله ﷻ في محكم آياته: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٥٧﴾ (الأعراف)، وقال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ (الجمعة: ٢).

فهذه الآيات قاطعة الدلالة على أن النبي ﷺ كان أميًّا، بَيْدَ أن بعض المشككين فهم بعض هذه الآيات فهمًا خاطئًا، فأخذ يجعلها دليلًا على تعلم النبي ﷺ القراءة والكتابة، ومن هذه الآيات قول الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، إذ يتساءل هؤلاء: كيف يتلو النبي ﷺ ويزكي ويعلِّم وهو أمي لا يعرف القراءة والكتابة؟!

وحول المعنى المراد لكلمة "الأميين" يقول الإمام ابن عاشور: والأميون: الذين لا يقرءون الكتابة ولا يكتبون، وهو جمع أمي نسبة إلى الأمة، يعنون بها أمة العرب؛ لأنهم لا يكتبون إلا نادرًا، فغلب هذا التشبيه في الإطلاق عند العرب، حتى صارت الكلمة تطلق على من لا يكتب ولو من غيرهم، قال ﷻ في ذكر بني إسرائيل: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨﴾ (البقرة).

وأوثر التعبير به هنا مشاكلة على اليهود؛ لأنهم كانوا يقصدون به الغضَّ من العرب ومن النبي ﷺ جهلًا منهم، فيقولون: هو رسول الأميين وليس رسولًا إلينا، وقد قال ابن صياد للنبي ﷺ لما قال له: "أتشهد أني رسول الله"؟ فنظر إليه ابن صياد فقال: أشهد أنك رسول الأميين[2]، وكان ابن صياد متدينًا باليهودية؛ لأن أهله كانوا حلفاء لليهود.

وكان اليهود ينتقصون العرب بأنهم أميون قال ﷻ: ﴿قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ (آل عمران: ٧٥)، فتحدى الله اليهود بأن بعث رسولًا إلى الأميين، وبأن الرسول

---

١. قال ابن عاشور في التحرير والتنوير: وجملة "اكتتبها" نعت أو حال لـ "أساطير الأولين". والاكتتاب: افتعال من الكتابة، وصيغة الافتعال تدل على التكلُّف لحصول الفعل؛ أي حصوله من فاعل الفعل، فيفيد قوله "اكتتبها" أنه تكلف أن يكتتبها، ومعنى هذا التكلف أن النبي ﷺ لما كان أميًّا كان إسناد الكتابة إليه إسنادًا مجازيًّا، فيؤوَّل المعنى: أنه سأل من يكتبها له، أي ينقلها، فكان إسناد الاكتتاب إسنادًا مجازيًّا؛ لأنه سببه؛ والقرينة ما هو مقرر لدى الجميع من أنه أميّ لا يكتب، ومن قوله "فهي تُملَى عليه" لأنه لو كتبها بنفسه لكان يقرأها بنفسه، فالمعنى استنسخها، وهذا كله حكاية لكلام النضر بلفظه أو بمعناه، ومراد النضر بهذا الوصف ترويج بهتانه؛ لأنه علم أن هذا الزور مكشوف قد لا يُقبل عند الناس لعلمهم بأن النبي أمي، فكيف يستمد قرآنه من كتب الأولين؟ فهيَّأ لقبول ذلك أنه كُتبت له، فاتخذها عنده فهو يناولها لمن يحسن القراءة فيملي عليه ما يقصه القرآن.

والإملاء: هو الإملال، وهو إلقاء الكلام لمن يكتب ألفاظه أو يرويها أو يحفظها. وتفريع الإملاء على الاكتتاب كان بالنظر إلى أن إملاءها عليه كان ليقرأها أو ليحفظها. (التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٩، ج١٨، ص٢٣٥).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلَّى عليه (١٢٨٩)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد (٧٥٣٨).

أمي، وأعلمهم أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء كما في آخر الآية، وأن فضل الله ليس خاصًّا باليهود ولا بغيرهم، وقد قال ﷻ من قبل لموسى ﵇: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ (القصص).

ووصف الرسول ﷺ بأنه منهم - أي من الأميين - شامل لمماثلته لهم في الأمية وفي القومية، وفي وصف الرسول الأمي بأنه يتلو على الأميين آيات الله، ويزكيهم ويعلِّمهم الكتاب والحكمة التي علَّمها الرسل السابقون أممهم، في كل هذه الأوصاف تحدٍّ بمعجزة الأمية في هذا الرسول ﷺ، أي هو مع كونه أمِّيًّا، قد أتى أمته بجميع الفوائد التي أتى بها الرسل غير الأميين أممهم ولم ينقص عنهم شيئًا، فتمحضت الأمية للكون معجزة حصل من صاحبها أفضل مما حصل من الرسل الكاتبين مثل موسى ﵇[1].

أما بالنسبة لرواية بدء الوحي التي استدلوا بها على إنكار أمية النبي ﷺ، فإنها لا تدل على ما ذهبوا إليه من تعلم النبي ﷺ، بل إنها من الأدلة القوية على أميته؛ إذ جعلوا قول النبي ﷺ للملك - الذي كان يطلب منه القراءة - "ما أقرأ" استفهامًا عن المقروء، لا نفيًا للقراءة، مستدلين بما توهموه من عبارة الرسول ﷺ على عدم أميته، وإلا فما وجه استفهامه عن المقروء؟!

ومن الواضح أن المنهج الذي اعتمدوه في بحث هذه المسألة منهج قاصر تمامًا؛ لأنهم لم يعطوا أي قيمة لروايات الشيخين التي تنصُّ صراحة على الأمية؛ فقد ورد في الصحيحين: "ما أنا بقارئ" [2] عوض "ما أقرأ" التي جاءت في السيرة، وأكبر من هذا الخطأ أنهم لم يعطوا لأنفسهم فرصة القراءة التامة لرواية إمام السيرة - ابن هشام - التي تنص صراحة على الأمية، إذ ورد فيها مباشرة بعد العبارة التي اقتطعوها قوله ﷺ: "ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي" [3].

وهذا دليل على أن قوله: "ما أقرأ"؟ هو استفهام فعلًا - كما هو واضح - ولكن في الوقت نفسه يعتبر دليلًا على أن النبي ﷺ لم يكن يقرأ؛ ذلك لأنه قد أوضح بنفسه أن طلبه من الملك تعيين ما يطلب منه قراءته لم يكن إلا لخوفه من أن يعود إلى ضمه، كما حدث في كل مرة نفى فيها معرفته للقراءة قبل ذلك[4].

لا وجه - إذن - لتفسير آية الجمعة، أو آية العلق تفسيرًا خاطئًا يوهم بتعلم النبي ﷺ القراءة والكتابة، أو إنكار التفسير الحقيقي والقول بغيره للنيل من حقائق ثابتة في حق النبي ﷺ، ونفى ما وُصف به وما اقترن بنبوته.

على أن هناك بعض الغربيين قد أقر بأمية النبي ﷺ، فمن ذلك ما كتبه المسيو سيديو في كتابه "تاريخ العرب": "ولما كان رسول الله ﷺ غير متعلم مثل أبناء وطنه كان لا يعرف القراءة".

وقال الفيلسوف الإنجليزي توماس كارليل في

---

١. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج ١٣، ج٢٨، ص٢٠٨، ٢٠٩ بتصرف يسير.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي (٦٥٨١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله (٤٢٢).

٣. السيرة النبوية، ابن هشام، مرجع سابق، ج١، ص١٤٩.

٤. نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي المعاصر، د. لخضر شايب، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص٣٩٩، ٤٠٠ بتصرف.

كتابه "الأبطال": "ثم لا ننس شيئًا آخر وهو أنه لم يتلق دروسًا على أستاذ أبدًا، وكانت صناعة الخط حديثة العهد إذ ذاك في بلاد العرب، ويظهر لي أن الحقيقة هي أن محمدًا لم يكن يعرف الخط والقراءة، وكل ما تعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها".

وجاء في كتاب "الإسلام" تأليف الكونت هنري دي كاستري: "إن محمدًا ما كان ليقرأ أو ليكتب، بل كان ـ كما وصف نفسه مرارًا ـ نبيًّا أميًّا، وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه، ولا شك أنه يستحيل على رجل في الشرق أن يتلقى العلم بحيث لا يعلمه الناس؛ لأن حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان، على أن القراءة والكتابة كانت معدومة في ذلك الحين من تلك الأقطار" [1].

وإننا نجد في الكتاب المقدس ما يؤكد أميته ﷺ، فقد جاء في سفر إشعياء: "أو يُدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة، ويُقال له: اقرأ هذا، فيقول: لا أعرف الكتابة". (إشعياء ٢٩: ١٢). وعلينا أن نلفت الانتباه إلى أن هذا النص في صورته العربية التي نقلناها، مُحرَّف، والسبب أن أصحاب الترجمة العربية التي بين أيدينا يعلمون معنى هذا النص.

إن الذي يعنينا هو استعمال كلمة "القراءة" في هذه التراجم محل كلمة "الكتابة". فكيف يقول هؤلاء: "وقال له: اقرأ هذا، فيقول: لا أعرف الكتابة"؟! إن سياق الكلام يدل على التحريف المقصود؛ لأن سياق الكلام الصحيح في العبارة متمشيًا معها "لا أعرف القراءة" [2].

وعندما بعث النبي ﷺ بكتابه مع عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، ثم قرأه عليه قال النجاشي: أشهد بالله أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب، وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل [3]. وهكذا بشَّرت الكتب السماوية السابقة بصفة النبي ﷺ، وأنه نبي أمي يبعث في قوم أميين، رغم محاولة اليهود والنصارى تحريف ما جاء في كتبهم خاصًّا بهذا الشأن®.

ثانيًا. عدم معرفة النبي للقراءة والكتابة أمر ثابت، يدل عليه أنه ليس ممن اشتهروا بالقراءة والكتابة في الجاهلية:

لقد كان من شأن العرب أنهم أميون لا يعرفون القراءة والكتابة اللهم إلا النزر اليسير منهم، وقد حصرت بعض المصادر من يعرفون القراءة والكتابة في مكة في سبعة عشر رجلًا، وذكرت أسماءهم، ولم يكن منهم الرسول ﷺ، مما يدل بوضوح على عدم معرفته القراءة والكتابة تلك الأمية التي اشتهر بها ﷺ بين قومه، فلو رآه أحد وهو يكتب أو يقرأ لذاع ذلك عنه، وانتشر خبره في أرجاء الجزيرة العربية.

وهناك أيضًا من الغربيين من تبنَّى هذه النظرة الإسلامية المتمكِّنة في تأكيد أمية النبي محمد ﷺ مثل:

---

١. محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، مرجع سابق، ص٦٤، ٦٥ بتصرف.

٢. محمد رسول الله ﷺ في الكتب المقدسة، سامي عامري، مركز التنوير الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م، ص٣٠٣: ٣٠٥ بتصرف.

٣. المرجع السابق، ص٣١٢ بتصرف.

® في **"حكمة الله ﷻ في أمية النبي ﷺ"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الحادية عشرة، من هذا الجزء.

أماري، وكازيميرسكي، ومونتيه، إضافة إلى ول ديورانت، الذي قال: "ولكن يبدو أن أحدًا لم يُعْن بتعليمه القراءة والكتابة"، ولم تكن لهذه الميزة قيمة عند العرب في ذلك الوقت، ولهذا لم يكن في قبيلة قريش كلها إلا سبعة عشر رجلًا يعرفون القراءة، ولم يُعرف عن محمد أنه كتب شيئًا بنفسه، وكان بعد الرسالة يستخدم كاتبًا خاصًّا[1].

من هنا يتأكد بطلان الزعم القائل: بأن العلوم والفنون كانت شائعة في مكة قبل البعثة، وإذا سلمنا جدلًا أن مكة كانت تعجُّ وتمجُّ بالفنون والعلوم، فليس معنى ذلك أن النبي ﷺ تعلم القراءة والكتابة؛ إذ لا يلزم من شيوع الكتابة ببلد أن يكون أهله جميعًا متعلمين، والملاحظ أننا إذا توقفنا عند هذا الحد، فإننا نجد أن ما قرره هؤلاء لا يؤدي إلى أكثر من احتمال تعلمه ﷺ، ولكننا إذا تعمقنا في البحث فإننا نجد هذا الاحتمال يسقط من تلقاء نفسه؛ إذ لا يوجد أي دليل علمي يسنده، بل إن كل الأدلة تؤدي إلى بطلانه.

ومن الواضح أن منهج هؤلاء المشككين منهج معوج، إذ استندوا إلى استنتاج للأزرقي في تأكيد شيوع الكتابة بمكة، إذ ذكر "أن بلدًا مثل مكة كانت تكثر فيه التجارة، ولذلك ما كان يخلو من كثيرين يكتبون ويقرءون، فالتجارة تحتاج إلى الحساب، والحساب يحتاج إلى تدوين"، وتركوا الكثير من الأخبار الموثوقة التي تعرض لأمر التعلم بمكة في زمن البعثة.

ورغم أن أبا الوليد أحمد بن محمد الأزرقي (ت ٢١٩هـ) يعتبر مؤرخًا موثقًا لأخبار مكة المكرمة إلا أن استنتاجه يبقى مجرد استنتاج لا يعتمد على مادة علمية، إضافة إلى أنه يخالف ما اشتهر بين العلماء من أن مكة لم تكن تضم في ذلك الزمان أكثر من سبعة عشر رجلًا يقرءون ويكتبون، وهو عدد ينافي وصف "كثيرين" الذي ورد عنده.

والحقيقة أن التعلُّم في أرض الحجاز، في ذلك الزمان، لم يكن بالأمر الشائع ولا بالقضية المهمة التي يقصد الناس إلى تحصيلها، إذ كانوا يعتمدون - كما هو معلوم - على الحفظ في الصدور، وحتى التجارة فما كانت تحتاج بالضرورة إلى تدوين؛ لأنها لم تكن بهذه السَّعة التي شهدتها التجارة الحديثة، إضافة إلى أن معاملات كل تاجر لم تكن تتعدَّى أمواله وأموال بعض المضاربين.

ولم تذكر لنا المصادر رواية عن معاملة تجارية تمت بواسطة التدوين، وفي ظل هذه الظروف لم يكن من الضروري أن يتعلم النبي ﷺ القراءة والكتابة لتسيير شئونه التجارية، أضف إلى هذا وذاك أن المتعلمين من أهل مكة والمدينة كانوا معروفين مشهورين بين الناس باختصاصهم بهذا الفن؛ فقد ذكرت المصادر أسماء السبعة عشر مَكِّيًّا العارفين بالقراءة، كما أوردت أسماء المدنيين، إضافة إلى عدد من النساء المتعلمات، وفي إمكانية حصرهم مهما بلغ عددهم دليل قوي على قلة المتعلمين في الحجاز آنذاك.

هذا ولم يثبت أن سيدنا محمدًا ﷺ خرج من مكة وغاب عنها غيبة طويلة تمكنه من التعلم في تلك الرحلات التجارية، وكل ما ورد في كتب السيرة أنه ﷺ خرج مرتين إلى الشام، مرة مع عمه أبي طالب، ومرة مع ميسرة غلام السيدة خديجة بنت خويلد، فأين تعلم

---

١. نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي المعاصر، د. لخضر شايب، مرجع سابق، ص٣٨٩.

محمد ﷺ الكتابة؟ وهل كان محمد ﷺ في خفاء من قومه أثناء تعلمه القراءة والكتابة، أم كان معهم أثناء تلك الرحلات التجارية؟! ألم يعلم أحد من قومه ممن كان يرتحل معه للتجارة بهذا الأمر - ولو مصادفة - أثناء تلك الرحلات المتكررة كما يزعمون؟!

إن التجارة لا ترتبط بالقراءة والكتابة، فكم من أمي برع في فنون التجارة!! بالإضافة إلى أن العرب لم يكونوا يديرون تجارتهم بكتابة العقود، وتوثيقها، وإنما كانت تجارة الرحلات تجارة مقايضة وتبادل البضائع، وبيع بالثمن العاجل.

وإذا تذكرنا أن النبي ﷺ لما كان صادقًا أمينًا ذاعت هاتان الصفتان وعُرف بهما؛ تساءلنا: لماذا لم تذع أيضًا صفة العلم بالقراءة والكتابة؟ ولماذا لم يُقَل إنه ﷺ كان صادقًا أمينًا قارئًا كاتبًا؟!

ومعلوم أنه ﷺ لم يُشاهَد يومًا وهو يحمل أداة لتدوين القرآن مع أنه كان أحب الأشياء إلى قلبه، بل كان ينتظر حضور أحد أصحابه من أجل أن يُملي عليه ما أراد كتابته. وأكثر دلالة مما ذكرنا أن الوحي كان يتنزل عليه بالليل، وفي السفر، وقد كان من البديهي تمامًا أن يسجل القرآن بيده في هذه الحالات لو كان عارفًا بالكتابة، ولكنه لم يُشاهد وهو يدوِّن آية في صحيفة، ولو مرة واحدة.

وشبيه بهذا في الدلالة على أمية النبي محمد ﷺ اتخاذه كتبة لتدوين مراسلاته ﷺ إلى الدول، والإمارات المحيطة بأرض العرب، إضافة إلى تسجيل عهوده ومواثيقه ورسائله إلى أمرائه، ولم يحدث مرة أن تولى بنفسه تدوين شيء من هذه الأمور، ومن المعلوم أنه لو حدث شيء من هذا القبيل لعمَّ العلم به بين الناس، فلما سكتت الروايات عن ذلك كان دليلًا قويًا على عدم حدوثه[1].

ثالثًا. تؤكد الروايات الصحيحة أن الذي كتب صلح الحديبية بين النبي ﷺ وعمرو بن سهيل هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

لقد ساندت الكثير من الروايات الصحيحة إثبات صفة عدم معرفة النبي ﷺ بالقراءة، ومن ذلك ما أورده البخاري في صلح الحديبية، قال: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتابًا، فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي: "اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم"، قال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهم، كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله، لا نكتبها إلا: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ: "اكتب: باسمك اللهم"، ثم قال: "هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله"، فقال سهيل: والله، لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: "والله، إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب: محمد بن عبد الله".[2] وقد ورد في سيرة ابن إسحاق مثل ذلك، وتعيَّن فيها - وفي روايات أخرى - الكاتب فجعلته علي بن أبي طالب[3].

ومثله أيضًا ما جاء أن قريشًا صالحوا النبي ﷺ فيهم سهيل بن عمرو. فقال النبي ﷺ لعليٍّ: "اكتب: بسم الله

---

١. المرجع السابق، ص٣٩٥: ٣٩٧ بتصرف.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٥٨١).

٣. نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي المعاصر، د. لخضر شايب، مرجع سابق، ص٣٩٧.

الرحمن الرحيم". قال سهيل: أما باسم الله، فما ندري: بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب ما نعرف: باسمك اللهم، فقال: "اكتب: من محمد رسول الله"، قالوا: لو علمنا أنك رسول الله لاتبعناك. ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال النبي ﷺ: "اكتب: من محمد بن عبد الله"، فاشترطوا على النبي ﷺ: أن من جاء منكم لم نرده عليكم، وما جاء منا رددتموه علينا. فقالوا: يا رسول الله، أنكتب هذا؟ قال: "نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاء منهم، سيجعل الله له فرجًا ومخرجًا"[1].

وجاء في "تاريخ الطبري" عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: ثم دعاني رسول الله ﷺ فقال: "اكتب: باسم الله الرحمن الرحيم"، فقال عمرو بن سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم، فقال رسول الله: "اكتب: باسمك اللهم"، فكتبتها، ثم قال: "اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو"، فقال سهيل بن عمرو: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، قال: فقال رسول الله ﷺ: "اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو"، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين[2].

على أن هذه الروايات جميعها دالة دلالة قاطعة على أن كاتب الصلح هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويبدو أن هؤلاء المشككين لم يُحكِّموا ما اشتهر بين الناس، ودلت عليه الروايات الصريحة السابقة من أمر أُمِّيَّة النبي ﷺ في فهم الأخبار التي اعتمدوا عليها، والتي قد توحي ألفاظها بتعلمه ﷺ مع أن البحث العلمي الحقيقي يوجب أن نحتكم إلى قطعي الدلالة في فهم الظني، ومن الروايات الكثيرة والتي فيها أنَّ عليًّا رضي الله عنه هو الذي تولى كتابة صحيفة عهد الحديبية من بدايتها إلى نهايتها، نجد بعض الروايات التي تفيد بأنه هو الذي دلَّ النبي ﷺ على موضع الكلمة المراد محوها؛ ليمحوها النبي ﷺ بنفسه.

وننبه هنا على أن الكثير من الأحاديث تُروَى بالمعنى؛ ولذلك يجب ألا يتوقف الباحث عند ألفاظ مثل هذه الأحاديث، بل عليه أن يضع نصوصها في إطار علم الراوي بأمر ما، وأيضًا علم المروي له بهذا الأمر بالذات، وقد كان جميع رواة هذه الأخبار يعلمون أميته، ويعلمون أن الإمام عليًّا رضي الله عنه هو الذي تولى كتابة الصحيفة كما دلت على ذلك غيرها من رواياتهم.

أما المتلقون لهذه الروايات فقد كانوا يعلمون ما كان يعلمه الرواة من أمر جهله بالقراءة، ولهذا فقد وضعوا الروايات في إطارها الطبيعي، وفهموا من نصِّ بعض الروايات التي تقول: "فمحاه رسول الله ﷺ وكتب" أمرًا واحدًا، وهو أن هذه رواية بالمعنى، وأنها تحتوي على إحالة إلى الروايات الأخرى من أن عليًّا هو الذي دَلَّ النبي ﷺ على الكلمة المراد حذفها، وقد تولى النبي ﷺ بنفسه هذه المهمة التي رفض كاتبه القيام بها، ثم أعاد له الكتاب ليتم تدوين العهد.

من الواضح ـ إذن ـ أن الروايات التي ذكرناها كلها روايات محمولة بعضها على بعض، وتفسر بعضها بعضًا، وأوضح دليل على أميته ﷺ قوله لعلي: "أرني

1. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية (٤٧٣٢).
2. تاريخ الأمم والملوك، الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ، ج٢، ص١٢٢.

مكانها" [1]. فلو كان قارئًا كاتبًا؛ لما قال ذلك، ولعرف مكان عبارة "محمد رسول الله".

كما أن رواية البخاري التي جاء فيها أن النبي ﷺ كتب: "محمد رسول الله" ليس فيها ما يثبت أنه ﷺ كان يعلم القراءة والكتابة؛ "فقد ورد في كثير من الأحاديث إطلاق لفظ "كتب" بمعنى: أمر بالكتابة، منها حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - "أن النبي ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر" [2]، وحديث عبد الله بن عُكيم: "كتب رسول الله ﷺ إلى جهينة: ألا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب" [3]، ونحو ذلك كثير، وهذا مثل قوله في حديث أنس أن رسول الله ﷺ اتخذ خاتمًا من فضة ونقشه "محمد رسول الله" [4]، ولا شك أن رسول الله ﷺ لم ينقشه بيده، وإنما أمر الصائغ بنقشه" [5].

حتى ولو افترضنا جدلًا أنه ﷺ قد كتب اسمه بيده في ذلك اليوم، فهذا لا يخرجه من كونه أميًّا، فإن كثيرًا ممن لا يحسن الكتابة يعرف صور بعض الكلمات، ويحسن وضعها بيده، وخصوصًا الأسماء ولا يخرج بذلك عن كونه أميًّا، خاصة إذا علمنا أن عبارة "محمد رسول الله" كانت منقوشة على خاتمه ﷺ [6].

رابعًا. الحديث الذي جاء في الصحيحين لا يشير لا من قريب ولا من بعيد إلى ما ذهب إليه الطاعنون من كتابة النبي ﷺ اسم من يخلفه:

أمّا ما رُوي عن ابن عباس من قوله: لما حضر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال، فقال النبي ﷺ: "هلموا أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده"، فلما تنازعوا عنده وكثر اللَّغط[7] قال لهم ﷺ: "قوموا" [8]، إن النبي ﷺ لم يكتب طوال حياته وحتى عند مماته، ولم يرد أي نص يؤكد ذلك، فليس معنى "أكتب" التي جاءت في الحديث أنه ﷺ سيكتب بخط يده، وإنما هي من قبيل قولنا اليوم: بنى رئيس الجمهورية السد، بنى الملك خوفو الهرم الأكبر، شق وزير المواصلات طريقًا، والمعنى في اللغة واضح، أي: أمر رئيس الجمهورية ببناء السد، وأمر الملك خوفو ببناء الهرم الأكبر، وأمر وزير المواصلات بشق الطريق، وهكذا.

وهذا يفسر حديثًا آخر في صحيح البخاري عن سهيل بن عمرو: "كاتبه رسول الله ﷺ فكاتبه" [9]، فالمفهوم منه أنه أمر بمكاتبته!! ويرجّح هذا ما رُوي عن ابن عباس في قوله ﷻ: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية (٤٧٣١).

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتب النبي إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله ﷻ (٤٧٠٩).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث عبد الله بن عكيم ﷺ (١٨٨٠٧)، والنسائي في المجتبى، كتاب الفرع والعتيرة، باب ما يدبغ به جلود الميتة (٤٢٥١)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي (٤٢٥١).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب نقش الخاتم (٥٥٣٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة (٥٦٠١).

٥. اللفظ المكرم بخصائص النبي ﷺ، الحافظ قطب الدين الخضيري، تحقيق: محمود أحمد عبد المحسن، رسالة دكتوراه، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص١٣٦، ١٣٧ بتصرف.

٦. المرجع السابق، ص١٣٧ بتصرف.

٧. اللَّغط: الصوت المختلط غير المفهوم.

٨. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب فرض النبي ﷺ ووفاته (٤١٦٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه (٤٣٢٢).

٩. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية (٣٩٤٥).

﴿مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨﴾ (العنكبوت) أنه قال: لم يكن رسول الله ﷺ يقرأ ولا يكتب، كان أميًّا[1]، وكذلك ورد عن أئمة التفسير أن الضمير في قوله (من قبله) عائد على الكتاب، وهو القرآن المنزل عليه ﷺ، أي: ما كنت يا محمد تقرأ قبله ولا تختلف إلى أهل الكتاب، بل أنزلناه إليك في غاية الإعجاز والتضمن للغيوب وغير ذلك، فلو كنت ممن يقرأ كتابًا ويخط حروفًا؛ لارتاب المبطلون، أي: من أهل الكتاب، وكان لهم في ارتيابهم متعلق، وقالوا: الذي نجده في كتبنا أمي لا يكتب ولا يقرأ وليس به[2].

كما أن المتأمل في حديث كتابة النبي ﷺ عند موته يجد أنه ﷺ لم يشر - لا من قريب ولا من بعيد - إلى ذكر من يكون خليفته، فقد تركها ﷺ شورى بين المسلمين، يدل على ذلك قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما طُعِن وقال له الناس: استخلف فقال: "إن أستخلف فقد استخلف من هو خيرٌ مني (يقصد أبا بكر الصديق)، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني (يقصد النبي ﷺ)"[3]®.

الخلاصة:

- أثبت القرآن الكريم أمية النبي ﷺ في أكثر من آية من آياته، ومنها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨﴾ (العنكبوت)، وغيرها من الآيات الكثيرة الدالة على أميته ﷺ، وجاء أيضًا في الكتاب المقدس - بعهديه - ما يثبت هذه الصفة للنبي ﷺ رغم تحريفهم إياه.
- بالنظر إلى الحالة البدوية الصحراوية التي نشأ فيها النبي ﷺ نجد قلة عدد من تعلموا القراءة والكتابة، بل لقد ذكرت بعض المصادر أسماءهم، وعددهم سبعة عشر رجلًا، وليس النبي ﷺ أحد هؤلاء.
- أكدت الروايات الصحيحة أن الذي كتب صلح الحديبية هو سيدنا علي رضي الله عنه وليس النبي ﷺ، حيث أشارت إلى أن النبي ﷺ كان يقول: اكتب، وكررها أكثر من مرة، كذلك أشارت إلى عدم رغبة سيدنا عليٍّ في محو كلمة رسول الله، فقال له النبي ﷺ: أرنيها، ثم محاها ﷺ بيده بعدما أشار إليها سيدنا علي رضي الله عنه.
- لو كان النبي ﷺ يقرأ ويكتب لما خفي على أحد من أعدائه هذا الأمر، ولكانوا أعلنوه، واتهموه بأنه مؤلف القرآن الكريم، إذ وصفوه بأوصاف كثيرة؛ ليبعدوا الناس عن دينه، وكانوا يتربصون به حتى يجدوا دليلًا يستندون إليه في طعنهم في القرآن الكريم.
- إن النبي ﷺ لم يتفرد برحلة تجارية طويلة، حتى يُظَن أنه تعلَّم القراءة والكتابة فيها، وإنما لم يخرج للتجارة سوى مرتين: مرة مع عمه أبي طالب ومرة مع مَيسَرة غلام السيدة خديجة بنت خويلد.
- إن الكتابة التي نُسبت إلي النبي ﷺ في الحديث الذي ورد عنه في مرض الموت هي من قبيل الأمر

---

1. أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٠/ ٥٠)، تفسير سورة العنكبوت.
2. اللفظ المكرم بخصائص النبي ﷺ، الحافظ قطب الدين الخضيري، مرجع سابق، ص١٣١.
3. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب الاستخلاف (٦٧٩٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الاستخلاف وتركه (٤٨١٧).

® في **"أسباب عدم تعيين النبي ﷺ خليفة له"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الرابعة، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته).

بالكتابة وليست من قبيل مباشرة الكتابة، ومثال ذلك قولهم: بنى الرئيس السد، أي: أمر ببنائه.

الشبهة العشرون

التشكيك في نبوته ﷺ بإنكار شفاعته (*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المغالطين شفاعة النبي ﷺ زاعمين أن القرآن الكريم أنكر الشفاعة عامة، ويمثلون لزعمهم: بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾ (يونس)، وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤)﴾ (السجدة)، وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤)﴾ (الزمر)، متوهمين أن في ذلك ما يدلُّ على إنكارها.

ويهدفون من وراء ذلك إلى الطعن في نبوته ﷺ والتشكيك فيها.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إن هذه الآيات التي توهموا فيها دليلًا على إنكار شفاعة النبي ﷺ هي في الحقيقة إنما تنفي الشفاعة عن الأصنام التي اعتقد المشركون أنها تشفع لهم عند ربهم.

٢) شفاعة النبي ﷺ ثابتة بالقرآن والسنة والإجماع، وهذا لا خلاف فيه بين أهل العلم قديمًا وحديثًا.

(*) أسئلة بلا أجوبة، صموئيل عبد المسيح، موقع الكلمة.

٣) إن في شفاعة النبي ﷺ من المقاصد والحكم ما جهله هؤلاء فأنكروها، ومن تلك الحكم والمقاصد يتبين أنها أدل مظهر من مظاهر رحمة الله وتكريمه لهذه الأمة ولنبيها ﷺ.

التفصيل:

أولا. الآيات تنفي الشفاعة عن الأصنام لمن يعبدها:

يجدر بنا أن نقف على هذه الآيات الكريمة لنرى هل جاءت هذه الآيات لتنفي الشفاعة عن النبي ﷺ حقًّا؟! أم أن أصحاب هذه الشبهة قد أخطئوا وضلُّوا بعيدًا بعقولهم وأفئدتهم؟ فالحق عز وجل يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾ (يونس).

وجاء الحق بمسألة الشفاعة بعد مسألة تدبير الأمر؛ لأن هؤلاء الكافرين الذين تعجبوا من إرسال الله لرسوله ﷺ كانوا يعبدون ما لا يضرهم ولا ينفعهم، ويقولون: إن تلك الأصنام تشفع لهم عند الله، مصداقًا لقول الحق عز وجل: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨)﴾ (يونس). ولذلك يفصل الحق تعالى مسألة الشفاعة، وليس في هذا ما ينفي شفاعة الحبيب المصطفى ﷺ، بل إنه يؤكدها، وجاءت هذه الآية لأن الكفار على عهد رسول الله ﷺ كانوا يقولون عن تلك الأصنام إنهم شفعاء لهم عند الله، فيقول الحق تعالى في الآية التي نحن بصدد الحديث عنها: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ (يونس: ٣)؛ لأن

الشفاعة تقتضي شافعًا ومشفوعًا عنده، ومشفوعًا له، ومشفوعًا فيه، هذه هي عناصر الشفاعة الأربعة، والذي يستشفع هو المقصر، وهؤلاء الكفار قالوا عن الأصنام إنها شفعاء لهم عند الله، وهذا إقرار منهم بالتقصير، كما أقروا بأن المشفوع عنده هو الله، وأما المشفوع فيه فهو تخفيف العذاب أو إنهاء العذاب.

فالمشفوع فيه إذن أمر مشترك، والمشفوع عنده أمر مشترك، أما الأمر في الشافع، والأمر في المشفوع له، فهما مختلفان، ومن المعلوم بداهة أنك لو أردت شفاعة أحدٍ عند أحد للزم الأمر من أن يكون للشفيع درجة عند المشفوع عنده، وأن يأذن له، وإذا كانت هذه هي الحال في الشفاعة من البشر لدى البشر، فما بالنا بالشفاعة للإنسان لدى الله؟ لذلك بيَّن الحق هنا أن الشفيع لا بد أن يكون بإذن منه ﷻ: ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ ﴾ (يونس: ٣). وفي سورة البقرة يقول ﷻ: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وفي آية أخرى يقول ﷻ: ﴿ يَوۡمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ﴿١٠٩﴾ ﴾ (طه).

إذن فالشفيع لا بد له من إذنٍ ورضا من الله، أما المشفوع له فقد قال الحق تعالى: ﴿ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الأنبياء).

هكذا بيَّن لنا الحق عناصر الشفاعة: الشافع، المشفوع له، والمشفوع عنده، وهو الله سبحانه، والمشفوع فيه وهي الذنوب المعروفة، وهذه الشفاعة جعلها الله ﷻ للعبد حتى إذا أخطأ علم أن هناك شفاعة فيقْبل على الشفيع فيحبه ويتبع أوامره، وقد جعل الحق ﷻ الشفاعة لرسول الله ﷺ تكريمًا له ﷺ، وكذلك في المأذون له في الشفاعة، حتى يعلم المسلم أن الرسول قد يشفع له، وأن المؤمن قد يشفع لأخيه، وأن الأب قد يشفع لابنه، وحين يعلم المسلم ذلك، فهو يحسن إلى كل هؤلاء، لعله يحصل على الشفاعة منهم، ويحسن اتِّباع سنة النبي ﷺ، ويحسن معاملة المؤمنين، ويحسن الابن معاملة والديه، وهكذا يعيش المجتمع في كرامة الشفاعة بعمل الخير وإخلاص النية[1].

وخلاصة القول في هذه المسألة ما ذكره القرطبي في تفسيره إذ يقول: "فلا يشفع أحد؛ نبي ولا غيره إلا بإذنه ﷻ، وهذا رد على الكفار في قولهم فيما عبدوه من دون الله: ﴿ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ، فأعلمهم الله أن أحدًا لا يشفع لأحدٍ إلا بإذنه، فكيف بشفاعة أصنام لا تعقل"[2]؟!! فالقرآن ـ كما بيَّنا ـ نفى أن تكون للآلهة الزائفة شفاعة، وأن يكون للمشركين شفيعٌ يطاع، كما قال الله ﷻ: ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾ (غافر).

فالقرآن يعبر كثيرًا عن الشرك بالظلم، وعن المشركين بالظالمين، فإن الشرك ظلم عظيم، بيد أن القرآن أثبت الشفاعة بشرطيها:

الأول: أن تكون بعد إذن الله ﷻ للشافع أن يشفع، فلا أحد يملك أن يوجب على الله شيئًا كائنًا من كان، قال الله تعالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

---

١. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، القاهرة، ط١، ١٩٩١م، ج٩، ص٥٧٠٦: ٥٧١٠ بتصرف.

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج٨، ص٢٧٣ بتصرف.

الثاني: أن تكون الشفاعة لأهل التوحيد، كما قال ﷻ في شأن ملائكته: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ (الأنبياء: ٢٨). وقوله ﷻ في شأن المكذبين بيوم الدين: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (المدثر)، يفيد بمفهومه أن ثمة شافعين، وأن غيرهم تنفعه شفاعة الشافعين، وهم من مات على الإيمان، فالقرآن إذن لم ينف مطلق الشفاعة، ولكنه نفى الشفاعة التي ادعاها المشركون والمحرِّفون، والتي كانت من أسباب فساد كثير من أتباع الديانات، الذين يقترفون الموبقات[1].

ثانيًا. ثبوت شفاعة النبي ﷺ بالقرآن الكريم والسنة والإجماع:

إن شفاعة النبي ﷺ ثابتة بالقرآن والسنة والإجماع ولا خلاف بين أهل العلم في ذلك وهي نوعان:

- **شفاعة للإنسانية كلها**، تنال من آمن من أتباع جميع الأنبياء، وتسمى "الشفاعة العظمى".
- **شفاعة لأمة الإسلام.**

أما الشفاعة العظمى: فثابتة بالقرآن الكريم وذلك في قوله ﷻ: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ (الإسراء).

فقول الله ﷻ: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ هنا تفيد القطع والوجوب؛ لأنها من كلامه ﷻ الخلاق القادر المقتدر، والمعنى: إن الله سيبعثك مقامًا محمودًا، أي مقامًا يحمده لك كل الناس، ولقد فسره ﷺ بأنه: "الشفاعة العظمى". فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ في قوله ﷻ: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾، وسئل عنها، فقال: "هي الشفاعة" [2].

وعن كعب بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: "يُبعث الناس يوم القيامة، فأكون أنا وأمتي على تل، ويكسوني ربي ﷻ حلة خضراء، ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود" [3].

ومما يثبت شفاعته ﷺ ويؤكدها حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "يجمع الله الناس يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا، فيأتون آدم فيقولون: أنت الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، فاشفع لنا عند ربنا، فيقول: لست هُناكم[4]، ويذكر خطيئته، ويقول: ائتوا نوحًا أول رسول بعثه الله، فيأتونه، فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته، ائتوا إبراهيم الذي اتخذه الله خليلًا، فيأتونه، فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته، ائتوا موسى الذي كلمه الله فيأتونه، فيقول: لست هناكم، فيذكر خطيئته، ائتوا عيسى، فيأتونه

---

١. كيف نتعامل مع السنة النبوية، د. يوسف القرضاوي، دار الشروق، القاهرة، ط٤، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٢٢.

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ (٩٧٣٣)، والترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة بني إسرائيل (٣١٣٧)، وصححه الألباني في ظلال الجنة (٧٨٤).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكيين، حديث كعب بن مالك الأنصاري ﷺ (١٥٨٢١)، وابن حبان في صحيحه، كتاب التاريخ، باب الحوض والشفاعة (٦٤٧٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٣٧٠).

٤. لست هُناكم: لست أهلًا لذلك.

فيقول: لست هناكم، ائتوا محمدًا ﷺ فقد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني فأستأذن على ربي، فإذا رأيته وقعت له ساجدًا، فيدعني ما شاء الله، ثم يقال لي: ارفع رأسك، وسل تعطه، وقل يُسمع لك، واشفع تُشفَّع، فأرفع رأسي، فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحدُّ لي حدًّا، ثم أخرجهم من النار، وأدخلهم الجنة، ثم أعود فأقع ساجدًا مثله في الثالثة أو الرابعة، حتى ما يبقى في النار إلا من حبسه القرآن"[1].

فالحديث فيه بيان أنه ﷺ يشفع للبشر لبدء الحساب، وأول من يحاسب أمته فيشفع لها أيضًا ﷺ، وفيه إثبات الشفاعة العظمى وشفاعته لأمته ﷺ، وفي رواية أخرى لهذا الحديث: "ثم تلا الآية: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ قال: وهذا المقام المحمود الذي وُعِدَه نبيكم ﷺ"[2].

ومما يثبت شفاعته ﷺ أيضًا قول الله ﷻ: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ ﴾ (الضحى)، ومعنى ذلك أن كل نبي حريص على نجاة أمته يوم القيامة، ولقد ذكر ﷺ الأنبياء وحرصهم على أممهم، فطمأنه ﷻ.

وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ تلا قول الله ﷻ في إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ (إبراهيم)، وقال عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ (المائدة). فرفع يديه وقال: "اللهم أمتي أمتي، وبكى"، فقال الله ﷻ: "يا جبريل، اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسَلْه ما يبكيك"، فأتاه جبريل عليه السلام فسأله وأخبره رسول الله ﷺ بما قال - وهو أعلم - فقال الله: "يا جبريل، اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك، ولا نسُوؤك"[3].

ومن هنا فسر بعض الأئمة هذه الآية: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ ﴾ بالشفاعة، يشفع لأمته وللبشرية كلها، ببدء الحساب، ويشفع ﷺ لأمته برفع درجات بعضهم، وبخروج بعضهم من النار؛ فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير هذه الآية الكريمة: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ ﴾ قال: لا يرضى محمد ﷺ وأحد من أمته في النار[4].

وفي الحديث تصريح بأن الشفاعة منَّة من الله على رسوله محمد ﷺ، وأن الله ﷻ يُرضِي بالشفاعة رسول الله ﷺ.

وعن عمران بن حصين - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: "يخرج قوم من النار بشفاعة محمد ﷺ فيدخلون الجنة يسمون الجهنميين"[5].

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار (٦٠٨٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (٤٩٥).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، معلقًا بصيغة الجزم، كتاب التوحيد، باب قول الله ﷻ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ (القيامة) (٧٠٠٢).

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم (٥٢٠).

٤. ذكره السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٥٤٢)، وعزاه إلى الخطيب في تلخيص المتشابه.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار (٦١٩٨).

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "أنا أكثر الأنبياء تبعًا يوم القيامة، وأنا أول من يقرع باب الجنة"[1].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجَّل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا"[2].

وفيه أن الشفاعة دعوة، فكل نبي له دعوة عامة في أمته يعطاها، محققة الاستجابة، دعوة لها قدرها، ومحمد ﷺ لم يدع هذه الدعوة، وإنما ادخرها يسأل الله ﷻ خيرًا لأمته يوم القيامة، وعليه فالشفاعة ليست مشاركة لله ﷻ، وليست نفوذًا للشافع في ملك الله، وإنما الشفاعة رجاء ودعاء، تضرُّع وبكاء، فيستجيب مالك الأرض والسماء. وفي الحديث أيضًا أن الشفاعة لأهل التوحيد، أما من مات على الشرك فلا نصيب له فيها.

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: "من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آتِ محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته، حلَّت له شفاعتي يوم القيامة"[3].

عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: "أُعطيت خمسًا لم يعطهنَّ أحد قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ، وأُحلَّت لي المغانم، ولم تحل لأحد قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس عامة"[4].

ففي الحديث يقول ﷺ: "وأُعطيت الشفاعة": أي إن الله ﷻ منَّ بها عليه، وأنعم بها عليه، إنها ليست من ذات محمد، إنما هي منَّةٌ من الله تعالى عليه: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (البقرة: ٢٥٣)، فهذا كان إثبات بعض من شفاعته ﷺ من القرآن والسنة النبوية[5].

ولا تقتصر شفاعة الرسول ﷺ على الشفاعة العظمى فقط، بل كانت له شفاعات خاصة لأمة الإسلام منها:

شفاعته ﷺ في أهل الكبائر من أمته ممن دخلوا النار أن يخرجوا منها:

فعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي"[6]، هذه الشفاعة حق يؤمن بها أهل السنة والجماعة كما آمن بها جميع

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في قول النبي: "أنا أول الناس يشفع في الجنة" (٥٠٥).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب لكل نبي دعوة مستجابة (٥٩٤٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب اختباء النبي دعوة الشفاعة لأمته (٥١٢)، واللفظ له.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة بني إسرائيل الإسراء (٤٤٤٢).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، أوائل كتاب التيمم (٣٢٨)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، أوائل المساجد ومواضع الصلاة (١١٩١)، واللفظ للبخاري.

٥. الرد على د. مصطفى محمود في إنكار الشفاعة والرد على اللواء محمد شبل في إنكار يوم عرفة، د. عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٣٠: ٣٦.

٦. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك ﷺ (١٣٢٤٥)، وأبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في الشفاعة (٤٧٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٦٤٩).

الصحابة ﷺ.

قال ابن خزيمة: قوله ﷺ: "شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي" فإنما أراد شفاعتي بعد هذه الشفاعة التي عمَّت جميع المسلمين، هي شفاعة لمن أُدخل النار من المؤمنين بذنوب وخطايا قد ارتكبوها، فمعنى قوله ﷺ: "شفاعتي لأهل الكبائر" أي: من ارتكب من الذنوب الكبائر، فأدخل النار بالكبائر، إذ الله ﷻ وعد تكفير الذنوب الصغائر باجتناب الكبائر على ما هو ظاهر وواضح في قوله ﷻ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ (النساء).

ونجد كذلك أن الأحاديث تصرِّح بخروج المذنبين من النار، ومنها:

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم، فأماتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحمًا أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر[١] ضبائر، فبثوا[٢] على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل"[٣][٤].

قال النووي: معنى هذا الحديث أن الكفار الذين هم أهل النار، والمستحقون للخلود لا يموتون فيها، ولا يحيون حياة ينتفعون بها، ويستريحون معها، كما قال الله ﷻ: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ (فاطر: ٣٦)، وكما قال ﷻ: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ (الأعلى)، وهذا جاء على مذهب أهل الحق، أن نعيم أهل الجنة دائم، وأن عذاب أهل الخلود في النار دائم.

وأما قوله: "ولكن أصابتهم النار" إلى آخره، فمعناه: أن المذنبين من المؤمنين يميتهم الله تعالى إماتة بعد أن يُعذَّبوا المدة التي أرادها الله ﷻ، وهذه إماتة حقيقية يذهب معها الإحساس، ويكون عذابهم على قدر ذنوبهم ثم يميتهم، ثم يكونون محبوسين في النار من غير إحساسٍ المدةَ التي قدرها الله تعالى، ثم يخرجون من النار موتى قد صاروا فحمًا فيحملون ضبائر كما تحمل الأمتعة، ويلقون على أنهار الجنة، فيصب عليهم ماء الحياة فيحيون وينبتون نبات الحبة في حميل السيل في سرعة نباتها وضعفها، فتخرج لضعفها صفراء ملتوية ثم تشتد قوتهم بعد ذلك، ويصيرون إلى منازلهم، وتكمل أحوالهم، فهذا هو الظاهر من لفظ الحديث ومعناه.

وأما قوله ﷺ "ضبائر ضبائر" فمعناه: جماعات في تفرقة، وأما قوله "فبثوا" معناه: فُرقوا[٥].

شفاعة الرسول ﷺ لأهل الجنة أن يدخلوها:

وذلك أن أهل الجنة إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة، فيقتص لبعضهم من بعض، وهذا القصاص غير القصاص الذي كان في عَرَصات القيامة، بل هو قصاص أخص، يطهِّر الله فيه القلوب، ويزيل ما

١. الضَّبائر: الجماعات المتفرقة.

٢. بثَّ: فرَّق.

٣. حميل السيل: ما يحمله السيل من طين وغثاء، والمقصود بذلك سرعة الإنبات.

٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار (٤٧٧).

٥. صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، مج٢، ج٣، ص٣٨.

فيها من أحقاد وضغائن، فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا أذن لهم في دخول الجنة، ولكنهم إذا أتوا إلى الجنة لا يجدونها مفتوحة، كما يجد ذلك أهل النار، فلا تفتح الأبواب حتى يشفع النبي ﷺ لأهل الجنة أن يدخلوها، فيدخل كل إنسان من باب العمل الذي يكون أكثر اجتهادًا فيه من غيره، وإلا فإن المسلم قد يُدعى من كل الأبواب.

وهذه الشفاعة يشير إليها القرآن الكريم؛ فإن الله تعالى قال في أهل الجنة: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ﴾ (الزمر: ٧٣). وهذا يدل على أن هناك شيئًا بين وصولهم إليها وبين فتح الأبواب، وهو صريح في قول رسول الله ﷺ: "يجمع الله ﷻ الناس، فيقوم المؤمنون حتى تُزلَف[١] الجنة، فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا، استفتح لنا الجنة" وذكر الحديث وفيه: "فيأتون محمدًا فيقوم، فيؤذن له"[٢]، وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "أنا أول شفيع في الجنة"[٣].

شفاعته ﷺ في رفع درجات بعض من يدخل الجنة فوق ما كان يقتضيه عمله:

عن أبي موسى ﷺ قال: لما فرغ النبي ﷺ من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس فلقي دريد بن الصمة، فقُتل دريد وهزم الله أصحابه، قال أبو موسى: وبعثني مع أبي عامر، ورُمي أبو عامر في ركبته، رماه جُشَمِيٌّ بسهم فأثبته في ركبته، فانتهيت إليه، فقلت: يا عم من رماك؟ فأشار إلى أبي موسى، فقال: ذاك قاتلي الذي رماني، فقصدت له فلحقته، فلما رآني ولى فاتبعته، وجعلت أقول له: ألا تستحي، ألا تثبت فكفَّ فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته، ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبك، قال: فانزع هذا السهم، فنزعته فنزا منه الماء[٤]، قال: يا ابن أخي، أقرئ النبي ﷺ السلام، وقل له: استغفر لي، واستخلفني أبو عامر على الناس، فمكث يسيرًا ثم مات، فرجعت فدخلت على النبي ﷺ في بيته على سرير مرمل، وعليه فراش، قد أثر السرير بظهره وجنبه، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وقال: قل له استغفر لي، فدعا بماء فتوضأ، ثم رفع يديه، فقال: "اللهم اغفر لعُبَيْدك أبي عامر"، ورأيت بياض إبطيه، ثم قال: "اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس"، فقلت: ولي فاستغفر، فقال: "اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلًا كريمًا". قال أبو بردة: إحداهما لأبي عامر والأخرى لأبي موسى[٥]، ولما مات أبو سلمة دعا له النبي ﷺ بقوله: "اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وأفسح له في قبره ونوِّر له فيه"[٦].

وتؤخذ هذه الشفاعة أيضًا من دعاء المؤمنين بعضهم لبعض والدعاء شفاعة كما قال ﷺ: "ما من

---

١. تُزلَف: تُقرَّب.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (٥٠٣).

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في قول النبي ﷺ: "أنا أول الناس يشفع في الجنة" (٥٠٦).

٤. نزا منه الماء: أي: انصب في موضع السهم.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة أوطاس (٤٠٦٨)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي موسى وأبي عامر الأشعريين (٦٥٦٢).

٦. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حضر (٢١٦٩).

مسلم يموت، فيقوم على جنازته أربعون رجلًا لا يشركون بالله شيئًا، إلا شفَّعهم الله فيه"[1].

شفاعته ﷺ لعمه أبي طالب في تخفيف العذاب عنه يوم القيامة:

مات أبو طالب عم النبي ﷺ على الكفر، فعن ابن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة.. فذكر الحديث.. حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: "هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله"[2].

وكان أبو طالب في حياته يحسن إلى الرسول ﷺ إحسانًا كبيرًا مشهورًا، وكان من حكمة الله ﷻ أن بقي على كفره، وكان أبو طالب ذا وجاهة في قومه، وكانوا يحترمونه، ويعظِّمونه؛ لذلك صار للنبي ﷺ جانب من الحماية بذلك، ولأجل ما فعله مع الرسول ﷺ فقد أذن الله لرسوله ﷺ أن يشفع فيه مع أنه كافر.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ذُكر عنده عمه أبو طالب، فقال: "لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فَيُجْعَلُ في ضَحضاح[3] من نار يبلغ كعبيه يَغلي منه دماغه"[4].

وعن العباس بن عبد المطلب، أنه قال: يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: "نعم، هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدَّرْك[5] الأسفل من النار"[6].

وهذه الشفاعة من خصائص النبي ﷺ، إذ لا يشفع أحد في كافر غير النبي ﷺ، ولا تتعارض شفاعة النبي ﷺ في عمه أبي طالب مع قول الله ﷻ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ (المدثر)؛ لأن شفاعته ﷺ من أجل تخفيف العذاب عن عمه، وليست من أجل إخراجه من النار، وهذه الشفاعة تكون تطييبًا لقلب الشافع وليست ثوابًا للكافر[7]!

فهذه كانت أنواع من الشفاعات التي خُصَّ بها النبي ﷺ بفضل الله عليه، ولا يستطيع أحد أن ينكرها أو أن ينفيها.

ثالثًا. إن شفاعة النبي ﷺ رحمة وفضل من الله للأمة:

عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: "خُيِّرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتي الجنة، فاخترت الشفاعة"[8].

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب من صلَّى عليه أربعون شفعوا فيه (٢٢٤٢).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله (١٢٩٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول: لا إله إلا الله (١٤١).

٣. الضَّحضاح: المكان الذي لا عمق له.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قصة أبي طالب (٣٦٧٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه (٥٣٥).

٥. الدَّرْك الأسفل: المنزلة السفلى أو الدنيا.

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قصة أبي طالب (٣٦٧٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه (٥٣١)، واللفظ له.

٧. عظمة الرسول ﷺ والرد على الطاعنين في شخصه الكريم، محمد بيومي، مرجع سابق، ص٢١٥: ٢٢٧ بتصرف.

٨. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما (٥٤٥٢)، والطبراني كما في مجمع الزوائد (١٠/ ٦٨٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٣٥).

وعن عوف بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "أتاني آتٍ من ربي فخيَّرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة، وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة، وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئًا"،[1] وهذه من تمام شفقة النبي ﷺ على أمته، فلقد اختار ﷺ الشفاعة عند ربه لأمته حتى ينعم أكثر أمته بالجنة؛ فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجَّل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله، من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا" [2]، وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "لكل نبي دعوة دعاها لأمته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة" [3].

قال النووي: هذه بشارة عظيمة من النبي ﷺ لهذه الأمة، زادها الله تعالى شرفًا بما وعدها الله تعالى بقوله: "سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك" [4].

ومما سبق يتضح لنا أن شفاعة النبي ﷺ ثابتة في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ لا شك فيها ولا مراء، وهذه الشفاعة يوم القيامة هي مما اختص الله بها نبيه ﷺ تشريفًا وتكريمًا له ولأمته يوم القيامة.

الخلاصة:

- إن الآيات القرآنية التي يستدل بها أصحاب هذه الشبهة تنفي الشفاعة عن الأصنام، وذلك عندما قال الكفار على عهد النبي ﷺ إنها - أي الأصنام - تشفع لنا عند الله، فأوضحت هذه الآيات أن الله ﷻ لا يقبل الشفاعة إلا من بعد إذن الله ﷻ، وليس في هذا ما ينفي شفاعة الحبيب ﷺ بل إنه يثبتها ويؤكدها.
- إن شفاعة الرسول ﷺ ثابتة بالقرآن والسنة والإجماع وهي نوعان:
  - شفاعة للإنسانية كلها، وتُسمى "الشفاعة العظمى"، وهي الشفاعة من أجل بدء الحساب.
  - شفاعة لأمة الإسلام.

والشفاعة العظمى ثابتة بقوله ﷻ: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ (الإسراء)، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ في تفسير قوله ﷻ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ وسئل عنها، فقال: "هي الشفاعة"[5].

- لا تقتصر شفاعة الرسول ﷺ على الشفاعة العظمى، بل له شفاعات أخرى خاصة بأمة الإسلام

---

١. أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث عوف بن مالك الأشجعي الأنصاري ﷺ (٢٤٠٤٨)، والترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه (٢٤٤١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب لكل نبي دعوة مستجابة (٥٩٤٥)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب اختباء النبي دعوة الشفاعة لأمته (٥١٢)، واللفظ له.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب لكل نبي دعوة مستجابة (٥٩٤٦)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب اختباء النبي دعوة الشفاعة لأمته (٥١٥)، واللفظ له.

٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب دعاء النبي لأمته وبكائه شفقة عليهم (٥٢٠).

٥. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ (٩٧٣٣)، والترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة بني إسرائيل (٣١٣٧)، وصححه الألباني في ظلال الجنة (٧٨٤).

منها:

- شفاعته ﷺ في أهل الكبائر من أمته ممن دخلوا النار أن يخرجوا منها.
- شفاعته لأهل الجنة أن يدخلوها.
- شفاعته فيمن استحق النار ألا يدخلها.
- شفاعته في أقوام قد تساوت حسناتهم مع سيئاتهم.
- شفاعته في رفع درجات بعض من يدخل الجنة فوق ما كان يقتضيه عمله.
- شفاعته لعمه أبي طالب في تخفيف العذاب عنه.

- ثم إن شفاعة النبي رحمة، وفضل، وتكريم من الله ﷻ لأمة الإسلام، فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: "خُيِّرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتي الجنة، فاخترت الشفاعة"[1].

وهذا من تمام شفقته ﷺ على أمته، فلقد اختار الشفاعة عند ربه لأمته حتى ينعم أكثر أمته بالجنة.

الشبهة الحادية والعشرون

إنكار خصوصية محمد ﷺ في عموم رسالته(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المغرضين خصوصية النبي محمد ﷺ في أنه بُعث إلى الناس كافة، مُدَّعين أن الأنبياء جميعهم بعثوا إلى جميع الخلق، ويستدلون على ذلك بأن آيات الرسل - كل الرسل - بلغت - لشهرتها وعظمتها - آفاق الأرض.

هادفين من وراء ذلك نفي اختصاصه ﷺ بعموم رسالته؛ بغية إنكار واحدة من قرائن نبوته.

وجها إبطال الشبهة:

1) من سنة الله ﷻ العامة أنه يفاضل بين خلقه فيرفع بعضهم فوق بعض، وقد فضَّل ﷻ بعض رسله على بعض، وخصَّ محمدًا ﷺ بختم الرسالات وعموم الدعوة.

2) كانت رسالات الرسل قبل محمد ﷺ خاصة بأقوامهم لا تجاوزهم إلى غيرهم، حتى إذا بلغت البشرية طورها الأخير جاءتها الرسالة المحمدية الخاتمة العامة.

التفصيل:

أولا. الله ﷻ هو الذي أرسل الرسل والأنبياء، وهو الذي فضل بعضهم على بعض، فلا عجب أن يخص محمداً ﷺ بإرساله للناس كافة:

اقتضت حكمة الله ﷻ ألا يدع الناس هَمَلًا، ولا يتركهم سُدًى، فأرسل إليهم ما بين حين وآخر مبلغين عنه، يهدون خلقه إليه، ويدلونهم عليه، ويرشدونهم إلى ما يرضيه، ويحذرونهم مما يسخطه، فقال ﷻ: ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (النساء: ١٦٥).

ولولا هؤلاء الرسل - عليهم السلام - لضلَّ

---

1. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما (٥٤٥٢)، والطبراني كما في مجمع الزوائد (١٠/ ٦٨٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٣٥).

(*) تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

الناس السبيل في تصورهم لحقيقة الألوهية، وطريقهم إليها، وواجبهم نحوها، ولابتدعوا طرائق قِددًا[1]، وسبلًا شتى، ما أنزل الله بها من سلطان، سبلًا تفرق ولا تجمع، وتهدم ولا تبني، وتضل ولا تهدي.

وإذا كان الله عز وجل قد خلق الخلق وفاضل بينهم: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ (القصص: ٦٨)، وقد اختار من أرضه مكة، فجعلها مقر بيته العتيق الذي من دخله كان آمنًا، وجعل أفئدة من الناس تهوي إليه، وأوجب على الناس الحج إليه من استطاع إليه سبيلًا، وحرم صيد الحرم، وقطع شجره، وجعل الأعمال الصالحة فيه مضاعفة، وجعل إرادة الظلم فيه مستحقة العذاب الأليم ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ (الحج)، وقد اختار من الشهور شهر رمضان، ومن الليالي ليلة القدر، ومن الأيام يوم عرفة، ومن أيام الأسبوع يوم الجمعة، وفاضل الله بين الملائكة، فاختار منهم الملائكة الذين يحملون رسالته إلى رسله وأنبيائه، واصطفى الله من بني آدم الأنبياء، فالأنبياء أفضل البشر، وأفضل الأنبياء الرسل: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ (الحج: ٧٥)، وقد أجمعت الأمة على تفضيل الأنبياء على غيرهم من الصديقين والشهداء والصالحين.

إذا كان الأمر كذلك، فإن الحق تبارك وتعالى أخبرنا أنه فَضَّل بعض النبيين على بعض، قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ (الإسراء).

والرسل أفضل من الأنبياء، والرسل بعد ذلك متفاضلون فيما بينهم كما قال تبارك وتعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ (البقرة: ٢٥٣).

وأولو العزم هم أفضل الرسل، فأفضل الرسل والأنبياء خمسة: محمد، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل، قال تبارك وتعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ (الأحقاف: ٣٥).

أَمَّا كُنْهُ هذا التفضيل، فقد يفضل الله واحدًا من الرسل بإعطائه ما لم يعط غيره، أو يرفع درجته فوق درجة غيره، أو باجتهاده في عبادة الله والدعوة إليه وقيامه بالأمر الذي وكل إليه.

فداود عليه السلام فضله الله بإعطائه الزبور: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ (الإسراء)، وأعطى الله عز وجل موسى عليه السلام التوراة: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ (البقرة)، والكتاب هو التوراة، وأعطى عيسى عليه السلام الإنجيل: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (المائدة).

وقد اختص الله آدم بأنه أبو البشر، وفضل نوحًا فجعله أول الرسل، واتخذ الله إبراهيم خليلًا، وفضل موسى عليه السلام برسالاته وبكلامه، وفضل عيسى عليه السلام بأنه رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكان يكلم الناس في المهد: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (النساء: ١٧١). وقد يتفاضل الأنبياء من جهة أخرى،

١. القِدَد: مختلفة الآراء.

فالنبي قد يكون نبيًّا لا غير، وقد يكون نبيًّا ملكًا، وقد يكون عبدًا رسولًا.

أما قوله ﷺ: "لا تفضلوا بين أنبياء الله" [1]؛ فالمقصود بذلك التفضيل بمجرد التشهِّي، وبغير دليل شرعي، أو التفضيل في النبوة ذاتها، أو التفضيل بغرض تنقيص المفضول [2].

وإذا كنا متفقين على تفضيل الله ﷻ الأنبياء بعضهم على بعض، كما فضل بعض الأيام، أو الشهور، أو الأماكن، أو غيرها بعضها على بعض، إذا اتفقنا على ذلك، فما العجب في أن يخص الله ﷻ نبيه محمدًا ﷺ بإرساله للناس كافة؟ وقد اقتضت حكمته ﷻ ذلك ®.

ثانيًا. خصوصية إرسال النبي محمد ﷺ للناس كافة، ماهيتها، وأسبابها:

بادئ ذي بدء، إننا ما دمنا قد سلَّمنا بحاجة الناس إلى الرسل، وسلَّمنا كذلك بنبوة محمد ﷺ؛ فإن ذلك يُوجب علينا أن نصدقه في كل ما جاء به، وكل ما قاله، وقد ثبت عنه ﷺ قوله: "فُضِّلتُ على الأنبياء بست: أُعطيت جوامع الكلم، ونُصرت بالرعب، وأُحلت لي الغنائم، وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، وأُرسلت إلى الخلق كافة، وخُتم بي النبيون" [3].

ولا شك أن هذا نص واضح في أن إرساله ﷺ إلى الناس كافة فيه خصوصية له ﷺ دون غيره، ولا بد من تصديقه فيها، والإذعان لها دون ملاحاة باطلة، ولكننا رغم هذا، وإن كان فيما ذكرنا دليل بيِّن على هذه الخصوصية له ﷺ دون غيره من الأنبياء إلا أن هذا الكلام قد لا يقنع به إلا مسلم؛ فلهذا فإننا نزيد الأمر وضوحًا لنضع هؤلاء أمام الحقيقة التي لا محيص عن إثباتها، هذه الحقيقة هي عالمية رسالة النبي ﷺ، نقول: لقد بدأ الجنس البشري كما يبدأ الطفل، أقرب إلى البدائية والبساطة، ثم نما الجنس البشري، ونمت أفكاره، فوصل إلى ما يمكن أن نسميه مرحلة صبا البشرية، ثم نما مرة أخرى فوصل إلى مرحلة ما يمكن أن تُعدَّ مرحلة شباب البشرية، وكانت الرسالات تناسب كل طور من هذه الأطوار، ولا نزاع أن مصدر الرسالات هو الله ﷻ ولكنه ﷻ كان يعطي الدواء بقدر طاقة المريض، فكان يعطي البشرية من الهدْي والتوجيه ما تحتمله، وما يناسب عودها الذي بدأ ضعيفًا ثم اشتدَّ شيئًا فشيئًا حتى اكتمل نموه.

وقد أشار الأستاذ محمد عبده إلى هذه الحقيقة فذكر أن الأديان الأولى خاطبت الحس يوم كانت الإنسانية في طور الطفولة، ولا يعرف الإنسان فيها إلا ما يقع تحت حسه، ولا يتناول بذهنه من المعاني ما بَعُدَ عن لمسه.

فلما سار ركب الإنسانية، وجرَّبت وكسبت، وتحالفت واتفقت، وتقلبت في السعادة والشقاء أيامًا وأيامًا، ونما بها الوجدان، وبدت العواطف، جاء دينٌ يتحدث عن الزهادة وعن الصفاء، وعن ملكوت الله.

ولكن الإنسانية في صراعها لم تستطع أن تعيش على

---

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ (الصافات) (٣٢٣٣)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ (٦٣٠٠).
2. عقيدة أهل السنة والجماعة، د. أحمد فريد، مكتبة فياض، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص١٦٢.

® في **"أفضلية النبي ﷺ على غيره من الأنبياء والرسل"** طالع: الوجه الثالث، الشبهة الرابعة والعشرين، من هذا الجزء.

3. أخرجه مسلم في صحيحه، أوائل كتاب المساجد ومواضع الصلاة (١١٩٥).

الإيثار، ولم يطل مقامها في الصفاء، فراحت تتعارك، وحلَّت القطيعة محل التراحم، والتخاصم مكان المسالمة، فجاء دين ينظم الشئون كلها، ويرعى الحس والعاطفة، ويدرس العقل والقلب، وينظم للناس شئون دنياهم وآخرتهم[1].

وعلى هذا، فإذا كانت الحياة في تغير دائم ورُقِيٍّ مستمر، فالمشاكل تزداد تعقيدًا كلما تعقدت الحياة وكثرت مطالبها؛ فإن النظم والشرائع التي جاءت بها الرسل في تغير وتطور، ما يصلح منها لجماعة لا يصلح لأخرى، كما قال ﷻ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾(المائدة: ٤٨) [2].

ولـمَّا كان النبي محمد ﷺ خاتمًا للأنبياء جميعًا قبله، ولا نبي بعده، كان لا بد أن تكون شريعته مهيمنة على جميع الشرائع السابقة عليه؛ لذلك كانت شريعته للناس أجمعين، وكان مبعوثًا إلى الناس كافة، ذلك أن البشر لما تكاثروا كما قال ﷻ: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (النساء: ١) تفرقوا في أنحاء الأرض هنا وهناك، والعالم لا يزال في طفولة فطرته، ليس فيها ارتقاءات للقاء بين هذه الجماعات، فكانت جماعات منعزلة، لا اتصال بينها، ولكل بيئة منها أَدْوَاؤُها؛ فهؤلاء يطفِّفون الكيل والميزان، وهؤلاء يعبدون الأصنام... إلخ، فيأتي الرسول إلى قوم مخصوصين ليعالج داءهم، لا علاقة له بغيرهم.

أما سيدنا محمد ﷺ فكان هو الرسول الخاتم المبعوث للناس كافة؛ لأن الله ﷻ عَلِم أزلًا أنه سيأتي على التقاء مع الدنيا كلها، وعلى اتصال بين الجماعات المتفرقة، وها نحن الآن، نعيش عالم القرية الواحدة، وما يحدث في أقصى بلاد الدنيا نسمعه ونراه في وقته، وما دام العالم التقت مجتمعاته وقاراته، فالأدواء واحدة؛ لذلك جاء رسول واحد ليعالج كل الأدواء في كل المجتمعات، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ (سبأ: ٢٨). قال العلماء في كلمة "كافة" يعني: للناس جميعًا، ففي موضع آخر يقول ﷻ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾(الأعراف: ١٥٨)، يعني: لم تعد هناك خصوصية، لا زمانية، ولا مكانية[3].

وكما أنه ﷺ مرسل إلى الناس عامة، فهو أيضًا مرسل إلى الجن، قال ﷻ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ (الفرقان) إذ يدخل في العالمين عالَـم الجن مع الإنس.

والمراد بالعالمين في قوله ﷻ: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾: الإنس والجن؛ لأن النبي ﷺ كان رسولًا إليهما ونذيرًا لهما؛ إذ قال ﷻ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ (الجن)[4].

مما سبق يتضح لنا ماهية خصوصية النبي محمد ﷺ بإرساله إلى الناس كافة، في حين بُعث كل نبي إلى قومه

١. الإسلام، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١٢، ١٩٩٧م، ص٢٧ بتصرف يسير.

٢. الدين العالمي ومنهج الدعوة إليه، الشيخ عطية صقر، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٠.

٣. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج٢٠، ص١٢٣٢٨.

٤. خصائص المصطفى ﷺ بين الغلو والجفاء، د. الصادق محمد إبراهيم، مكتبة دار المنهاج، الرياض، ط١، ١٤٢٦هـ، ص٣٢.

خاصة، ولا شأن له بغيرهم.

وإذا كنا قد تحدثنا عن ماهية هذه الخصوصية، فقد وجب علينا الآن أن نتحدث عن أسباب هذه الخصوصية، ولكن لا بد أولًا أن نثبتأنَّ كل نبي أُرسل إلى قومه فقط، وهاكم توضيح ذلك:

لقد مرت الديانات - كما سبق - بمراحل ثلاث ذكرها د. أحمد شلبي، إذ يقول: نقسم مراحل هذه الرسالات ثلاثة أقسام هي:

١. قسم يمثِّل طفولة الجنس البشري، وذلك يشمل المدة التي عبرتها البشرية من آدم إلى نوح، حتى إبراهيم - عليهم جميعًا السلام.

٢. قسم يمثل صبا الجنس البشري، إذ وُجد أنبياء بني إسرائيل، وبخاصة موسى وعيسى عليهما السلام.

٣. قسم يمثل شباب الجنس البشري، وهو عهد رسالة محمد ﷺ.

وهناك مراحل خاصة لكل قسم من هذه الأقسام:

المرحلة الأولى: وفيها كانت الدعوة بسيطة، ومظاهر ذلك تبدو فيما يأتي:

- الدعوة محدودة بجماعة صغيرة، هي جماعة الرسول، كجماعة لوط، وجماعة إبراهيم، ولا تتعدى إلى غيرهم.
- الدعوة عبارة عن التوحيد، وترك عبادة الأوثان والأصنام، دون تنظيمات وتفاصيل أخرى، إلا ما يكون من مرض تفشَّى، فتنهى عنه الدعوة وتحاربه.

والآيات القرآنية التي تتحدث عن هذه الرسالات، توضح هذين الاتجاهين تمام الإيضاح مثل قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ (الأعراف)، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾(نوح)، وقوله ﷻ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ (الأعراف)، وقوله ﷻ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ (الأعراف: ٨٥)، وقول الله ﷻ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ (هود: ٦١)، وقوله ﷻ: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ (هود)، ومن نتائج بعث الرسول لجماعة خاصة لا يتعداها، وُجد رسولان لجماعتين في وقت واحد، كإبراهيم ولوط، وكإسحاق وإسماعيل عليهم السلام[1].

- ليس للدعوة في ذلك الحين كتب واضحة، وإنما

---

١. هذه حقيقة ثابتة، وقد وردت قصة إبراهيم ومجيء الملائكة إليه، ثم ذهابهم إلى النبي لوط ﷺ في الإصحاح الثامن عشر والإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين من الكتاب المقدس، مع ما في القصة عندهم من السَّب الصريح للأنبياء، ولكننا نستدل بها على وجود نبيين في وقت واحد فقط، كما أن الكتاب المقدس يذكر أن إسحاق وإسماعيل - عليهما السلام - كانا في وقت واحد، فأين عالمية كل نبي من هؤلاء الأربعة؟! وقد جاءت القصة في القرآن: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ (هود).

هي بضع نصائح، وقد توجد بعض ألواح أو صحف عامة.

- ليس هنا تواريخ ولو تقريبية لأديان هذه المرحلة، فمتى كانت ديانة نوح؟ ومتى كانت ديانة هود؟ لا نعرف بوجه التحديد.

المرحلة الثانية: ويقف فيها القسم الثاني ـ صبا الجنس البشري ـ بَيْن بَيْن، ففيه من القسم الأول بعض ملامحه، ولكن له ملامح أكثر تعقيدًا وشمولًا، ومظاهر ذلك تبدو فيما يأتي:

- اتسع نطاق الدعوة فشملت قبيلة متشعبة ذات فروع كبني إسرائيل (الأسباط).
- دخلت الدعوة بعض التفاصيل والتشريعات، ففي سفر التثنية ما يأتي:
  - "لا يُقتل الآباء عن الأولاد، ولا يُقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخطيئته يُقتل". (التثنية ٣٤: ١٦).
  - "إذا كانت خصومة بين أناس وتقدموا إلى القضاء ليقضي القضاة بينهم، فليبرروا البارَّ، وليحكموا على المذنب". (التثنية ٢٥: ١).
  - "لا يكن لك في كيسك أوزان مختلفة كبيرة وصغيرة. لا يكن لك في بيتك مكاييل مختلفة كبيرة وصغيرة. وزنٌ صحيح وحق يكون لك، ومكيال صحيح وحق يكون لك، لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك". (التثنية ٢٥: ١٣ ـ ١٥).
- أصبح للدعوة كتاب هو التوراة أو الإنجيل، ولكن معانيهما هي الموحَى بها وصاغها البشر في عبارات، وقد مسها التحريف والضياع.
- هناك تواريخ بيد أنها غير دقيقة.
- لم يستطع بنو إسرائيل في أكثر عصور هذه المرحلة أن يفهموا التوحيد فهمًا واضحًا، فحَسِبَ أكثرهم وحدانيةَ الله على أن هناك إلهًا واحدًا لبني إسرائيل، وبجانبه كانت هناك آلهة للشعوب يؤمن الإسرائيليون بوجودها، ولكنهم يحرمون عباداتهم على أبناء جنسهم، وظلوا إلى ما بعد أيام نبي الله موسى عليه السلام ينسبون إلى الإله أعمال الإنسان وحركاته، فذكروا أنه كان يتمشَّى في الجنة، وأنه كان يصارع ويأكل، ويغشى مركبات الجان[1]، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

وبمعرفة حقيقة رسالتي موسى وعيسى عليهما السلام، يتأكد لنا عدم عالمية الأديان الأخرى غير الإسلام:

١. **حدود رسالة موسى عليه السلام:**

ولد موسى عليه السلام من أبوين إسرائيليين، وتربى في قصر فرعون، ونشأ بين المصريين، وفي هذا يقول سفر أعمال الرسل: "تهذَّب موسى بكل حكمة المصريين، وكان مقتدرًا في الأقوال والأعمال، ولما كملت له مدة أربعين سنة خطر على باله أن يتفقد إخوته بني إسرائيل". (أعمال الرسل ٧: ٢٢، ٢٣).

لقد اضطرته الظروف أن يهرب إلى أرض مدين ـ بعد أن قتل مصريًّا ـ وهناك تزوج وأنجب ذرية: "وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة. فنظر وإذا العليقة تتوقَّد بالنار، والعليقة لم تكن تحترق. فقال موسى: أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم. لماذا لا

١. الإسلام، د. أحمد شلبي، مرجع سابق، ص٢٨: ٣١ بتصرف.

تحترق العليقة؟ فلما رأى الرب أنه مال لينظر، ناداه الله من وسط العليقة وقال: موسى، موسى! فقال: هأنذا. فقال: لا تقترب إلى ههنا. اخلع حذاءك من رجليك، لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة. ثم قال: أنا إله أبيك، إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب. فغطى موسى وجهه؛ لأنه خاف أن ينظر إلى الله. فقال الرب: إني قد رأيت مذلة شعبي الذي في مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم. إني علمت أوجاعهم، فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين، وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة وواسعة، إلى أرض تفيض لبنًا وعسلًا، إلى مكان الكَنْعَانِيِّين والحِثِّيِّين والأَمُورِيِّين والفِرِزِّيِّين والحِوِيِّين واليَبُوسِيِّين. والآن هوذا صراخ بني إسرائيل قد أتى إليَّ، ورأيت أيضًا الضيقة التي يضايقهم بها المصريون، فالآن هلمَّ فأرسلك إلى فرعون، وتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر". (الخروج ٣: ٢ ـ ١٠).

وهكذا كانت رسالة موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل، وحدهم دون سواهم، وهكذا تختص الديانة اليهودية بالقبيلة الإسرائيلية وحدها دون سواها.

٢. حدود رسالة عيسى عليه السلام:

جاء المسيح عليه السلام رسولًا إلى بني إسرائيل، وإلى بني إسرائيل وحدهم دون سواهم، فلقد حدَّد المسيح لنفسه ولتلاميذه مجال عمله ودائرة التبشير التي ينبغي التجول فيها، فبَيَّن بكل وضوح أن رسالته تختص بالشعب الإسرائيلي فقط، فقال قولته الشهيرة: "لم أُرسل إلَّا إلى خِراف بيت إسرائيل الضالة". (متى ١٥: ٢٤).

وكان هذا هو أمره المؤكد إلى تلاميذه: "هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلًا: إلى طريق أمم لا تمضوا، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحريِّ إلى خراف بيت إسرائيل". (متى ١٠: ٥، ٦).

وأما ما ورد خلاف ذلك من نصوص في إنجيل مرقس ـ الأعداد ٩ ـ ٢٠، والتي تشتمل على العدد ١٥ الذي يتكلم عن تبشير العالم بالإنجيل ـ فليست من عمل مرقس كاتب ذلك الإنجيل، ولكنها إضافات أُدخلت إليه حوالي ١٨٠م، أي بعد أن سطَّر مرقس إنجليه بنحو ١٢٠ عامًا.

وبالنسبة لما جاء في خاتمة إنجيل متى (٢٨: ١٩) من حديث عن التبشير بالإنجيل بين جميع الأمم؛ فإن العلماء يشكون فيها، لأسباب يذكر منها العالم الألماني أدولف هرنك: لم يرد إلا في الأطوار المتأخرة من التعاليم المسيحية، ما يتكلم عن المسيح، وهو يلقي مواعظ ويعطي تعليمات بعد أن أُقيم من الأموات، وأن بولس لا يعلم شيئًا عن هذا، إلى جانب مناقضة قوله بحدود رسالة المسيح الذي ذكرناه آنفًا. وبالنسبة لما جاء في خاتمة إنجيل لوقا عن تبشير جميع الأمم، فإن ذلك يخالف حقائق قد جاءت في أناجيلهم[1].

وإذا كنا قد أثبتنا ذلك من خلال كتبهم، فإننا نعضد ذلك بالأصل الأصيل، وأكمل الكتب القرآن حيث قال عز وجل: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ﴾ (الإسراء)،

---

١. الإسلام والأديان الأخرى، أحمد عبد الوهاب، مرجع سابق، ص٧٨: ٨٢ بتصرف.

وقال في حق عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (الصف: ٦). وإذا كان هذا شأن أكبر ديانتين بعد الإسلام، فالأديان الأخرى أولى بعدم العالمية.

المرحلة الثالثة: ولا شك أن هذه الرسالات كانت تفي باحتياجات المرحلة التي جاءت فيها، لكنها لا تتعدى حدودها في الزمان ولا المكان؛ فهذه الرسالات كانت مرحلية إقليمية مؤقتة، نَعَم اتفقت في الأصول، وإن اختلفت في التناول والفروض، وما زالت البشرية في طور النمو حتى بلغ الرضيع طور الرجولة، فجاءت الشريعة الخاتمة لتفي بمتطلبات كافة الأجناس، وتنوع العباد والبلاد، بما يستوعب طموح الإنسان ويواكب وَثَبات البشرية اللاهثة نحو إرواء غرورها، وإشباع نزواتها طلبًا فطريًّا، حتى يظن أهلها أنهم قادرون عليها...

لقد جاءت الشريعة الإسلامية لتختصر الزمان والمكان حتى أصبح العالم قرية متساوية في الواجبات والحقوق، فلا تضارب بين المصالح الفردية والحقوق العامة الجماعية، ولا امتيازات ولا استثناءات قال ﷺ: "الناس كلهم بنو آدم، وآدم خُلق من تراب"[1]، وقال: " ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى"[2] [3].

وهذه المرحلة التي نحن بصددها، والتي هي مرحلة الرجولة هي التي أشار إليها د. أحمد شلبي بالمرحلة الثالثة، إذ يقول: أما القسم الثالث ـ شباب الجنس البشري ـ فله ملامح واضحة هي:

١. اتضحت وحدانية الله، وحُطِّمت الأصنام، وفُتح بالإسلام عهد جديد، لا يقبل الشرك في أية صورة من صوره.

٢. أصبحت الدعوة عامة لكل البشرية، وأصبح محمد ﷺ رسولًا للعالمين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سبأ: ٢٨)، والدليل على عموم رسالة محمد ﷺ واضح تمام الوضوح؛ فقد عمَّت رسالة محمد الخافِقَين، وشملت الأبيض والأسود والأصفر، ولم يحس أحد من هؤلاء أن الدعوة لا تناسبه، ولا أنها مستوردة إليه من صنف آخر من الناس، بل أحس كل واحد أن الدعوة له، وأنها تنظم كيانه وحياته.

٣. خُتمت الرسالات بدعوة محمد ﷺ، والدليل على ذلك واضح للغاية أيضًا، فقد مرت القرون تلو القرون بعد محمد ﷺ، ولم يأت رسول بعد أن طلع على العالم محمد بن عبد الله ﷺ.

٤. دعوة محمد ﷺ لها كتاب لا يأتيه الباطل من بين

---

١. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة رضي الله عنه (١٠٧٩١)، والترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب في فضل الشام واليمن (٣٩٥٥)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٣١٠٠).

٢. صحيح: أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب في حفظ اللسان، فصل ومما يجب حفظ اللسان منه الفخر بالآباء وخصوصًا بالجاهلية والتعظيم بهم (٥١٣٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٩٦٣).

٣. محمد والأنبياء في المصادر اليهودية والمسيحية، السيد سلامة غنمي، طبعة خاصة، ٢٠٠٣م، ص٦٦، ٦٧ بتصرف.

يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فقد مرت السنون، وكثر أعداء الإسلام، ولكن الإسلام بقي دون تحريف أو شبهة تحريف، قال ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ (الحجر).

٥. يقين الرسول ﷺ في هذه المرحلة ثابت، كالطود الشامخ، لم تزعزعه الأحداث، ولم تخطر له الشكوك والأوهام.

٦. حياة محمد ﷺ وحياة دعوته كلها وضوح، وضوء ونور؛ تواريخ محددة، وأحداث ثابتة، وتطور مستقيم راسخ.

٧. ديانة شاملة لأمور الدين وأمور الدنيا، ذكرت لنا الله ﷻ في علاه، وصوَّرت لنا جنته وناره، وأبرزت معالم الخير والشر، وراحت إلى أمور الدنيا تتحدى تفكير العالم بنظم رائعة في الميراث، والسياسة الاقتصادية، والبيع والشراء، والوصية والهبة، والسلم والحرب، وكل حاجات الإنسان[1].

وثمّة أمر مهم لا بد من توضيحه قبل إسدال الستار على هذه النقطة، وهو أن الإسلام قد شمل في حناياه جميع هذه الرسالات التي قبله، إذ لم يُدِرْ لها ظهره، ولم يعادها، وإنما حض على الإيمان بها قبل تحريفها، وبالرسل كافة، ونبه على وحدة الرسالات الإلهية، واكتمالها بالإسلام[2].

وليس معنى أن الإسلام ذكرها، وأن ذكرها قد بلغ الآفاق، ليس معنى ذلك أن الأنبياء جميعًا قد بعثهم الله للخلق أجمعين، إذ قرر الإسلام في مَصْدَرَيْهِ القرآن والسنة تخصيص ذلك بالنبي محمد ﷺ.

الخلاصة:

- لما أراد الله ﷻ ألا يدع عباده يسيرون في الأرض على غير هدى، وأراد أن يعرِّف الخلق بذاته ليعبدوه، أرسل إليهم الأنبياء والرسل، وقد فضلهم على الناس، وفضل بعضهم على بعض درجات، وهذا مبدأ عام، فقد فضَّل الله ﷻ كثيرًا من الأشياء بعضها على بعض.
- فضَّل الله الرسل على الأنبياء، وفضل أولي العزم على باقي الرسل، وهم خمسة: محمد، نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وإذا كان الله قد خصَّ بعض الأنبياء بخصوصيات، فلا عجب أن يخص محمدًا ﷺ بإرساله للناس كافة، وهذا ثابت بنص القرآن الكريم.
- ما دام الرسول ﷺ قد أخبر أنه خُصَّ بإرساله للناس كافة دون غيره من الرسل، فإنه لا بد لنا من تصديقه، وهذا من مقتضيات إيماننا بالله ﷻ القائل عن نبيه ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾ (النجم).
- ثبت بالدليل القاطع كون إبراهيم عليه السلام أُرسل إلى قومه فقط، وثبت كون نوح عليه السلام أُرسل إلى قومه فقط، وثبت في الكتب المقدسة محدودية رسالة موسى وعيسى - عليهما السلام - فإذا كان ذلك مع أولي العزم، والديانتين السابقتين على الإسلام، فالأولى أن نقول بأن عالمية الرسالة من الأمور التي اختص بها دين الإسلام دين محمد ﷺ.



---

١. الإسلام، د. أحمد شلبي، مرجع سابق، ص٣١، ٣٢ بتصرف.

٢. انظر: عالمية الإسلام، رجائي عطية، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط٢، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص١٢: ٢٣.

الشبهة الثانية والعشرون

دعوى عدم أحقية النبي ﷺ في الحكم على أحد بالكفر أو بالإيمان(*)

مضمون الشبهة:

ينفي بعض المشككين أحقية النبي ﷺ في الحكم على أحد بالكفر، أو الحكم لأحد بالإيمان؛ مبرهنين على ذلك بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (آل عمران:١٢٨). هادفين من وراء ذلك إلى بيان عدم قدرته ﷺ على التحقُّق من أمارات الإيمان أو الكفر فيمن حوله من مُدَّعي الإسلام أو معتنقيه، وأنه لم يصدر في ذلك عن وحي من الله تبارك وتعالى؛ طاعنين بذلك في مقتضيات نبوته ﷺ.

وجوه إبطال الشبهة:

١) النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى، فهو حين يحكم على أحد بالكفر أو بالإيمان إنما يصدر حكمه عن وحي من الله ﷻ.

٢) إن معنى الآية مناط الاستدلال لا تنفي أحقية النبي ﷺ بالحكم على أحد بالكفر أو الإيمان، وإنما معناها: أن ما على النبي ﷺ إلا البلاغ والله ﷻ هو الذي يهدي من يشاء.

٣) إذا علمنا أن هناك قرائن ودلائل يستطيع العلماء وأهل الدين من خلالها أن يصدروا حُكمًا بالكفر أو الإيمان على شخص ما بعد الاجتهاد والنظر. فما بالنا بصاحب النبوة نبينا محمد ﷺ الذي لا يصدر حكمه إلا عن وحي إلهي.

التفصيل:

أولا. كل ما يصدر عن النبي ﷺ من حكْم أو تشريع فهو وحي من الله ﷻ:

أجمع أهل العلم على "أن جميع ما صدر عن الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير للتشريع أو الحكم، فهو وحي من عند الله تعالى إلى النبي ﷺ بعد إقرار الله ﷻ عليه"[1]. قال ﷻ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ (النجم).

فليس غريبًا أن يُصدر النبي ﷺ حكمًا على أحد بالإيمان أو بالكفر؛ لأن كل ما يقوله إنما هو وحي من الله تعالى إليه، وكذلك الحال إذا بشَّر أحدًا بجنة أو بنار، ولا عجب في ذلك، فالمعتاد بين الأنبياء أن يُطلع النبي ﷺ أصحابه المقربين على ما ستئُول إليه أوضاعهم، وذلك إكرامًا لهم من جهة، وتصديقًا لنبوته من جهة أخرى.

ومن ذلك ما قاله ﷺ لعمار بن ياسر: "حِين جعل يحفر الخندق، وجعل يمسح رأسه، ويقول: بؤس ابن سمية، تقتلك فئة باغية"[2]، وبالفعل، قُتل عمار بن ياسر في صفين على يد أهل الشام.

وقال رسول الله ﷺ لأبي موسى الأشعري عندما استأذن رجل بالدخول على رسول الله ﷺ:"افتح وبشِّره

(*) تأملات في سورة مريم: محاضرة مسجلة، أبو إسحاق الحويني.

١. السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام، د. عماد السيد الشربيني، دار اليقين، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ج١، ص٤٥٦.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٧٥٠٤).

بالجنة على بلوى تكون، قال: فذهبت فإذا هو عثمان بن عفان، قال: ففتحت وبشرته بالجنة، وقال: وقلت الذي قال، فقال: اللهم صبرًا، أو الله المستعان"[1].

وقد كانت بلية عثمان بن عفان ﷺ أن الغوغاء أرادوا خلعه من الخلافة، فرفض؛ فقتلوه إثمًا وعدوانًا[2].

وكذلك بشَّر النبي ﷺ أبا بكر، وعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ بالجنة، فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: "كنت مع النبي ﷺ في حائط من حيطان المدينة، فجاء رجل فاستفتح فقال النبي ﷺ: افتح له، وبشره بالجنة، ففتحت له، فإذا أبو بكر فبشرته بما قال رسول الله ﷺ، فحمد الله، ثم جاء رجل فاستفتح فقال النبي ﷺ: افتح له وبشره بالجنة، ففتحت له فإذا هو عمر، فأخبرته بما قال النبي ﷺ فحمد الله"[3][4].

وكذلك أخبر ﷺ ببقاء عبد الله بن سلام ﷺ على الإسلام حتى الموت، فعن قيس بن عباد قال: كنت جالسًا في مسجد المدينة فدخل رجل على وجهه أثر الخشوع فقالوا: هذا رجل من أهل الجنة فصلى ركعتين تجوَّز فيهما ثم خرج وتبعته فقلت: إنك حين دخلت المسجد قالوا: هذا رجل من أهل الجنة. قال: والله لا ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك لـمَ ذلك، رأيت رؤيا على عهد النبي ﷺ، فقصصتها عليه، ورأيت كأني في روضة ـ ذكر من سعتها وخضرتها ـ وسطها عمود من حديد، أسفله في الأرض وأعلاه في السماء. في أعلاه عروة، فقيل لي: ارقه، قلت: لا أستطيع فأتاني مِنْصَف[5] فرفع ثيابي من خلفي فرقيت حتى كنت في أعلاها، فأخذت في العروة، فقيل لي: استمسك، فاستيقظت وإنها لفي يدي، فقصصتها على النبي ﷺ فقال: تلك الروضة الإسلام، وذلك العمود عمود الإسلام، وتلك العروة العروة الوثقى، فأنت على الإسلام حتى تموت[6] وقد تحقق ما قاله النبي ﷺ، فلقد عاش عبد الله بن سلام ﷺ ثلاثًا وثلاثين سنة بعد وفاة النبي ﷺ فعاش في الإسلام إلى أن توفي بالمدينة سنة ثلاث وأربعين من الهجرة وهو على الإسلام[7].

كذلك أخبر النبي ﷺ عن مصير بعض أعدائه الكافرين فقال: "بينما أنا نائم رأيت في يدي سِوارَين من ذهب فأهمني شأنهما، فأوحي إليَّ في المنام أن انفخهما، فنفختهما، فطارا، فأوَّلتهما كذابين يخرجان

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: "لو كنت متخذا خليلا" (٣٤٧١)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عثمان بن عفان ﷺ (٦٣٦٥).

٢. قوانين النبوة، موفق الجوجو، مرجع سابق، ص٢٣٦: ٢٣٨ بتصرف.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: "لو كنت متخذا خليلا" (٣٤٧١)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عثمان بن عفان ﷺ (٦٣٦٥).

٤. فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، د. علي محمد الصلابي، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٢م، ص٨٦.

٥. المِنصَف: الخادم.

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عبد الله بن سلام (٣٦٠٢)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن سلام ﷺ (٦٥٣٦).

٧. نبوءات الرسول ﷺ: ما تحقق منها وما يتحقَّق، محمد ولي الله عبد الرحمن الندوي، دار السلام، القاهرة، ط٢، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، ص١١٩، ١٢٠.

من بعدي"[١]، وبعد وفاته ﷺ ظهرت رِدَّة مسيلمة حيث ادَّعى النبوة، وناصره ناس من قومه، لكنه ذُبح وذُبحوا معه، وكذلك الأسود العَنْسِي الذي ادعى النبوة، وقام عليه أهل اليمن، وقتلوه وأتباعه[٢].

على أن النبي ﷺ كان لا يَصِمُ أي أحد بوصمة الكفر إلا أن يأتيه فيه وحي، فقد كان هناك قوم أظهروا الإسلام وأبطنوا غيره، وهؤلاء هم المنافقون، ومع أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، فإن رسول الله ﷺ سكت عن تكفيرهم، بل إنه ﷺ قد استغفر لأحدهم وصلى عليه حينما مات.

قال عمر ﷺ: لما توفي عبد الله بن أبي دُعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام إليه، فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولت حتى قمت في صدره، فقلت: يا رسول الله: أعلى عدوِّ الله عبد الله بن أبيّ القائل يوم كذا: كذا وكذا، والقائل يوم كذا: كذا وكذا أعدد أيامه الخبيثة، ورسول الله ﷺ يبتسم حتى إذا أكثرت عليه، قال: أَخِّر عني يا عمر، إني خُيِّرت فاخترت: قد قيل لي ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾(التوبة).

فلو أعلم أني إن زدت على السبعين غُفر له زدت، ثم صلى عليه ومشى معه على قبره حتى فرغ منه، فعجبت لي وجرأتي على رسول الله، والله ورسوله أعلم، فوالله ما كان إلا يسيرًا حتى نزلت الآيتان: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ (التوبة) فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق، ولا قام على قبره حتى قبضه الله ﷻ[٣][٤].

ومن ذلك أيضًا إخباره ﷺ عن قزمان بأنه من أهل النار، فعن أبي هريرة ﷺ قال: شهدنا مع رسول الله ﷺ، فقال لرجل ممن يدَّعي الإسلام: "هذا من أهل النار"، فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالًا شديدًا، فأصابته جراحة فقيل: يا رسول الله، الذي قلت إنه من أهل النار فإنه قاتل اليوم قتالًا شديدًا، وقد مات، فقال النبي ﷺ: "إلى النار"، قال: فكاد بعض الناس أن يرتاب، فبينما هم على ذلك إذ قيل: إنه لم يمت، ولكن به جراحًا شديدة، فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه، فأُخبر النبي ﷺ بذلك فقال: "الله أكبر، أشهد أني عبد الله ورسوله"، ثم أمر بلالًا فنادى في الناس: "إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر"[٥]، ولقد صدق رسول الله ﷺ، فقد قَتل الرجل الذي تنبأ ﷺ فيه أنه من أهل النار نفسه بسيفه ولم يصبر على جروحه التي

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤٢٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي ﷺ (٦٠٧٤).

٢. قوانين النبوة، موفق الجوجو، مرجع سابق، ص٢٥٠.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يكره من الصلاة على المنافقين والاستغفار للمشركين (١٣٠٠)، وفي موضع آخر.

٤. فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، د. علي الصلابي، مرجع سابق، ص٤٢.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر (٢٨٩٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه (٣١٩).

أصابته؛ لأنه لم يكن يرجو عليها أجرًا عند الله ﷻ[1]، وفي هذا الحديث دلالة واضحة على أن النبي ﷺ كان لا يحكم من تلقاء نفسه على أحد بالكفر أو الإيمان، وإنما كان يخبر بما يُوحَى إليه من ربه.

ثانيًا. معنى الآية وسبب نزولها لا تعلق لهما بموضوع الدعوى:

أما قوله ﷻ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (آل عمران) فلا يحمل أي معنى أو دلالة على عدم أحقية النبي ﷺ في الحكم على أحد بالكفر، أو الحكم لأحد بالإيمان. إنما هي كلمة حق أُريد بها باطل، فقد أورد القرطبي سببين لنزول هذه الآية، وحكى الثاني منهما بصيغة التضعيف:

الأول: ثبت أن النبي ﷺ كُسرت رباعيته يوم أُحُد، وشُجَّ رأسه، فجعل يسْلِتُ[2] الدم عنه ويقول: "كيف يفلح قوم شجُّوا رأس نبيهم وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله تعالى"؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ (آل عمران: ١٢٨)[3]. ويؤكد هذا ما قاله الضحاك: هَمَّ النبي ﷺ أن يدعو على المشركين، فأنزل الله ﷻ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾.

وقيل: استأذن في أن يدعو باستئصالهم، فلما نزلت هذه الآية علم أن منهم من سيسلم، وقد آمن كثير منهم كخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم.

قوله ﷺ: "كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم" استبعاد لتوفيق من فعل ذلك به. وقوله ﷻ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ تقريب لما استبعده وإطماع في إسلامهم، ولما أطمع في ذلك. قال ﷺ: "اللهُمَّ اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون"[4].

الآخر: زعم بعض الكوفيين أن هذه الآية ناسخة للقنوت الذي كان النبي ﷺ يفعله بعد الركوع في الركعة الأخيرة من الصبح، واحتج بحديث ابن عمر أنه سمع النبي ﷺ يقول في صلاة الفجر بعدما رفع رأسه من الركوع فقال: "اللهم ربنا ولك الحمد"، ثم قال: "اللهم العن فلانًا وفلانًا"[5]. فأنزل الله ﷻ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾ (آل عمران: ١٢٨)[6].

وبذلك يتبين لنا أن سبب نزول الآية الكريمة كما في الرأي الأول، هو أن الله ﷻ أراد أن يقول لنبيه ﷺ: "ليس لك يا محمد من الأمر شيء، إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بتوبتهم، أو يعذبهم، فلا يحزنك ذلك؛

---

١. نبوءات الرسول ﷺ، محمد ولي الله عبد الرحمن الندوي، مرجع سابق، ص٣١، ٣٢.

٢. يَسْلِت: يمسح.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، معلقًا بصيغة الجزم، كتاب المغازي، باب قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ (آل عمران: ١٢٨) قبل حديث (٣٨٤٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد (٤٧٤٦).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ ﴾ (الكهف: ٩) (٣٢٩٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد (٤٧٤٧).

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (آل عمران) (٣٨٤٢)، وفي مواضع أخرى.

٦. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٤، ص١٩٩، ٢٠٠ بتصرف.

لأنهم ظالمون أي ما عليك يا محمد إلا البلاغ فقط، أما هم فقد ظلموا أنفسهم بالكفر"[1].

وفي الرأي الثاني: أن الله ﷻ قد أراد بها نسخ القنوت الذي كان يقوم به النبي ﷺ بعد الركوع في الركعة الأخيرة من الصبح، وعلى كلا الرأيين فتفسير الآية بعيد كل البعد عما فهمه مثيرو هذه الشبهة، من أن الله تعالى أراد بهذه الآية، أنه ليس للنبي محمد ﷺ أن يحكم على أحد بالكفر، أو يشهد لأحد بالإيمان، وبذلك يتبيَّن بطلان ما زعموا؛ لأن دليلهم في غير موضعه.

ثالثًا. هناك قرائن ودلائل يستطيع بها العلماء أن يصدروا حكمًا بالكفر أو الإيمان على شخص ما؛ فالأولى بذلك النبي ﷺ:

إن الحكم على أحد بالكفر أو الإيمان ليس أمرًا مقصورًا على النبي ﷺ وحده، وإنما يتعدَّى ذلك إلى العلماء الذين استنبطوا من آيات الله ﷻ ومن أحاديث النبي ﷺ القرائن والأدلة التي من خلالها يستطيعون الحكم على أحد ما بالكفر، كالجاحد معلومًا من الدين بالضرورة، كالصلاة والصيام والزكاة والحج، أو المستحلّ محرَّمًا كالزنا والسرقة وشرب الخمر وغيره، أو المستهزئ بالله وبرسوله وبالقرآن، أو الساب للنبي ﷺ والصحابة ﷺ أو الكاذب على النبي ﷺ كما قال ﷺ: "من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوَّأ مقعده من النار"[2][3].

وللإمام الطحاوي كلام رائع في هذا يحسن بنا أن نذكره، يقول: "ولا نكفِّر أحدًا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله، ولا نقول: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله". إلى أن قال: "الأمن والإياس ينقلان من ملة الإسلام، وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة، ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه"[4].

وكذلك فإن هناك من القرائن والأحوال، التي جاءت في أحاديث النبي ﷺ ما يجعل العلماء يشهدون لشخص ما بالإيمان، ومن ذلك أيضًا ما روي عن أنس بن مالك ﷺ يقول: مروا بجنازة فأثنوا عليها خيرًا، فقال النبي ﷺ: "وجبت"، ثم مروا بأخرى، فأثنوا عليها شرًا، فقال النبي ﷺ: "وجبت". فقال عمر بن الخطاب ﷺ: ما وجبت؟ قال: "هذا أثنيتم عليه خيرًا فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرًّا فوجبت له النار. أنتم شهداء الله في الأرض"[5].

بيد أن المؤمن إذا أذنب وقال قولًا أو فعل فعلًا يعد في الشرع معصية لله ﷻ لا يكون هذا بمفرده دليلًا على خروجه من الإيمان - وإن لم يتب منه - إن لم يكن فيه ما يدل على نقضه الشهادتين أو إحداهما وهو في مشيئة الله، إن شاء عذبه بذنبه ومعصيته وأدخله النار، ثم مآله إلى الجنة لكثرة الأحاديث الصحيحة الدالة على أنه يخرج من النار مَنْ مات وفي قلبه مثقال ذرة من إيمان،

١. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج٣، ص١٧٣٨.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يكره من النياحة على الميت (١٢٢٩)، ومسلم في صحيحه، المقدمة، باب في التحذير من الكذب على رسول الله ﷺ (٥).

٣. زوابع في وجه السنة قديمًا وحديثًا، صلاح الدين مقبول أحمد، دار عالم الكتب، الرياض، د. ت، ص٢٩١.

٤. عقيدة أهل السنة والجماعة، د. أحمد فريد، مرجع سابق، ص١٣.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ثناء الناس على الميت (١٣٠١)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب فيمن يثنى عليه خير أو شر من الموتى (٢٢٤٣).

وإن شاء الله ﷻ غفر له، ولم يعذبه وأدخله الجنة بغير عذاب في النار، فإن الله ﷻ يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ (النساء)[1].

واستنادًا إلى ذلك نقرر أن العلماء لهم الحق في أن يصدروا حكمًا على أحد بالكفر أو الإيمان، اعتمادًا على القرائن التي استنبطوها من آيات الله، وسنة رسوله ﷺ، وهم لا يوحى إليهم، فما بالنا بالنبي ﷺ الذي لا ينطق إلا عن وحي، حتى لو اجتهد كان ينزل الوحي إما بإقراره أو تصويبه.

الخلاصة:

- من حق النبي ﷺ أن يحكم على أحد بالكفر، أو يشهد لأحد بالإيمان؛ لأن كل ما يقوله ﷺ وحي من عند الله، بل وينسحب ذلك الحق ويُعطَى للعلماء المجتهدين الذين يعتمدون على القرائن والأحوال المستنبطة من آيات الله وسنة رسوله ﷺ، فيكون لهم الحق في أن يصدروا حكمًا على أحدٍ بالكفر، أو يشهدوا له بالإيمان، وإذ ثبت هذا الحق للعلماء، فهو ثابت في حق الرسول ﷺ من باب أولى، مما يبطل دعوى المغرضين بعدم أحقيته ﷺ بالحكم بالكفر أو بالإيمان على أحد.

- لقد اختص الله ﷻ الأنبياء - عليهم السلام - بالإخبار بأشياء غيبية حسبما أطلعهم الله ﷻ عليه من علم الغيب، وقد شهد النبي ﷺ لأصحابه بالإيمان، بل وبشر بعضهم بالجنة، كما أنه ﷺ حكم على بعض الناس بالكفر، وأخبر أنهم من أهل النار، كما أخبر عن قزمان الذي قاتل مع المسلمين يوم أحد، وأبلى بلاء حسنًا ثم لما آلمته جراحه قتل نفسه، وليس في قوله ﷻ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ (آل عمران: ١٢٨) ما يعارض هذا؛ لأنها نزلت حين أراد النبي ﷺ أن يدعو على بعض كفار قريش بالهلاك، فأخبره الله ﷻ أن مهمته ﷺ هي البلاغ، وأن الهداية بيد الله ﷻ.

الشبهة الثالثة والعشرون

ادعاء أن النبي ﷺ تنبأ بأحداث قد خالفها الواقع (*)

مضمون الشبهة:

يشكِّك بعض الطاعنين في نبوة محمد ﷺ؛ بدعوى أنه ﷺ تنبأ بوقوع أشياء في زمن محدد ولم تقع في هذا الزمن ولا بعده، ممثلين لذلك بما يتوهمونه من أن إشارته لعلامات قيام الساعة، يُعَدُّ إيماءً منه ﷺ بقرب قيام الساعة وانتهاء العالم، وإقرارًا بأن ذلك سيكون حتمًا في حياته. هادفين من وراء ذلك إلى وَصْمه ﷺ بما لم يكن منه من ادعاء علم الغيب من تلقاء نفسه، إيذانًا للتشكيك في نبوته لمخالفة الواقع المشاهد لما تنبأ به ﷺ.

وجها إبطال الشبهة:

١) علم الساعة غيب اختص الله به نفسه، فلم يُطلع أحدًا على وقت وقوعها؛ لا ملكًا مقربًا، ولا نبيًّا مرسلًا، ولم يدَّع النبي ﷺ لنفسه ذلك.

---

١. عقيدة أهل السنة والجماعة، د. أحمد فريد، مرجع سابق، ص١٤ بتصرف يسير.

(*) الإسلام والغزو الفكري، د. عبد المنعم خفاجي، د. عبد العزيز شرف، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٢) النبي ﷺ أخبر ببعض علامات قيام الساعة، ولم يحدد وقت قيامها لعدم علمه ﷺ به؛ ولكَوْن علم الساعة خاصة - وعلم الغيب عامة - ليس من مقتضيات النبوة؛ إذ الأنبياء بشر، وما كان لمخلوق أن يعلم ما اختص الله به نفسه إلا بقدر ما يطلعه الله عليه.

التفصيل:

أولا. ذكر النبي ﷺ لأمارات الساعة لا يقتضي وقوعها في حياته:

لا شك أن الله ﷻ قد أخفى وقت قيام الساعة عن خلقه لحكم يعلمها سبحانه وتعالى، فلم يُطلع على ذلك أحدًا من خلقه، حتى أنبياءه ورسله، وملائكته المقربين.

هذا، وقد دلت آيات عديدة وأحاديث كثيرة على أن علم الساعة غيب اختص الله به نفسه، قال ﷻ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ (الأعراف)، وقال ﷻ: ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ﴾ (الأحزاب)، وقال الله ﷻ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ ﴾ (النازعات).

"وقد سُئل الرسول ﷺ عن الساعة، فقال: "ما المسئول عنها بأعلم من السائل"[1]، وكان السائل جبريل عليه السلام متمثلًا في صورة بشر، فإذا كان أعلى الملائكة منزلة، وهو جبريل عليه السلام، وأعلى البشر منزلة، وهو محمد ﷺ لا يعلمان متى تكون الساعة، فحَريٌّ بألا يعرف أحد غيرهما وقت وقوعها"[2].

وروى ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ أنه قال: "مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله"، ثم تلا هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾ (لقمان)[3]، ومع أن الله ﷻ استأثر بعلم الساعة، فقد أخبر ربنا ﷻ بأنها ستكون قريبة، قال ﷻ: ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ﴾ (الأحزاب).

إلا أن بعض الناس قد التبست عليهم مسألة قرب الساعة وبعدها، فراحوا يتساءلون: كيف تكون الساعة قريبة، وقد مضى على الإخبار بقرب وقوعها أكثر من ألف وأربعمائة عام؟

والجواب: أنه قريب في علم الله وتقديره، وإن كانت المقاييس البشرية تراه بعيدًا ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ ﴾ (المعارج).

والأمر الذي ينبغي أن يُنتبه إليه أن الباقي من الدنيا قليل بالنسبة لما مضى منها، فإنك إذا وضعت لمن لك عليه دين أجلًا طويلًا، كأن تؤجله خمسين عامًا مثلًا،

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام (٥٠)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله (١٠٦).

٢. القيامة الصغرى، د. عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص١٢٤.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة الأنعام (٤٣٥١)، وفي مواضع أخرى.

فإذا انقضى من الخمسين خمسة وأربعون، فيكون موعد السداد قد اقترب بالنسبة لما مضى من الموعد المضروب.

والأحاديث النبوية الشريفة تشير إلى هذه الحقيقة التي بيَّناها هنا، فعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: "إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم ما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس"[1]، وفي لفظ "إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس"[2].

إن الحديث يمثل الوجود الإنساني بيوم من أيام الدنيا، ابتدأ وجود الأمة الإسلامية فيه عند العصر، فيكون الماضي من عمر الوجود الإنساني بنسبة ما مضى من ذلك اليوم من الفجر إلى العصر، ويكون الباقي من عمر الزمن حتى تقوم الساعة، كما بين العصر والمغرب، ذلك أن النصوص صريحة الدلالة على أننا آخر الأمم وجودًا، وأن نهاية وجود هذه الأمة يتحقق بقيام الساعة.

وجاء في حديث آخر عن سهل ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "بعثت أنا والساعة كهاتين"، ويشير بأصبعيه فيمدهما[3]، وفي رواية بلفظ: سمعت رسول الله ﷺ يشير بإصبعه التي تلي الإبهام والوسطى وهو يقول: "بعثت أنا والساعة هكذا"[4].

والمعنى أننا لو قدَّرنا عمر الزمن بالأصبع الوسطى، فإن ما بقي منه عند مبعث الرسول ﷺ يكون بمقدار ما تزيد الوسطى عن السبابة، وما مضى منه بمقدار السبابة من الأصبع الوسطى، قد يكون الباقي في حِسِّ البشر طويلًا؛ لأن إدراكهم محدود، ونظرتهم قاصرة، ولكنه في ميزان الله قريب وقصير ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ (النحل: ١)، ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٧٧﴾﴾ (النحل).

وقد يتساءل بعضهم: ما الحكمة من وراء إخفاء الوقت الذي تحل فيه الساعة، وتقوم فيه القيامة؟ والجواب: أن إخفاءها له تعلق بصلاح النفس الإنسانية، فوقوعها غيب، والأمر العظيم الذي يستيقن المرء وقوعه، ولكنه لا يدري متى يفجؤه، ويحلُّ فيه بِسَاحِه، يجعل المرء مترقبًا له باستمرار.

يقول الأستاذ سيد قطب: "والمجهول عنصر أساسي في حياة البشر، وفي تكوينهم النفسي، فلا بد من مجهول في حياتهم يتطلعون إليه، ولو كان كل شيء مكشوفًا لهم، - وهم بهذه الفطرة - لوقف نشاطهم وأَسِنَت[5] حياتهم، فوراء المجهول يجرون، فيحذرون، ويأملون، ويجرِّبون، ويتعلمون، ويكشفون المخبوء من طاقاتهم، وطاقات الكون من حولهم، وتعليق قلوبهم ومشاعرهم بالساعة المجهولة الموعد يحفظهم من الشرود، فهم لا يدرون متى تأتي الساعة، فهم من موعدها على حذر

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٢٧٢).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب من أدرك ركعة من العصر قبل الغروب (٥٣٢)، وفي مواضع أخرى.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: "بعثت أنا والساعة كهاتين" (٦١٣٨).

٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة (٧٥٩٢).

٥. أَسِن: رَقَد وجمد.

دائم، وعلى استعداد دائم، ذلك لمن صحت فطرته واستقام، فأما من فسدت فطرته واتبع هواه فيغفل ويجهل، فيسقط ومصيره إلى الردى"[1]®.

ثانيًا. النبي ﷺ أخبر ببعض علامات قيام الساعة، ولم يحدد وقتها لعدم علمه به:

سبق أن ذكرنا فيما مضى أن الله ﷻ لم يُطلع أحدًا من خلقه على وقت قيام الساعة، ومنهم النبي ﷺ فقد قال الله ﷻ: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ ﴾ (الأنعام: ٥٠).

وجاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ يسأله: متى الساعة؟ فقال له النبي ﷺ: "وماذا أعددت لها"؟ فقال الرجل: حبَّ الله ورسوله، فقال له النبي ﷺ: "أنت مع من أحببت"[2].

فالنبي ﷺ - على عظم مكانته عند الله - لا يعلم وقت قيام الساعة، ولكن الحانقين الحاقدين على رسول الله ﷺ يأبون إلا القول باعتقاد النبي ﷺ أن القيامة ستقوم في حياته.

واستدلوا على أن النبي ﷺ كان يعتقد بأن قيام الساعة سيكون في حياته بآية لو قرأها المرء منا لاستبان له بوضوح جهلهم المزري، هذه الآية هي: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ (الحجر).

هذه الآية ليس فيها - من قريب أو بعيد - أي دليل لهؤلاء المتوهمين، فقد فهموا أن اليقين في الآية المراد منه: القيامة، وهذا هو الجهل في أجلى صوره؛ لأن المراد من اليقين فيها: الموت، أي: دُمْ على عبادة ربك حتى يوافيك أجلك.

والقيامة وصفت في القرآن بأوصاف كثيرة واضحة الدلالة عليها، مثل: الطامة، الصاخة، القارعة، الآزفة، الساعة، الحساب، البعث، الخروج، الحاقة، الواقعة، أمر الله، النفخ في الصور... ولم توصف ولا سميت بـ"اليقين"، فمن أين فهموا أن المراد منه الساعة يا ترى[3]؟!

إن النبي ﷺ مع عدم علمه بموعد وقوع الساعة إلا أنه أخبر وأعطى علامات لها بوحي من الله ﷻ.

ومن ذلك ما جاء في صحيح البخاري عن عوف بن مالك ﷺ قال: "أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة أدم، فقال: اعدد ستًّا بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم مُوتان يأخذ فيكم كقُعَاص الغنم[4]، ثم استفاضة المال، حتى يُعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطًا، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر[5]،

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٤، ص٢٢٣١.
® في "**عدم علم عيسى ؈ بوقت قيام الساعة**" طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الرابعة والعشرين، من هذا الجزء. وفي "**اختصاص الله ﷻ بعلم الغيب**" طالع: الشبهة السابعة والعشرين، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته).

٢. أخرجه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب ﷺ (٣٤٨٥)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب (٦٨٧٨).

٣. افتراءات المستشرقين على الإسلام: عرض ونقد، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص١٨٨، ١٨٩ بتصرف.

٤. قُعَاص الغنم: داء يأخذ الغنم ويؤدي إلى موتها.

٥. بنو الأصفر: الروم.

فيغدرون، فيأتونكم تحت ثمانين غاية[1]، تحت كل غاية اثنا عشر ألفًا"[2].

فقد أخبر النبي ﷺ إذن عن علامات الساعة على قدر ما أطلعه الله ﷻ عليه من معرفة بها، فما هو إلا مبلِّغ لما يأتيه من الوحي، وليس له ولا لغيره من الخلق أن يعلم ما اختص الله ﷻ به نفسه، إلا بقدر ما يطلعه الله ﷻ عليه، وقد رأينا بأنفسنا أن أول علامات الساعة التي أخبر عنها النبي ﷺ موته ﷺ، فكيف يزعم الزاعمون أنه تنبَّأ بقيام الساعة في حياته؟! لا شك أن هذا الزعم مجرد تشويش على الحقائق وتزييف للحق الناصع.

الخلاصة:

- علم الساعة غيب اختص الله ﷻ به نفسه، فلم يُطلع أحدًا على وقت قيامها، لحكم لا يعلمها إلا الله ﷻ، يقول ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)﴾ (لقمان)، فهذه الغيبيات الخمس لا يعلمها إلا الله ﷻ، وقال ﷻ: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣)﴾ (الأحزاب)، فعلم الساعة موكول إلى الله ﷻ فلا يعلمه مخلوق إلا بقدر ما يطلعه الله ﷻ عليه.

- ما يتوهمه بعضهم من أن النبي ﷺ أخبر أن الساعة ستقع في حياته لا شاهد عليه، أمّا ما توهموا أنه شاهد وهو قوله ﷻ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)﴾ (الحجر)، حيث فسروا اليقين بمعنى: القيامة، فلا يصح؛ لأنه تفسير شاذ ولم يذكره أحد من العلماء من قبل، بل اليقين هنا معناه: الموت.

- لقد أخبر النبي ﷺ ببعض العلامات التي تدل على قيام الساعة في بعض أحاديثه، ولم يحدد وقت قيامها لعدم علمه به، ومن هذه العلامات ما وقع فعلًا أيام الرسول ﷺ أو في حياة أصحابه، ومنها ما وقع بعده بقرون، ومنها ما لم يقع حتى الآن وسيقع بإذن الله ﷻ، ومنها إخباره ﷺ بأن موته إحدى علامات الساعة مما يبطل مزاعم الطاعنين بأنه كان يتنبَّأ أن قيام الساعة سيكون في حياته ﷺ.

الشبهة الرابعة والعشرون

دعوى تفضيل المسيح عليه السلام على محمد ﷺ(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين أن المسيح عليه السلام أفضل من محمد ﷺ. ويستدلون على هذا بما يزعمونه من أن عيسى عليه السلام لم يخطئ قط، بينما أخطأ محمد ﷺ في غير ما موضع؛ فعاتبه ربه في القرآن، كما يزعمون أن القرآن الكريم قد فضل عيسى عليه السلام على محمد ﷺ، ومن ذلك: قوله ﷻ: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ

---

١. الغاية: الراية.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب الجزية والموادعة، باب ما يحذر من الغدر (٣٠٠٥).

(*) الإسلام في تصورات الغرب، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق.

مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ (البقرة: ٢٥٣)، وقوله ﷻ عن المسيح: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ (النساء: ١٧١)، بينما أكد القرآن أن محمدًا ﷺ بشر، وأمره أن يخبر بهذه الحقيقة كل الناس، فقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ (فصلت: ٦)، وقد قال الله ﷻ عن المسيح عيسى ؊: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ (الزخرف: ٦١)، أما عن محمد ﷺ فقال: ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (الأحزاب: ٦٣)، ثم إن النبي ﷺ احتاج إلى شق صدره ليطهر قلبه من الذنوب والخطايا، بينما ولد المسيح ؊ طاهرًا زكيًّا، ويدعون أن النبي ﷺ أمر بسفك الدماء، بينما حرم المسيح ؊ قتال الأعداء، وتوعد كل مسيحي يقاتل بالسلاح أن يكون جزاؤه جهنم.

هادفين من وراء ذلك إلى التشكيك في نبوته ﷺ وفي وصفه بسيد المرسلين؛ رغبة منهم في تفضيل غيره من الأنبياء عليه؛ إيذانًا لإخراجه من جملتهم.

وجوه إبطال الشبهة:

١) دعوة الأنبياء والرسل الكرام دعوة واحدة تقوم على إفراد الله ﷻ بالوحدانية المطلقة، فلا فرق في الإسلام بين نبي وآخر، ما دامت دعوتهم واحدة، فهم جميعا بشر فضلهم الله على غيرهم واصطفاهم بالرسالة والنبوة.

٢) إن العتاب الوارد في القرآن الكريم للنبي ﷺ لا يدل على صدور الذنب أو الخطأ منه ﷺ، وإنما هو كرامة له ﷺ، ودليل على قربه من الله ﷻ.

٣) الآية التي يستدلون بها على أفضلية عيسى ؊ هي في حقيقتها تؤكد أفضلية النبي ﷺ على غيره من الأنبياء الآخرين.

٤) علم الساعة غيب اختص الله به نفسه، فلم يطلع عليه ملكًا مقربًا ولا نبيًّا مرسلًا.

٥) كان لشق صدر النبي ﷺ حكم عظيمة، اختص الله بها نبيه دون غيره من الأنبياء.

٦) النبي ﷺ هو نبي الرحمة ونبي الملحمة، وقد شرع الجهاد دفاعًا عن الحق، وليس للعدوان، كما أنه ليس صحيحًا أن المسيح ؊ قد حرم القتال والحرب، بل دعا إليهما في أكثر من موقف، والشواهد من كتب أهل الكتاب على ذلك كثيرة.

التفصيل:

أولا. دعوة الأنبياء والرسل دعوة واحدة تقوم على إفراد الله تعالى بالوحدانية المطلقة:

إن الإسلام دين التوحيد الخالص، ولهذا فإن المسلم يعترف بصحة كل ما ورد عن أهل الكتاب من قول، أو حديث يؤكد توحيد الله ويدعو إليه، ومن أمثلة ذلك ما نجده في الأسفار، مصدقًا لما يقرره القرآن في هذا الشأن:

ففي الوصية الأولى لموسى ؊ ولبني إسرائيل: "أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. لا تصنع لك تمثالًا منحوتًا، ولا صورة ما مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن ولا تعبدهن، لأني أنا الرب إلهك إله غيور". (الخروج ٢٠: ٢ _ ٥).

وفي الوحي إلى إشعياء: "قبلي لم يُصوَّر إله وبعدي لا يكون، أنا أنا الرب وليس غيري مخلِّص". (إشعياء ٤٣: ١٠، ١١).

وفي أقوال المسيح وتعاليمه ما يقرر ذلك: "وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته". (يوحنا ١٧: ٣).

وورد في إنجيل مرقس: "فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون، فلما رأى أنه أجابهم حسنًا سأله: أيُّ وصية هي أول الكل؟ فأجابه يسوع: إن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا رب واحد، وتحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك.. هذه هي الوصية الأولى". (مرقس ١٢: ٢٨ ـ ٣٠).

وفي القرآن الكريم قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (طه)، ويقول ﷻ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾﴾ (الكهف)[1].

هكذا نجد أن دعوة الأنبياء جميعًا هي التوحيد الخالص لله ﷻ، وهذا يدل على بشرية هؤلاء الأنبياء جميعًا، وأن الله اصطفاهم بهذه الرسالات وجعلهم هداة للبشرية، فهم القدوة الصالحة، فلقد اقتضت رحمة الله وعدله أن يبعث رسله إلى الأمم بهذا التوحيد، وهذه العقيدة، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾﴾ (فاطر)، وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ (النحل: ٣٦). فهذه الدعوة الواحدة تقتضي بشرية كل رسول من الرسل ما دام الإله واحدًا لا شريك له.

ثم إن بشرية النبي ﷺ قد أكدها القرآن في أكثر من موضع، قال ﷻ: ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٣﴾﴾ (الإسراء)، وقال: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾﴾ (الإسراء). وقد أكد القرآن أيضًا على بشرية جميع الأنبياء، ومنهم عيسى ؈، يقول ﷻ: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ (المائدة).

فهكذا وضَّح القرآن الكريم أن عيسى ؈ بشر، أرسله الله إلى بني إسرائيل ليُصحِّح ما حرَّفوه في توراتهم، ويهديهم صراطًا مستقيمًا.

إن المسلم يعلم يقينًا أن المسيح ؈ جاء رسولًا من الله إلى بني إسرائيل، وأنه كان نبيًّا من أفضل الأنبياء، وهو أولًا وأخيرًا عبد من عباد الله المكرمين، ولهذا يؤمن المسلم بكل قول في الأسفار يضع المسيحَ ؈ في موضعه الصحيح، ولا يتعداه بأن يجعله إلهًا أو ابن إله، **ومن أمثلة ذلك:**

شهد المسيح أنه نبيٌّ، وذلك في قوله: "فقال لهم

١. الإسلام والأديان الأخرى: نقاط الاتفاق والاختلاف، أحمد عبد الوهاب، مرجع سابق، ص٢٧، ٢٨ بتصرف يسير.

يسوع: ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه، وبين أقربائه وفي بيته". (مرقس ٦: ٤).

وحين أحيا الميتَ ـ الابن الوحيد لأمه الأرملة ـ هتف الجميع بأنه نبي عظيم، فعندما: "تقدم ولمس النَّعش، فوقف الحاملون، فقال: أيها الشاب، لك أقول: قُمْ، فجلس الميت وابتدأ يتكلم، فدفعه إلى أمه، فأخذ الجميعَ خوفٌ ومجَّدوا الله قائلين: قد قام فينا نبيٌّ عظيم، وافتقد الله شعبه". (لوقا ٧: ١٤ـ١٦).

ولقد شهد تلاميذ المسيح أنه عبد الله ورسوله ولا شيء أكثر من هذا، فها هو متى يقرِّر في إنجيله أن المسيح حين جاء صدقت فيه نبوءة إشعياء في الإصحاح ٤٢، فقال: "فلما خرج الفَرِّيسيُّون تشاوروا عليه لكي يهلكوه، فعلم يسوع وانصرف من هناك. وتبعته جموع كثيرة فشفاهم جميعًا. وأوصاهم أن لا يظهروه؛ لكي يتم ما قيل بإشعياء النبي القائل: هوذا فتاي الذي اخترته، حبيبي الذي سُرَّت به نفسي. أضع روحي عليه فيخبر الأمم بالحق. لا يخاصم ولا يصيح، ولا يسمع أحد في الشوارع صوته. قَصَبَةً مرضوضة لا يَقصِف، وفتيلةً مُدخنة لا يُطفِئ، حتى يخرج الحق إلى النصرة. وعلى اسمه يكون رجاء الأمم". (متى ١٢: ١٤ ـ ٢١)[1].

تلك هي العقيدة التي يعتقدها المسلم في أنبياء الله ورسله، وأنهم ليسوا أكثر من عباد مكرمين، وبهذا يتضح لنا أن الأنبياء ما هم إلا بشر اصطفاهم الله وكرَّمهم بالنبوة والرسالة؛ ليكونوا حجة على الناس في تبليغهم ما أمرهم الله ﷻ به: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ (النساء)®.

ثانيًا. حقيقة العتاب الوارد في القرآن الكريم من الله لنبيه ﷺ:

إن عتاب الأنبياء الوارد في القرآن الكريم هو في الظاهر عتاب، وفي الحقيقة إكرام لهم وقرب لله ﷻ، وتنبيه لغيرهم ممن ليس في درجتهم من البشر بمؤاخذتهم بذلك، ليستشعروا الحذر، ويلتزموا الشكر على النعم، والصبر على المحن، والتوبة عند الزلة. فلله تعالى أن يعاتب أنبياءه وأصفياءه، ويؤدبهم، ويطلبهم بالنَّقير والقِطمِير من غير أن يلحقهم في ذلك نقص من كمالهم، ولا غض من أقدارهم، حتى يتمحصوا لعبودية الله ﷻ؛ لأن غاية أقوال الأنبياء وأفعالهم التي وقع فيها العتاب من الله ﷻ لمن عاتبه منهم، أن تكون على فعل مباح، كان غيره من المباحات الأخرى أولى منه في حقهم.

ثم إن المباحات جائز وقوعها منهم، وليس فيها قدح في عصمتهم ومنزلتهم، فهم لا يأخذون من المباحات إلا الضرورات، مما يتقوون به على صلاح دينهم، وضرورة دنياهم، وما أُخذ على هذه السبيل أصبح طاعة، وقربة، وعلى هذا فليس كل من أتى ما يلام عليه يقع لومه، فاللوم قد يكون عتابًا، وقد يكون ذمًّا، فإن صح وقوع لومه، كان من الله عتابًا له لا ذمًّا؛ إذ المعاتَبُ مسرور

---

١. المرجع السابق، ص٣٥ بتصرف.

® في "**دعوة النبي ﷺ للتوحيد**" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته). وفي "**دعوة الأنبياء واحدة**" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثامنة عشرة، من الجزء الرابع (دعوة النبي ﷺ وتبليغه الوحي).

والمذموم مدحور[1].

ثم إنَّ العتاب فيما قيل أنه عوتب عليه رسول الله ﷺ، إنما كان على ما حكم فيه رسول الله ﷺ بالاجتهاد، والاجتهاد محتمل الخطأ، فكان تصحيح الخطأ في اجتهاده من الله ﷻ بتوجيهه ﷺ إلى الأخذ بالصواب، فعاد الحكم بذلك إلى الوحي، ثم إنه ما من آية ظاهرها عتاب رسول الله ﷺ، إلا وهي واردة في مقام المنَّة على رسول الله ﷺ، وبيان عظيم فضله ومكانته عند ربه[2].

وخلاصة القول أن في هذا المقام أمورًا ثلاثة:

١. أن خطأ الرسول ﷺ لم يكن من جنس الأخطاء المعروفة التي يتردَّى فيها كثير من ذوي النفوس الوضيعة، كمخالفة أمر من الأوامر الإلهية الصريحة، أو ارتكاب فعل من الأفعال القبيحة، إنما كان خطؤه ﷺ في أمور ليس لديه فيها نص صريح، فأعمل نظره وأجال فكره، وبذل وسعه، ولكن رغم ذلك كله أخطأ.

٢. أن الله ﷻ لم يقر رسوله ﷺ على خطأ أبدًا؛ لأنه لو أقره عليه لكان إقرارًا ضمنيًّا بمساواة الخطأ للصواب، والحق للباطل، ما دامت الأمة مأمورة من الله باتباع الرسول ﷺ فيما يقول ويفعل، ولكان في ذلك تلبيس على الناس، وتضليل لهم عن الحق الذي فرض الله عليهم اتباعه، وثبت أن العليم الخبير لا يقر القدوة العظمى على خطأ أبدًا، بل لا بد أن يبين له وجه الصواب، ويكون مع هذا البيان لون من ألوان العتاب؛ لطيفًا أو عنيفًا، توجيهًا له وتكميلًا، لا عقوبة وتنكيلًا.

٣. أن الرسول ﷺ كان يرجع إلى الصواب الذي أرشده إليه مولاه دون أن يبدي غضاضة، ودون أن يكتم شيئًا مما أُوحي إليه من تسجيل الأخطاء عليه، وفي ذلك أنصع دليل على عصمته وأمانته، وعلى صدقه في كل ما يبلغ عن ربه، وعلى أن القرآن ليس من تأليفه، ولكنه تنزيل العزيز الرحيم[3].

وبهذا يتبين لنا أن العتاب الوارد في القرآن الكريم في حق النبي ﷺ ليس فيه ذم للنبي ﷺ، ولا إثبات ذنب له، ولكنه يدل على مدى قربه من الله تعالى ومنته عليه بأن وجهه التوجيه الصحيح ®.

ثالثًا. الآية التي يستدلون بها على أفضلية عيسى ؈ هي في حقيقتها تثبت وتؤكد أفضلية النبي ﷺ على غيره من الأنبياء والرسل:

يقول الله تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ (البقرة: ٢٥٣).

يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي في تفسيره: إن كل أعمال الحق ﷻ تصدر عن حكمة؛ لأنه سبحانه ليس له هوى ولا شهوة، فكلنا جميعًا بالنسبة إليه سواء،

---

١. المدحور: المطرود.

٢. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد الشربيني، مرجع سابق، ص١٦٨، ١٦٩ بتصرف.

٣. مناهل العرفان في علوم القرآن، د. محمد عبد العظيم الزرقاني، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ج٢، ص٣١٣ بتصرف يسير.

® في **"حقيقة عتاب الله ﷻ للنبي ﷺ بسبب تحريمه ما أُحِلَّ له"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الرابعة عشرة، من الجزء الأول (حياة النبي ﷺ الخاصة). والشبهة الثانية عشرة، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته).

إذن هو سبحانه حين يعطي مزية، أو يعطي خيرًا، أو يعطي فضيلة، يكون القصد فيها إلى حكمة ما.

وحينما قال الحق: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٥٢﴾ (البقرة) جاء بعدها بالقول الكريم: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (البقرة: ٢٥٣)، وأعطانا نماذج التفضيل فقال: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ يأتي في الذهن مباشرةً نبي الله موسى عليه السلام، وإلا فالله عز وجل قد كلَّم الملائكة، وبعد ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾، ثم قال: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ إنه سبحانه قد حدد أولًا موسى عليه السلام بالوصف الغالب فقال: ﴿كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾، وكذلك حدد سيدنا عيسى عليه السلام بأنه قد وهبه الآيات البينات، وبين موسى عليه السلام، وعيسى عليه السلام قال الحق: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾، والخطاب في هذه الآيات لمحمد ﷺ.

ولم يصرح القرآن باسم محمد، من باب إخفاء المعلوم؛ لأنه لا يستحق هذه المكانة سوى رجل واحد، ولن يكون غير محمد ﷺ.

وقد جعله الله تعالى في الوسط بين موسى وعيسى؛ لينبه على فضله عليهما، فإن واسطة العقد هي أفضل شيء فيهما وهذا المفهوم شائع في لغة العرب، ومن ذلك قول الشاعر:

تَوَخَّى[1] حِمامُ الموتِ أَوسَطَ صِبْيَتِي

فللهِ كيفَ اختارَ واسطةَ العِقْدِ

وإذا أردنا أن نعرف مناطات التفضيل، فإننا نجد رسولًا يرسله الله إلى قريته مثل سيدنا لوط مثلًا، وهناك رسول محدود الرسالة أو عمر رسالته محدود، ولكن هناك رسول واحد قيل له: أنت مرسل للإنس والجن كلهم بلا حدود في المكان، إلى أن تقوم الساعة، إنه محمد ﷺ.

فإذا كان التفضيل هو مجال العمل، فهو لسيدنا محمد ﷺ، وإذا نظرنا إلى المعجزات التي أيَّد الله بها رسله؛ ليثبتوا للناس صدق بلاغهم عن ربهم، نجد أن كل المعجزات، قد جاءت معجزات كونية، أي معجزات مادية حسية، الذي يراها يؤمن بها، فالذي رأى عصا موسى عليه السلام وهي تضرب البحر فانفلق، هذه معجزة مادية آمن بها قوم موسى، والذي رأى عيسى عليه السلام يبرئ الأكمه والأبرص، فقد شهد المعجزة المادية وآمن بها، ولكن هل لهذه المعجزات الآن وجود غير الخبر عنها؟ لا ليس لها وجود، ولا يؤمن بمثل هذه المعجزات إلا من يؤمن بصدق الخبر.

إن محمدًا ﷺ حينما يشاء الله أن يؤيده بمعجزة، لا يأتي له بمعجزة من جنس المحسوسات التي تحدث مرة واحدة وتنتهي - رغم أنه كانت له معجزات حسية كثيرة، إنه سبحانه قد جعل رسالته إلى أن تقوم الساعة، فرسالته غير محدودة، ولا بد أن تكون معجزته غير محسوسة وإنما تكون معقولة؛ لأن العقل هو القدر المشترك عند الجميع، لذلك كانت معجزته القرآن، ويستطيع كل واحد الآن أن يقول: محمد رسول الله، وتلك معجزته.

إن معجزة رسولنا ﷺ هي واقع محسوس، وفي مناط التطبيق للمنهج نجد أن الرسل ما جاءوا ليشرعوا، إنما كانوا يبلغون الأحكام عن الله، وليس لهم أن يشرعوا، أما الرسول ﷺ فهو الرسول الوحيد الذي قال

[1] . توخَّى: قصد وتعمَّد.

الله ﷻ عنه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (الحشر: ٧). وقد اختصه الله تعالى بالتشريع، أليست هذه مزية؟ وأيضًا تفضيل من الله ﷻ.

إذن حين يقول الله ﷻ: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾، فهذا لا ينطبق إلا على سيدنا محمد ﷺ وهو أفضل من التصريح بالاسم[1].

وقد رُوي عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "أُعطيت خمسًا لم يُعطهنَّ أحد قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأُحلَّت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس عامة"[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفَّع"[3].

فمحمد ﷺ لا يفخر بذلك، إنما يتحدث عن نعم الله التي أعطاها له وأكرمه بها لقوله ﷻ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ (الضحى). فهو سيد المتواضعين وإمام المتقين، فقد شرح الله صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، فلن تقبل "لا إله إلا الله" إلا مقرونًا بها "محمد

١. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج٢، ص١٠٧١: ١٠٧٣ بتصرف.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، أوائل كتاب التيمم (٣٢٨)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، أوائل كتاب المساجد ومواضع الصلاة (١١٩١).

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا على جميع الخلائق (٦٠٧٩).

رسول الله"، ولا يصح الإيمان بالله مع الكفر بمحمد رسول الله ﷺ، فالإيمان مقترن بالتصديق بالله وأن محمدًا رسول الله.

لذا فقد أخذ الله ميثاق جميع الأنبياء والرسل إن أدركوا محمدًا أن يؤمنوا به وينصروه، قال ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨١﴾ (آل عمران).

وقد خصه الله دون غيره بستٍّ لم يعطها أحدٌ من الأنبياء قبله، ففي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "فُضِّلت على الأنبياء بستٍّ: أُعطيت جوامع الكلم، ونُصِرْتُ بالرعب، وأُحلت لي الغنائم، وجُعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا، وأُرسلت إلى الخلق كافة، وخُتم بي النبيون"[4].

ففي هذا الحديث يخبر الرسول ﷺ بأن الله فضله على غيره بست، أُوتي جوامع الكلم، وذلك بأن يجمع في القول الوجيز المعاني الكثيرة، ونُصر بالرعب، وذلك بما يلقيه الله في قلوب أعدائه من الخوف من رسوله وأتباع رسوله ﷺ، وأُحلَّت له الغنائم، وكانت غنائم من قبلنا من الرسل وأتباعهم تُجمع، ثم تنزل نار من السماء تحرقها، وجُعلت له ولأمته الأرض مسجدًا وطهورًا، فحيثما أَدْرَكَتْ رجلًا من هذه الأمة الصلاةُ، فبإمكانه أن يتوضأ، فإن لم يجد يتيمم، ثم يصلي في مسجد مقام، أو في منزل في الصحراء، وأُرسل إلى الناس كافة عربهم

٤. أخرجه مسلم في صحيحه، أوائل كتاب المساجد ومواضع الصلاة (١١٩٥).

وعجمهم أبيضهم وأصفرهم وأحمرهم، من كان في وقت بعثته ومن يأتي من بعده حتى تقوم الساعة، قال ﷺ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: ١٥٨)، وأرسله إلى الجن كما أرسله إلى الإنس، وقد رجع وفد الجن بعد استماع القرآن الكريم، والإيمان بما نزل من الحق، داعين قومهم إلى الإيمان: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٣٢) ﴾ (الأحقاف)، والفضيلة السادسة أنه خاتم الأنبياء فلا نبي بعده: ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ (الأحزاب: ٤٠). وإذا كان رسولنا خاتم الأنبياء، فهو خاتم المرسلين من باب أولى، ذلك أن كل رسول هو نبي لا شك في ذلك، فإذا كانت النبوة بعد نبينا ممنوعة مقطوعة، فالرسالة ممنوعة أيضًا؛ لأن الرسول لا بد أن يكون نبيًّا.

ومعنى كونه خاتم الأنبياء والمرسلين أنه لا يُبْعثُ رسول من بعده يغيِّر شرعه، ويبطل شيئًا من دينه، أما نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان، فهو حق - كما أخبر به المصطفى ﷺ - ولكنه لا ينزل ليحكم بشريعة التوراة أو الإنجيل، بل يحكم بالقرآن، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويؤذن بالصلاة[1].

وبهذا يتبين لنا أن الآية الكريمة التي يستشهدون بها على أفضلية عيسى عليه السلام على محمد ﷺ، هي في حقيقتها تثبت أفضلية النبي ﷺ على سائر الأنبياء والناس كافة®.

رابعًا. علم الساعة غيب اختص الله به نفسه، فلم يُطلع عليه ملكًا مقربًا ولا نبيًّا مرسلا:

إن الآية التي يستشهدون بها على علم عيسى عليه السلام للغيب توضِّح أنَّ نزول عيسى عليه السلام علامة من علامات الساعة قبيل وقوعها، فليس لديه علم بوقت وقوعها.

إن علم الساعة أول مفاتح الغيب الخمسة التي هي من مكنونات علم الله، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ (٣٤) ﴾ (لقمان)، وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: "مفاتح الغيب خمس: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾"[2].

وقد سئل النبي ﷺ عن الساعة، فقال: "ما المسئول عنها بأعلم من السائل"،[3] وكان السائل جبريل عليه السلام متمثلًا في صورة بشر، فإذا كان أعلى الملائكة منزلة، وهو جبريل، وأعلى البشر منزلة وهو محمد ﷺ لا يعلمان متى تكون الساعة، فحريٌّ أن يكون غيرهما أكثر جهلًا

---

١. الرسل والرسالات، د. عمر سليمان الأشقر، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٢١٧: ٢١٩ بتصرف يسير.

® في **"التفاضل بين الأنبياء والرسل"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الحادية والعشرين، من هذا الجزء. وفي **"فضل النبي ﷺ على سائر الأنبياء"** طالع: الوجه الرابع، من الشبهة السادسة والعشرين، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة الأنعام (٤٣٥١)، وفي مواضع أخرى.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام (٥٠)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله (١٠٦).

بهذا الأمر.

وقد صرح القرآن أن وقت وقوعها من خصائص علم الله، ولذا فإنه لم يُطلع أحدًا على وقت وقوعها، لا ملكًا مقربًا ولا نبيًّا مرسلًا: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) ﴾ (الأعراف)، وقال ﷻ في آية أخرى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) ﴾ (الأحزاب).

وقال ﷻ أيضًا: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ (٤٤) ﴾ (النازعات).

وهذه الآيات وغيرها واضحة الدلالة على أن معرفة الوقت الذي تكون فيه الساعة لا يعرفه إلا رب العزة ﷻ، وأنها تأتي بغتة، وأن الرسول ﷺ لا يدري متى هي[1].

أما عن تفسير قوله ﷻ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) ﴾ (الزخرف)، فقد ذهب بعض العلماء إلى أن الضمير في: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ مراد به القرآن، وبذلك فسره الحسن وقتادة وسعيد بن جبير... ومعنى تحقيق أن القرآن علم للساعة أنه جاء بالدين الخاتم للشرائع فلم يبق بعد مجيء القرآن إلا انتظار انتهاء العالم، وهذا معنى ما روي من قول الرسول ﷺ: "بعثت أنا والساعة كهاتين"، ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى[2]. والمشابهة في عدم الفصل بينهما، وإسناد (علم الساعة) إلى ضمير القرآن إسناد مجازي؛ لأن القرآن سبب العلم بوقوع الساعة إذ فيه الدلائل المتنوعة على إمكان البعث ووقوعه[3].

هذا وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن المعنى "أي: أن عيسى ؑ علامة على قرب الساعة، قال ابن عباس وقتادة ؓ: إن خروج عيسى ؑ من علامات الساعة؛ لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة"[4].

وجاء فيها أيضًا: أنه قد وردت أحاديث شتى عن نزول عيسى ؑ إلى الأرض قبيل الساعة، وهو ما تشير إليه الآية: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ بمعنى أنه يُعْلِم بقرب مجيئها، والقراءة الثانية "وإنه لَعَلَمٌ للساعة" بمعنى أمارة وعلامة.

فعن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال، حتى لا يقبله أحد"[5].

---

١. القيامة الصغرى، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق، ص١٢٤ بتصرف يسير.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٢٠٤٢).

٣. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١٢، ج٢٥، ص٢٤٢، ٢٤٣ بتصرف يسير.

٤. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، د. ت، ج٢، ص١٣٢٥.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب قتل الخنزير (٣٢٦٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ (٤٠٦).

وعن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، فينزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم: تعال صلِّ لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله تعالى لهذه الأمة"[1][2].

إذن يتبين من تفسير هذه الآية، أنها لا تحمل أية دلالة على علم عيسى عليه السلام بالساعة، أو بوقتها، فعلم الساعة قد استأثر الله ﷻ به نفسه، ولم يجعله لأحد غيره ®.

خامسًا. كان لشق صدر النبي حِكَمٌ عظيمة اختص الله بها نبيه ﷺ دون غيره من الأنبياء:

إن عملية التنقية التي حدثت لرسول الله ﷺ وهو صغير، تدل على عصمة الله لنبيه ﷺ من وساوس الشيطان حتى لا يجد الشيطان سبيلًا إلى نفسه، وذلك إعداد له لبلوغ المنزلة الرفيعة التي تؤهله للتلقي عن الله ﷻ في المستقبل، وهذا من رحمة الله ورعايته لعبده ورسوله الذي اصطفاه.

يقول الشيخ محمد الغزالي عن هذه الحادثة: "وشيء واحد يمكن استنتاجه من هذه الآثار، أن بشرًا ممتازًا كمحمدٍ ﷺ لا تدعه العناية عرضًا للوساوس الصغيرة التي تناوش غيره من سائر الناس، فإذا كانت هناك موجات تملأ الآفاق، وكانت هناك قلوب تسرع إلى التقاطها والتأثر بها، فقلوب النبيين - بتولي الله لها - لا تستقبل هذه التيارات الخبيثة، ولا تهتز لها، وبذلك يكون جهد المرسلين في متابعة الترقي لا في مقاومة التدني، وفي تطهير العامة من المنكر لا في التطهر منه، فقد عافاهم الله من لُوثاته"[3].

ويشير العلامة السبكي إلى الحكمة البالغة من هذه الحادثة بقوله: "لو خُلق سليمًا منها لم يكن للآدميين اطلاع على حقيقته، فأظهره الله على يد جبريل عليه السلام ليتحققوا كمال باطنه، كما برز لهم مكمل ظاهره".

وبهذا فقد أنعم الله على عبده ورسوله بعصمته من الشيطان حتى أصبح المثل الكامل للنقاء والصفاء، وهذا من تباشير النبوة وعلاماتها الواضحة التي سبقت مبعثه ﷺ[4] ®.

سادسًا. المسيح عليه السلام لم يُحرِّم قتال الأعداء، والشواهد على ذلك كثيرة:

إن الجهاد الحقيقي الذي يريده الإسلام جهاد ضد الطغاة الذين يعتبرون الشعوب قطيعًا من الغنم، وجهاد ضد البغاة الذين لا يعترفون لإنسان بأي حق، وجهاد ضد الظلم الذي لم يترك الإنسان آمنًا فوق هذه الأرض، وجهاد ضد الفساد الذي فشا، وانتشر حتى في دور العبادة، وجهاد ضد الإذلال الذي جعل الحياة

1. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ (٤١٢).
2. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٥، ص٣١٩٨، ٣١٩٩ بتصرف يسير.
® في **"اختصاص الله ﷻ بعلم الغيب"** طالع: الشبهة السابعة والعشرين، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته). والوجه الأول، من الشبهة الثالثة والعشرين، من هذا الجزء.

3. فقه السيرة، محمد الغزالي، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٦٦، ٦٧ بتصرف.
4. الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، مرجع سابق، ص٣٠٨، ٣٠٩ بتصرف يسير.
® في **"الحكمة من شق صدر النبي ﷺ"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الخامسة، من الجزء الأول (حياة النبي ﷺ الخاصة).

جحيمًا يصطلي الناس بناره، دون سبب واحد يبرر هذا الإذلال أو هذا القهر.

وقد يحلو للبعض أن يتحدث عن " محمد القاتل" ـ قاتلهم الله ـ وقد يصفون عبقريته العسكرية، ولكنهم يخطئون الخطأ الجسيم حين يعذلون هذا الجانب عن الجوانب الأخطر والأهم من سيرته الشريفة، لقد قاتل حين كان سفك الدم قصاصًا لضمان الحياة، أو حين يأمر بقتل مجرم، ولا يرون الطبيب قاتلًا حين يأمر ببتر عضو فاسد، إن القتال الذي خاضه محمد ﷺ وصحبه كان في سبيل الله، وما كان في سبيل مأرب شخصي، أو مجد ذاتي، أو توسع إقليمي، أو غرض آخر مما ألَّف المؤرخون في سير القادة، والساسة على اختلاف العصور[1].

إن نبي الملحمة، هو نبي الرحمة، هو نبي الصلاة والزكاة، والبر والتقوى، شخصية متكاملة التقت فيها أمجاد الإنسانية الرفيعة كلها... لقد كان جهاده جهادًا في سبيل الله، لم يكن إشباعًا لغرور، ولا تمشيًا مع طمع، ولا جريًا وراء جاه، ولا عصبية لجنس ولا دعمًا لباطل في هذه الحياة، بل كان منعًا للشرك أن يقهر التوحيد، وأن يصد عن سبيل الله، ومنعًا للظلم أن يجتاح الحقوق، ومنعًا للقوة أن تمحق العدل[2]، لم يكن جهاده ﷺ للقتال ذاته، ولا حبًّا في إراقة الدماء كما يزعمون، بل لدرء الشر، ودفع البغي والعدوان، وحماية الدعوة، وكف الطغيان والباطل عنها.

جهاد يحرم قتل الطفل والضعيف والشيخ والمرأة، ويحترم دور العبادة، ويُحرِّم قطع شجرة، ويُحرِّم التمثيل بالقتلى، ويأمر برعاية الجَرحَى والرفق بالأسرى، جهاد يحرم قتل شاة أو بقرة، إلا في حالة الضرورة القصوى، جهاد يستهدف السلام والعدل، وإقامة دولة الإخاء، والمساواة فوق هذه الأرض.

يقول الله ﷻ: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ (البقرة)، ويقول تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾ ﴾ (النساء).

هذا هو الجهاد في الإسلام، أما عن الجهاد أو الحرب في الكتاب المقدس، والتي يؤمن بها كل يهودي أو مسيحي مخلص فقد جاء:

"حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تسالمك، بل عملت معك حربًا، فحاصرها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدًّا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبًا فلا تستبقِ منها نَسَمَة ما". (التثنية ٢٠: ١٠ ـ ١٦).

"ثم رجع يَشُوع في ذلك الوقت وأخذ حاصور وضرب ملكها بالسيف؛ لأن حاصور كانت قبلًا رأس

---

١. فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء، محمد الغزالي، دار الاعتصام، مصر، د. ت، ص١٣٩: ١٤١.

٢. محمد رسول الله ﷺ نبي الرحمة، سعيد عامر، طبعة خاصة، مصر، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص٢٤٢: ٢٤٤ بتصرف.

جميع تلك الممالك. وضربوا كل نفس بها بحدِّ السيف، حرَّموهم[1] ولم تبقَ نسمةٌ، وأحرق حاصور بالنار. فأخذ يشوع كل مدن أولئك الملوك وجميع ملوكها وضربهم بحد السيف. حرَّمهم كما أمر موسى عبدُ الرب. غير أن المدن القائمة على تلالها لم يحرقها إسرائيل، ما عدا حاصور وحدها أحرقها يشوع. وكل غنيمة تلك المدن والبهائم نهبها بنو إسرائيل لأنفسهم. وأما الرجال فضربوهم جميعًا بحد السيف حتى أبادوهم. لم يبقوا نسمة". (يشوع ١١: ١٠ ـ ١٤).

إن هذه التعاليم الإلهية في نظر اليهود والنصارى هي أساس الصلات بين المسيحيين وخصومهم، هي التدمير الذي يسقط جثة الأب إلى جوار ولده، إلى جوار امرأته.. ثم يهدم البيت فوق الجميع.

هذه هي المبادئ والأسس التي لا يتورع أصحابها من اتهام الإسلام بأنه انتشر بالسيف..

ألم يقل المسيح عليه السلام بالنص: "لا تظنوا أني جئتُ لألقي سلامًا على الأرض، ما جئت لألقي سلامًا، بل سيفًا، فإني جئت لأفرِّق الإنسان ضد أبيه، والابنة ضد أمها، والكَنَّة ضد حماتها، وأعداءُ الإنسان أهلُ بيته". (متى ١٠: ٣٤ـ ٣٦).

ألم يقل كذلك: "جئت لألقي نارًا على الأرض، فماذا أريد لو اضطرمتْ.. أتظنون أني جئتُ لأعطي سلامًا على الأرض؟ كلا، أقول لكم: بل انقسامًا". (لوقا: ١١: ٤٩ ـ ٥١).

وقال المسيح أيضًا: "حين أرسلتكم بلا كِيس ولا مِزوَد ولا أحذية، هل أعوَزَكم شيء، فقالوا: لا. فقال لهم: لكن الآن من له كيس فليأخذه، ومزود كذلك، ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتر سيفًا؛ لأني أقول لكم: إنه ينبغي أن يتم فيَّ أيضًا هذا المكتوب: وأُحصِي مع أَثَمَة؛ لأن ما هو من جهتي له انقضاء، فقالوا: يا رب، هوذا هنا سيفان، فقال لهم: يكفي". (لوقا ٢٢: ٣٥ ـ ٣٨).

ويقول في موضع أخر: "ولأني أقول لكم: إن كل من له يُعطَى، ومن ليس له فالذي عنده يُؤخَذ منه. أما أعدائي أولئك الذين لم يريدوا أن أَملِك عليهم، فأتوا بهم إلى هنا، واذبحوهم قُدَّامي". (لوقا ١٩: ٢٦، ٢٧)[2].

وعليه فلا مجال للقول بأن المسيح عليه السلام قد جاء للعالم بالسلام وأن محمدًا ﷺ قد جاء بالسيف، فكلاهما نبي من عند الله مهمته هي تبليغ الناس رسالة ربهم، ونحن ـ المسلمين ـ مطالبون بأن نؤمن بكل الأنبياء وبكل ما أنزل عليهم من ربهم دون تفرقة بين أحد منهم، يقول ﷻ: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ (البقرة)®.

الخلاصة:

- لا فرق في الإسلام بين نبي وآخر، فدعوتهم جميعًا واحدة وهي: إفراد الله ﷻ بالوحدانية المطلقة؛

١. حرَّم: قتل.

٢. بنديكت السادس عشر، د. عبد الودود شلبي، كتاب المختار، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص١٠٥: ١١٠.

® في **"حقيقة تشريع الجهاد في المدينة"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثامنة، من الجزء الثاني (أخلاق النبي ﷺ).

لذلك فهم جميعًا بشر فضلهم الله واصطفاهم بالرسالة والنبوة دون غيرهم من البشر الآخرين.

- العتاب الوارد في القرآن الكريم للنبي ﷺ ليس فيه ما يثبت الذنب والخطأ له ﷺ، وإنما هو زيادة في التقرب إلى الله ﷻ، فالعتاب لا يصدر إلا من حبيب لحبيبه، ثم إنه كان في اجتهاد لم ينزل فيه حكم.

- إن الآية التي يستدلون بها على أفضلية عيسى عليه السلام تثبت وتؤكد الأفضلية للنبي ﷺ على غيره من الأنبياء والرسل، بما اختصه الله تبارك وتعالى من خصوصيات ثبتت له ﷺ، وهذه الآية هي: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة: ٢٥٣). وهذا هو المفهوم من قوله ﷻ: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾.

- لقد اختص الله ﷻ نفسه بعلم الغيب، ومنه قيام الساعة، فلم يُطْلِع على قيامها ملكًا مقربًا ولا نبيًّا مرسلًا، ولكن أخبرنا النبي ﷺ بعلامات تكون قبل قيامها لينبهنا إذا وقعت هذه العلامات أن الساعة قد اقتربت، ومنها كما في الآية نزول سيدنا عيسى عليه السلام ليحكم بالعدل ويقتل الدجال، وهذا هو تفسير الآية كما ورد في الأحاديث الصحيحة بذلك: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ (الزخرف: ٦١).

- اختص الله نبيه ﷺ بمعجزات لم تحدث لغيره، ومنها شق صدره، وقد كان لهذا الحادث حِكمٌ عظيمة، منها انتزاع حظ الشيطان من قلبه، حتى لا يكون للشيطان عليه سبيل، وتعليمه الحكمة التي أرادها الله ﷻ، وتعليم البشر أن كل إنسان يولد ومعه حظ الشيطان فلا بد أن يتغلب عليه.

- لم يُحرِّم المسيح عليه السلام القتال والحرب على أتباعه - كما يدعون -، بل دعا إليهما في حالات كثيرة، ومن ذلك قوله: "لا تظنوا أني جئت لألقي سلامًا على الأرض، ما جئت لألقي سلامًا، بل سيفًا"، فكيف يدَّعون أنه لم يَدْعُ إلى قتال ولا حرب؟!! لكن ننبه إلى قتال الأنبياء يكون لدفع الشر، ودحض الباطل وحماية الحق، وكذلك كان قتال محمد ﷺ وجهاده.

الشبهة الخامسة والعشرون

الزعم أن النبي ﷺ كان يُقدِّر عيسى وأمه عليهما السلام لنفوذ النصارى وسَطْوتهم في مكة (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن النبي ﷺ كان يُقدِّر النصارى ويتودَّد إليهم؛ لسطوتهم ونفوذهم في مكة؛ ويستدلون على ذلك بأنه ﷺ ترك صور المسيح وأمه عليهما السلام على جدران الكعبة تقديرًا لهما واعترافًا بفضلهما. ويرمون من وراء ذلك إلى التشكيك في مصداقية علاقة النبي ﷺ بالنصاري.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إن تقدير النبي ﷺ للمسيح عليه السلام وأمه كان لثناء الله ﷻ عليهما في القرآن الكريم؛ ولأنه أخو النبي ﷺ في الرسالة وليس تودُّدًا للنصارى.

٢) كانت عبادة الأصنام هي العبادة المنتشرة في

(*) لكن محمدًا لا بواكي له، د. إبراهيم عوض، مرجع سابق.

مكة، أما النصارى فلم يكن لهم وجود يُذكر فيها، فضلًا عن كثرتهم وسطوتهم ونفوذهم.

٣) لقد جاءت رسالة النبي ﷺ تحرم التصاوير والتماثيل، التي فيها مضاهاة لخلق الله؛ ولهذا فقد أزال ﷺ ومحا جميع الصور والتماثيل الموجودة في الكعبة، ولم يثبت أنه ترك منها شيئًا أبدًا.

التفصيل:

أولا. مكانة عيسى عليه السلام عند المسلمين:

قد لا يعرف المسيحي أن الاحترام الذي يكنه المسلم لعيسى عليه السلام ولوالدته السيدة مريم، ينبع من إيمانه المطلق بالقرآن الكريم، ولا يذكر المسلم اسم عيسى دون أن يتبعه بقوله عليه السلام؛ احترامًا لهذا النبي والرسول العظيم.

وقد لا يعرف المسيحي أيضًا أن اسم عيسى عليه السلام ذُكر خمسًا وعشرين مرة في خمس عشرة سورة في القرآن الكريم، مقابل أربع مرات ذُكر فيها اسم سيدنا محمد ﷺ، ومن الآيات التي ذكر فيها اسم المسيح عليه السلام على سبيل المثال: قال الله عز وجل: ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾(البقرة: ٢٥٣)، وقال عز وجل: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (آل عمران: ٤٥)، وقال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾(النساء: ١٧١)، وقال: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾(المائدة: ٤٦)، وقال عز وجل: ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (الأنعام).

ولقد اقترن ذكر عيسى عليه السلام في الإسلام بألقاب متعددة تحمل كلها أروع معاني الإجلال والتقديس، وفي هذا تقدير من العزيز الحكيم ليحدد هوية هذا الإنسان وصفته الذي خُلق بمعجزة فهو ابن مريم فقط، ولا علاقة له بيوسف النجار.

وهو "عبد الله"، و "رسول الله"، و "كلمة الله"، و "روح الله" و "آية الله".. ولم يكن أبدًا ولا ينبغي له أن يكون "ابن الله"، بل هو فقط "عيسى ابن مريم".

ويكفي هذا الرسول العظيم تشريفًا أنه لم ينقطع ذكره على ألسنة المسلمين، والذين ما زالوا يتلون القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا، وقلوبهم عامرة بالحب والاحترام.

وكذلك أشار القرآن الكريم إلى منزلة السيدة مريم ـ عليها السلام ـ قبل إعلان ولادته، وإلى المكانة التي اختصها بها الله تعالى، قال عز وجل: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (آل عمران).

وإذا تساءل المسيحي عن مصدر هذا الكلام الجميل، فالجواب تؤكده الآية التالية من رب العالمين إلى رسوله ﷺ، قال عز وجل: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾(آل عمران).

ولقد ذكر الوحي الإلهي للنبي ﷺ قصة ولادة مريم؛ والتي لم يكن يعرفها من قبل، حيث نجد ـ كما يخبرنا القرآن ـ أن أم مريم، كانت عاقرًا وقد دعت ربها

بصدق إذا رزقها الله بولد فإنها ستوقف هذا الولد لخدمة الله، وسمع الله دعاءها وولدت مريم، فتألمت؛ لأنها كانت تحن إلى مولود ذكر، ولكن الله وهبها بنتًا.

والأنثى ليست كالذكر؛ لأنها نذرت المولود ليخدم في المعبد، وانتظرت حتى كبرت مريم.

وعندما حان الوقت أخذت أم مريم مريم إلى المعبد كي تخدم فيه، وَتَدافَعَ الكهنة في أمر هذه الفتاة من يقوم على رعايتها، وبعد نقاش طويل، وخصام بين الكهنة وقعت القرعة على زكريا لرعايتها.

فمن أين لمحمد ﷺ معرفة هذه القصة وتفاصيلها، وقد كان أميًّا لا يعرف القراءة والكتابة؟ أجاب الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ (النساء) في قوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (آل عمران)، إذن هو وحي إلهي تنزَّل على محمد ﷺ، وإذا ما اعترض - المدعون قائلين: لقد اختلق محمد هذه القصة أو أخذها عن اليهود والنصارى، فدعونا نسأل هذا المدعي:

هل لديك شك بأن محمدًا ﷺ كان عربيًّا؟

وأن محمدًا ﷺ كان يخاطب - في البداية - عربًا؟

وسواء وافق العرب أم لم يوافقوا، فهو يقرر أن مريم أم عيسى - المرأة اليهودية - التي اصطفاها الله سيدة نساء العالمين، رغم أنها ليست أمه آمنة، ولا زوجته خديجة، ولا ابنته فاطمة، أو أية امرأة عربية أخرى، بل هي امرأة يهودية!! هل لك أيها المدعي أن تفسر لنا هذا؟ كيف يُشرِّف النبي امرأة من صفوف معارضيه.. يهودية تنتمي إلى عرق ينظر إلى العرب نظرة استعلاء! كما لا يزال اليهود ينظرون إلى العرب حتى يومنا هذا على أنهم من عرق وضيع![1] وستجد أن الجواب لا يتعدى أن يكون أن هذا التشريف كان بوحي من الله، كما أن عيسى عليه السلام عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول، وأنه أخ للنبي ﷺ في الرسالة.

ولكن - للأسف - كل هذا التشريف لم يحظ عند النصارى بأي قبول، بل إنهم قابلوه بالرفض القاطع لظنهم أن هذا وضع من قدر المسيح عليه السلام؛ إذ يعتبرونه الإله، أو ابن الإله؛ فأين تقدير النبي ﷺ للنصارى وهو يختلف معهم، في كنْه المسيح، وكيف يتودد إلى النصاري وقد كفر بقولهم بالتثليث، أو برفع عيسى عليه السلام فوق درجة العبودية والرسالة؟

فالقول بأن هذا التشريف من النبي ﷺ كان تقديرًا للنصارى وتوددًا إليهم، أو غير ذلك؛ إنما هو زعم باطل لا دليل عليه.

ثانيًا. حجم النصرانية في مكة قبل البعثة:

من الثابت تاريخيًّا أنه لم يكن هناك أي وجود للنصارى في مكة قبل البعثة، فضلًا عن كونهم كثيرين - كما يدعون - فلو استعرضنا الحياة الدينية في مكة قبل بعثته ﷺ نجد أنه " قد شاعت عبادة الأصنام في الجزيرة العربية كلها، وملئت مكة بالأصنام، وبخاصة في البيت الحرام، فقد بلغ عدد الأصنام حول الكعبة ثلاثمائة وستين صنمًا وأشهرها هُبل، وللعرب أصنام كثيرة منها: اللات والعزى وإساف ونائلة، وكانوا يُسمون بأسمائها كعبد العزى وعبد مناف، وقد ذكر القرآن

---

١. أضواء على المسيحية، أحمد ديدات، مرجع سابق، ص٤٥: ٤٧ بتصرف يسير.

الكريم بعض أسماء الأصنام كقوله ﷻ: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ (النجم).

وانتشرت عبادة الأصنام في كل قبيلة إذ اتخذت كل قبيلة صنمًا خاصًّا بها، وكانوا إذا خرجوا في سفر انتقوا حجرًا فطافوا حوله، وإذا لم يجدوا حجرًا مناسبًا حشوا حَثْوَة[1] من التراب وجمعوه ثم حلبوا عليها من الشاة ثم طافوا حولها"[2].

قال ابن إسحاق: "واتخذ أهل كل دار في دارهم صنمًا يعبدونه، فإذا أراد الرجل منهم سفرًا تمسّح به حين يركب، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره، وإذا قدم من سفره تمسّح به، فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله"[3]. ومما يؤكد ذلك أيضًا أنه لما بُعث النبي ﷺ بالتوحيد قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ (ص).

وقد عبدت بعض القبائل النجوم والكواكب، كحِمْيَر وكِنانة ولَخْم وجُذام، فقد عبدت حمير الشمس، وكنانة القمر، ولخم وجذام عبدتا المُشْتَرِي، وقيس عبدت الشِّعْرَى، وكانت قريش على شركها تدعي لنفسها أنها على ديانة إبراهيم وولده إسماعيل، وتفرد نفسها بخصائص ليست لغيرها، وقد خصت نفسها بهذه الخصائص لقيامها بسدانة البيت الحرام، وسقي الحجيج، وتقديم الخدمات لهم[4].

١. الحَثْوَة: الغَرْفَة.

٢. السيرة النبوية، د. محمد عبد القادر أبو فارس، مرجع سابق، ص٧٨.

٣. السيرة النبوية، ابن كثير، مرجع سابق، ص٧٠.

٤. السيرة النبوية، د. محمد عبد القادر أبو فارس، مرجع سابق، ص٧٨، ٧٩.

أما النصرانية فلم يكن لها أثرٌ يُذكر في مكة، والسبب في عدم انتشار النصرانية في بلاد العرب، التعقيدات التي فيها لا سيما في باب الألوهية، فإنه لا يقبلها العقل العربي، كما أن بها الكثير من الأمور التي يزعم القُسس أنها من الأسرار، وطبيعة العربي تأبى ذلك أيضًا[5]؛ ولذلك لم يعتنق النصرانية إلا عدد قليل من أهل مكة لا يعدو أصابع اليدين ولم تكن معرفتهم بالنصرانية إلا مجرد الانتماء، فأين كثرتهم تلك التي يتحدثون عنها؟!

ثالثًا. لقد جاءت رسالة النبي ﷺ تحرِّم التصاوير والتماثيل؛ ولهذا أزال النبي ﷺ جميع الصور والتماثيل الموجودة في الكعبة، ولم يثبت أنه ترك منها شيئًا:

إن الزعم بأن النبي ﷺ ترك صور المسيح وأمه اعترافًا بفضلهما، فيه من الغرابة ما فيه، فمن المعروف أن تعاليم الإسلام تحرم التصاوير والتماثيل، التي فيها مضاهاة، أو مشابهة لخلق الله ﷻ، فقد جاء أن النبي ﷺ قال: "أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله"[6]، وفي رواية: "أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصورون"[7].

وكذلك عندما بعث محمد ﷺ عليَّ بن أبي طالب

٥. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج١، ص٧٩ بتصرف يسير.

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب ما وطئ من التصاوير (٥٦١٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة (٥٦٥٠).

٧. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب عذاب المصورين يوم القيامة (٥٦٠٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة (٥٦٥٩).

إلى اليمن أوصاه قائلًا: "لا تدع تمثالًا إلا طمسته[1]، ولا قبرًا مشرفًا[2] إلّا سويته..".[3] فكيف يُحرِّم الإسلام - الذي أتى به محمد ﷺ - التصوير والتماثيل، ثم يأتي محمد ﷺ ويُبْقي على صور أو تماثيل في الكعبة بعد دخوله إياها، فهذا إذن ضرب من التناقض.

ومما يُبطل هذا أنه ﷺ لم يدخل الكعبة حتى أخرج منها كل ما فيها من صور وأصنام؛ فقد روي عن جابر أن النبي ﷺ أمر عمر بن الخطاب - وهو بالبطحاء - أن يأتي الكعبة فيمحو كل صورة فيها، فلم يدخلها حتى مُحيت الصور[4]، وعن أسامة بن زيد أنه ﷺ دخل الكعبة، فرأى صورًا، فدعا بماء فجعل يمحوها[5].

وهذه الأحاديث تدل على أنه ﷺ أمر بالرسوم المخطوطة على الجدران فَمُحيت، كما أمر بالصورة المجسمة القائمة في جوفها فأخرجت، ويبدو أنه حينما دخل بعد ذلك وجد آثارًا لتلك الرسوم على بعض جدرانها فدعا بماء، وجعل يبالغ في حتها ومحوها[6].

وعليه فلو كان الأمر اعترافًا بالفضل أو توددًا لأحد لكان الأولى أن يترك ﷺ صورة إبراهيم عليه السلام؛[7] إذ إن الإسلام هو ملة إبراهيم عليه السلام، قال عز وجل: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ (الحج: ٧٨)، كما أن العرب هم أولاد إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - وكان مشركو مكة يزعمون أنهم على دينه، ألم يكن من الأولى للنبي ﷺ أن يتودّد لهؤلاء المشركين، وهم الأكثر عددًا وعدة®؟!

الخلاصة:

- إن التقدير الشديد من المسلمين لعيسى عليه السلام وأمه نابع من إيمان المسلمين بالقرآن الكريم، الذي أثنى الله عز وجل فيه على المسيح عليه السلام، ووصفه بأنه عبد الله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم البتول، ولقد أوحى الله عز وجل لنبيه قصة عيسى عليه السلام، وأنه ولد بمعجزة من غير أب، ثم إن هذا التشريف لم يلق قبولًا من النصارى؛ إذ إنهم يتخذون عيسى عليه السلام إلهًا، أو ابن إله، فأين تقدير النبي ﷺ للنصارى، وهو يختلف معهم في كنه المسيح عليه السلام.
- إن أهل مكة كانوا قبل بعثته ﷺ يعبدون

١. الطَّمْس: تغيير الصورة وتشويهها.

٢. المشرف: المرتفع.

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الأمر بتسوية القبر (٢٢٨٧).

٤. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنهما (١٤٦٥٤)، وأبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب في الصور (٤١٥٦)، وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٥. صحيح: أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده، أحاديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما (٦٢٣)، والطبراني في المعجم الكبير (١/ ١٦٦) برقم (٤٠٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٩٦).

٦. فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مرجع سابق، ص٢٩٣.

٧. جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما "أن رسول الله ﷺ لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة، فأمر بها فأخرجت، فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأزلام، فقال النبي ﷺ: "قاتلهم الله، لقد علموا ما استقسما بها قط"، ثم دخل البيت فكبَّر في نواحي البيت وخرج ولم يصل فيه". {أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب من كبر في نواحي الكعبة (١٥٢٤)}.

® في **"نهي النبي ﷺ عن النحت والتصوير والتماثيل"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الأولى، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته). والوجه الثاني، من الشبهة الثانية عشرة، من هذا الجزء.

الأصنام، ولم يكن فيها نصارى، اللهم إلا عدد قليل لا يتجاوز أصابع اليدين، لا يعرف عن المسيحية إلا الانتماء إليها، وليس لهم وزن أو ثقل في تغيير مجريات الأمور.

- إن رسالة النبي ﷺ جاءت بتحريم التماثيل والتصاوير التي فيها مضاهاة لخلق الله، وعلى هذا فقد محا النبي ﷺ كل التصاوير التي كانت موجودة في الكعبة - مثلما أزال الأوثان التي كانت حولها - بما فيها من صور للمسيح عليه السلام وأمه السيدة مريم، ولم يترك منها شيئًا، ولو كان الأمر اعترافًا بجميل أحد أو تودُّدًا لأحد - كما يزعم المدَّعون - لكان من الأولى أن يترك صورة إبراهيم وابنه إسماعيل - عليهما السلام - توددًا للعرب المشركين الأكثر عددًا وعدة، لكن هذا لم يحدث.

الشبهة السادسة والعشرون

الزعم أن النبي ﷺ غدر بأهل الكتاب(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغرضين أن النبي ﷺ تنكَّر لأهل الكتاب، وغيَّر معاملته لهم تبعًا لظروفه، ويستدلون على ذلك بأنه ﷺ بدأ أمره مسالمًا إياهم، فلما رأى من نفسه القوة تنكَّر لهم، وانقلب إلى طاغية يطاردهم ويشرِّدهم، ويمثلون لذلك بما فعله النبي ﷺ مع اليهود. وهم بذلك يشككون في علاقته ﷺ بأهل الكتاب ومدى تسامحه معهم، ويرمون من وراء ذلك إلى وصفه ﷺ بالغدر والخيانة.

وجها إبطال الشبهة:

١) كانت العلاقة بين النبي ﷺ وأهل الكتاب قائمة على التسامح والعدالة والبر، وهذه العلاقة لم تتبدل في أي مرحلة من مراحل حياته ﷺ، على الرغم من رفضهم له ولدينه.

٢) لم يكن النزاع القائم بين النبي ﷺ واليهود بسبب كونهم يهودًا مخالفين له في الدين، وإنما كان بسبب غدرهم وخيانتهم، وموالاة الكفار ضد المسلمين، ومحاولات قتل النبي ﷺ التي دبَّروها وعصمه الله منها.

التفصيل:

أولا. العلاقة بين النبي ﷺ وأهل الكتاب قائمة على التسامح والعدل والبر:

بداية نقول: إن البشرية لم تشهد دعوة قامت على التسامح مع الخصوم مثل دعوة محمد ﷺ، ولا إنسانًا تسامح مع أعدائه مثل محمد ﷺ، ولا دينًا تسامح مع الأديان الأخرى مثلما تسامح دين الإسلام.

ولا عجب في ذلك فقد أرسل الله نبيه ﷺ رحمة للعالمين، وعرَّفه مهمته بأنه مُكلَّف بالبلاغ وحسب، يقول ﷻ: ﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ (طه) وأفهمه أنه لا يقتاد

(*) التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٣م. المستشرقون والإسلام، محمد قطب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م. الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، محمد ياسين مظهر صديقي، ترجمة: سمير عبد الحميد إبراهيم، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، مرجع سابق.

الناس إلى الإسلام قسرًا: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ (يونس).

ومن ثم اتسمت دعوته ﷺ بالتسامح والعفو وحسن المعاملة حتى مع أعدائه الألداء من عبَّاد الأوثان، فما بالنا بمعاملته لأهل الكتاب من اليهود والنصارى وهم أهل كتب سماوية، ولهم صلة بالأنبياء قوية؟!

إن السيرة النبوية مليئة بالشواهد والأدلة على تسامحه ﷺ مع أهل الكتاب، وهذا التسامح لم يَحِدْ عنه النبي ﷺ طوال مراحل دعوته، وتعامله معهم، سواء في المرحلة المكية أو في المرحلة المدنية، حتى في أحلك الظروف واشتداد عداوتهم له، وتصدِّيهم لدعوته.

الأدلة على تسامح النبي ﷺ مع اليهود:

لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة، لم يكن وصوله إليها خلودًا للراحة، ولا فرارًا من قومه؛ وإنما ليكمل رحلة شاقة بدأها في مكة، ومنذ أن وصل النبي ﷺ المدينة رأى أن اليهود أهل كتاب، وأن كتابهم غير المحرَّف فيه صفات النبي ﷺ يعرفونه بسببها، لا تخطئهم فيه صفة من هذه الصفات، ولقد وصلوا بمعرفتهم تلك إلى حد اليقين في قلوبهم، كما أخبر الله ﷻ عنهم أنهم: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ (الأنعام: ٢٠).

لقد رأى النبي ﷺ أن اليهود أهل كتاب، ولهم بالأنبياء صلة، وصفته في التوراة عندهم، وهم يعرفون نبوته وقد بَشَّروا بها قبل مجيئه.

ومعرفة النبي ﷺ باليهود على هذا النحو كانت عاملًا مساعدًا له، كي يعرض عليهم أول ما يعرض أن يدخلوا معه في دينه.

والعقل يحتمل أن اليهود لن يرفضوا هذا العرض، لمعرفتهم بالنبي ﷺ من جهة؛ ولأنهم مأمورون باتباعه في كتبهم المقدسة، وموروثات نبيهم موسى ؑ، ولأنهم كانوا ينتظرون على شوق مجيئه حتى يتبعوه، فينجبر به كسرهم، ويكتسبوا به عزتهم وشرفهم، وينتصروا به على عدوهم ـ كما يتصورون ـ من جهات أخرى.

غير أن النبي ﷺ حين عرض عليهم أن يؤمنوا به وبنبوته، ثم يتبعوه على ما جاء به من ربه، رفضوا ذلك على غير قناعة، بل رفضوه على أساس الحسد الذي قد ملأ قلوبهم، وزاد عن حشو إهابهم.

لقد رفض اليهود عرض النبي ﷺ عليهم أن يؤمنوا، وأثَّر ذلك في نفس النبي ﷺ كعادته، يحزن على كل إنسان ينصرف عن الحق، ويعرض عن الإيمان.

غير أن الله قد شرح للنبي ﷺ طبيعة اليهود، وواساه حتى لا يحزن ولا يشتد على نفسه، وبين له أن اليهود لن ترضى عنه إلا أن يتبع ملتهم، وهو أمر غير وارد.

استبعد النبي ﷺ مسألة إيمان اليهود تلك، ولكنه لم يستبعد أن يؤمن بعضهم، ورأى أن إيمان بعضهم ربما يكون سببًا في إيمان آخرين ينجيهم الله من النار، ويذهب بهم الإيمان بعيدًا عن الجحيم.

واحتمالات النبي ﷺ لم تكن هباءً؛ إذ شرح الله صدور بعض اليهود، فدخلوا معه في دينه[1].

ومن هؤلاء: الحصين بن سلام، والذي سمَّاه الرسول ﷺ بعبد الله بن سلام، ولكن إسلامه لم يكن

١. رسالة من النبي إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود، د. طه حبيشي، مكتبة رشوان، القاهرة، ط٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٢٦، ٢٧ بتصرف يسير.

قاعدة سار عليها اليهود، بل يُعدُّ من شواذ الأحداث الاجتماعية في عُرْف اليهود؛ إذ ذهبوا بجملتهم إلى رفض دين رسول الله ﷺ حسدًا من عند أنفسهم.

وعلى الرغم من أن النبي ﷺ لم يُعلِّق على إيمان اليهود كبير أمل، إلا أنه لم يلجأ إلى التصادم معهم، بل بدأ مفاوضتهم على أساس آخر قد يصلح لهم وله، وهذا الأساس هو أساس المواطَنة يتخذها الطرفان أساسًا ليبنوا عليها معاهدة سلام يلتزم بها النبي ﷺ وأصحابه من جهة، ويخضع لها اليهود من جهة أخرى.

ولِـمَ لا، والمسلمون واليهود يسكنون يثرب، ويعيشون على أرضها، والمعايشة تستحق الاشتراك والتعاون في الدفاع عن هذه الأرض، ورد كل غائلة[1] عنها؟

ولقد بادر النبي ﷺ بمفاتحة أبناء يهود في أن يدخلوا معًا في معاهدة سلام يحترمونها جميعًا، بعد توقيعها، حتى يتمكَّن النبي ﷺ من بناء دولته التي تضم شعبًا متحد الأهداف على أرض واضحة المعالم، تحت سماء نقية طاهرة، لا يزعجها شيء ولا يقلقها خطر[2].

ومن ثم فقد دخل النبي ﷺ مع اليهود في عهد ملزم، وبنود يجب أن يخضع لها الجميع، ومن أهم هذه البنود:

أن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يُوتِغ[3] إلا نفسه وأهل بيته.

أن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل الصحيفة.

والمتأمل في هذه الوثيقة يجد أنها تدل على مدى العدالة التي اتسمت بها معاملة النبي ﷺ لليهود، ولقد كان بالإمكان أن تؤتي هذه المسألة العادلة ثمارها فيما بين المسلمين واليهود، لو لم تتغلب على اليهود طبيعتهم من حب للمكر والغدر والخديعة[4]، وتلك هي طبيعتهم دائمًا في كل عصر ومصر، ألم يقل ﷻ عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ٥٦﴾ (الأنفال: ٥٦)؟!

ومن أكبر الأدلة على تسامح النبي ﷺ مع اليهود: التزامه بمعاهدة السلام التي كانت بين المسلمين واليهود، على الرغم من استفزازات اليهود الكثيرة للنبي ﷺ وللمسلمين ومن هذه الاستفزازات:

محاولة إحراج النبي ﷺ:

وذلك بالسؤال عن أشياء يظنون أنه لا يستطيع أن يجيب عنها، فيفقد بذلك مصداقيته، وقد أجابهم النبي ﷺ في كل ما سألوه، ورغم شهادتهم بصدقه إلا أنهم لم يؤمنوا به، ومن ذلك سؤالهم عن الروح فنزل الوحي يقول: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ (الإسراء). وقد فاجأ اليهود هذه الإجابة، فتلاوموا فيما بينهم، حتى قال فريق لفريق: ألم نقل لكم لا تسألوه؟

التطاول على النبي ﷺ والتعدي على الذات الإلهية:

ومن ذلك ما روته كتب السير وتابعتها في ذلك كتب الأحاديث الصحاح، ومن ذلك أن أبا بكر

---

١. الغائلة: المصيبة.

٢. رسالة من النبي إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود، د. طه حبيشي، مرجع سابق، ص٣٠ بتصرف.

٣. يُوتِغ: يُهلِك.

٤. فقه السيرة، محمد سعيد رمضان البوطي، مرجع سابق، ص١٦٠، ١٦١ بتصرف.

الصديق ﷺ ذهب في شراء سلعة من سوق اليهود، وسأل اليهودي عن ثمنها، فقال اليهودي لأبي بكر مستفزًّا له: والذي اصطفى موسى على العالمين إن هذه السلعة ثمنها كذا، ولما رأى أبو بكر أن اليهودي قد عمد إلى استفزازه، صفعه على وجهه، فانطلق اليهودي إلى النبي ﷺ يشكو صاحبه إليه، وقد امتص النبي ﷺ غضب المسلمين، وحافظ على وحدة المجتمع بقوله ناصحًا: "لا تُخيِّروني على موسى"[1][2].

وفي بعض ما روته كتب السير أن آحاد اليهود لم يقدروا على ضبط انفعالاتهم، فأخذوا يتطاولون حتى على الذات الإلهية، ومن ذلك ما قاله فنحاص اليهودي لأبي بكر، حينما أراد أبو بكر أن يرغِّبه في الإسلام، فرغَّبه ورهَّبه حين يقبل على ربه يوم القيامة، فقال له فنحاص: إنا عن ربك لفي غنى، وإنه إلينا لمحتاج، وإن صاحبكم ليحرِّم عليكم الربا ويعرضه علينا. ولم يُطق أبو بكر سماع كلامه، فرد عليه بما يكافئ قوله: "والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت رأسك"[3].

تهديد المسلمين بنقض المعاهدة ومحاربتهم:

لم تؤتِ استفزازات اليهود للنبي ﷺ وللصحابة ﷺ ثمارها، وذلك لسعة صدر النبي ﷺ فوصل اليهود في الاستفزاز إلى منتهاه، وذلك حين نصحهم النبي ﷺ بعد غزوة بدر، وطلب إليهم أن يكفوا عن استفزازاتهم، وإلا فعل الله بهم ما فعل بالمشركين يوم بدر، فقالوا له: لا يغرَّنك يا محمد أنك قابلت أناسًا لا بصر لهم بالحرب، وانتصرت عليهم، فوالله لو قابلتنا لتعلمن أنَّا نحن الناس.

عجيب حقًّا والله أن يسمع النبي ﷺ هذا الكلام من أناس تربطه وإياهم معاهدة سلام، غير أنها أخلاق اليهود وكفى[4].

لم يكتفِ اليهود بإيذاء النبي ﷺ والمسلمين بألسنتهم، بل حاولوا إيذاء النبي ﷺ في جسده، وكان أول ما آذوه به أنهم قد سحروا له، وأوكلوا أمر سحره إلى لبيد بن الأعصم، وقد بيَّن الله له ما صنع اليهود به، كما بيَّن له مكان السحر وكيفية استخراجه، ومع ذلك لم يعلن النبي ﷺ الحرب عليهم.

نقول: إن كل هذه الاستفزازات من قِبل اليهود على الرغم من المعاهدة القائمة بينهم وبين المسلمين، إلا أن النبي ﷺ لم يجزم بأن اليهود قد خرجوا من معاهدة السلام بهذه الاستفزازات؛ إذ هو يحتمل أن تكون هذه الاستفزازات قد صدرت عن آحاد من اليهود، وهي لا تعبِّر عن رأي جماعتهم.

وصفوة القول: إن النبي ﷺ رأى في هذه الاستفزازات قرائن تدل على أن اليهود يرغبون في الخروج من معاهدة السلام معه، ولكنها لا تصل إلى حد الدليل، والشأن في النبي ﷺ أنه لا يبني قرارًا على

1. لا تخيِّروني على موسى: لا تفضِّلوني عليه تفضيلا يوهم بنقص قدره، أو يؤدي إلى الخصومة.
2. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الإشخاص والملازمة والخصومة بين المسلم واليهودي (٢٢٨٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ (٦٣٠٢).
3. أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره، تفسير سورة آل عمران، الآية (١٨١)، (٨٣٠٠).
4. رسالة من النبي إلى الأمة من خلال تعامله مع اليهود، د. طه حبيشي، مرجع سابق، ص٤٥، ٤٦ بتصرف.

قرينة، ولا تصرفًا على احتمال[1]، وفي هذا قمة العدل والتسامح مع اليهود، والذي لم يحدث مثله من رجل قادر على أن يبادل أعداءه العداوة ويكيل لهم الصاع صاعين من العقاب.

ومن المواقف الأخرى الدالة على تسامح النبي ﷺ مع اليهود: عفوه عنهم بعد محاولتهم قتله، فقد روت كتب السيرة أن اليهود قد اجتمعوا يبحثون عن طريقة يتخلَّصون بها من النبي ﷺ، فكان ما رسموه هو أنهم قالوا: نرسل إلى محمد نقول له: قد حيَّرنا أمرك، ولا نعرف وجه الحق فيه، ونقترح أن تُقبِل في ثلاثين رجلًا من رجالك، ونرسل إليك بثلاثين من رجالنا ممن لهم بصر بالدين والعلم، فتشرفون معًا على ربوة لا يقترب منكم أحد، وتديرون المسائل وتتناقشون في الأمور حتى يظهر وجه الحق، فإن ظهر الحق عندك اتبعناك.

لقد انتهى اليهود من خطتهم تلك في يومهم الذي اجتمعوا فيه، وهم ينوون أن يرسلوا إلى النبي ﷺ بثلاثين رجلًا بينهم من يخفي سلاحه في طي ملابسه، فينال به من النبي ﷺ خيانة وغيلة، ووافق النبي حين وصله طلب اليهود، وأقبل في ثلاثين من قومه، غير أن اليهود قد تدارسوا الأمر مرة أخرى، وقال بعضهم لبعض: كيف تخلصون إلى الرجل وهو في ثلاثين من قومه كل واحد منهم يريد أن يموت قبله؟ عاوِدوه في الأمر، وقُولُوا له يخرج إلينا في ثلاثة من أصحابه، ونخرج إليك في ثلاثة من علمائنا، فيسمعون منك، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك.

واستجاب ﷺ حين بلغته رسالة اليهود، فخرج إليهم في ثلاثة من أصحابه وخرج ثلاثة من اليهود، واشتملوا على الخناجر، وأرادوا الغدر برسول الله ﷺ، فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى أخيها وهو رجل مسلم من الأنصار، فأخبرته بما أراد بنو النضير من الغدر برسول الله ﷺ، فأقبل أخوها سريعًا حتى أدرك رسول الله ﷺ فأعلمه بخبرهم قبل أن يصل إليهم، فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة[2].

وعلى الرغم من أن هذه المحاولة لم تكن الأولى ولا الأخيرة، إلا أن النبي ﷺ لم يعاقبهم على ذلك بسبب حسن خلقه الذي يقتضيه ألا يأخذ بالظنة، ولا يعاقب أحدًا بالاحتمال.

دفاع الله عن يهودي اتُّهم زورًا: فقد حدث في المدينة أن رجلًا مسلمًا يُدعى "طعمة بن أبيرق" سطا على أهل بيت من المسلمين، وسرق منهم درعًا، ثم خبأها عند يهودي. وبحث أصحاب الدرع عنها فوجدوها في بيت اليهودي، فاتهموه بأنه سارقها، وتضافرت كل القرائن على اتهامه، فطعمة يحلف أنه ما أخذ الدرع ولا استودعها أحدًا، ويؤكد اليهودي أنه أخذها من طعمة وديعة.

وقد ذهب قوم إلى الرسول ﷺ يطلبون منه أن ينتصر للحق الذي في جانب المسلم، وأن يأخذ اليهودي بالعقاب ويقتص منه، كما جاء قوم طعمة يجادلون عن صاحبهم ويبرّئونه.

فإذا بالوحي ينزل كاشفًا الغطاء عن الحقيقة، مبرّئًا ساحة اليهودي، دامغًا خصمه بأنه خائن أثيم - وإن

١. المرجع السابق، ص٤٦، ٤٧ بتصرف.

٢. المرجع السابق، ص٨٩، ٩٠.

تظاهر بالإسلام - مؤنّبًا قومه لجدالهم، وسعيهم لدى الرسول ﷺ كي يجادل عنه كذلك، فنزلت الآيات الكريمة بخطاب الرسول: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ (النساء)، وبيّن القرآن الكريم الحقيقة قائلًا: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾ (النساء)[1].

أرأيت كيف أنصف الإسلام اليهودي البريء، وفضح المسلم المذنب؟! هذه قمة التسامح وقمة العدل الذي جاءت به دعوة محمد ﷺ.

لم تقتصر هذه المعاملة الحسنة لليهود على النبي ﷺ، بل غرسها النبي ﷺ في أصحابه الكرام ﷺ، فقد حدث أن يهود خيبر أرادوا رشوة عبد الله بن رواحة ﷺ، ليقلِّل ما يأخذه من خراج أرضهم على حسب الصلح الذي تمَّ بينهم وبين المسلمين، فقال عبد الله: "يا أعداء الله، تطعموني السُّحت؟[2] والله جئتكم من أحب الناس إليَّ - يعني رسول الله ﷺ - ولأنتم أبغض إلي من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم على العدل فيكم، فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض"[3][4].

هذه بعض الأدلة من السيرة النبوية المطهرة الدالة دلالة واضحة على تسامح النبي ﷺ مع أهل الكتاب من اليهود على الرغم من عداوتهم له ولدعوته.

أما بالنسبة لتسامحه ﷺ مع النصارى فيكفينا هنا هذان الشاهدان:

قصة فارس والروم:

فقد حدث قبل الهجرة أن تحاربت فارس والروم، فغلبت فارس الروم، ففرح بذلك المشركون، وكانوا يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم أصحاب أوثان مثلهم، وساء ذلك المسلمين؛ لأنهم كانوا يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب مثلهم، ولقي المشركون أصحاب النبي ﷺ وقالوا: إنكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرنَّ عليكم، فأنزل الله ﷻ: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (الروم).

فخرج أبو بكر ﷺ إلى الكفار، فقال: أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا؟! فلا تفرحوا، ولا يقرَّن الله أعينكم، فوالله ليظهرنَّ الله الروم على فارس، أخبرنا بذلك نبينا ﷺ. فقام إليه أُبي بن خلف، فقال: كذبت يا أبا فصيل[5]، فقال له أبو بكر: أنت أكذب يا عدو الله، فقال: أُناحِبك[6] عشر قلائص[7] مني، وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الروم على فارس غرمتُ،

١. التعصب والتسامح بين الإسلام والأديان الأخرى، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م، ص٢٤٨: ٢٥١.

٢. السُّحْت: الحرام الذي لا يجوز كسبه.

٣. إسناده صحيح: أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب المزارعة (٥١٩٩)، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب المساقاة، باب المعاملة على النخل بشطر ما يخرج منها (١١٤٠٦)، وصحح إسناده الأرنؤوط في تعليقه على صحيح ابن حبان.

٤. التعصب والتسامح بين الإسلام والأديان الأخرى، علاء أبو بكر، مرجع سابق، ص٢٢٦.

٥. الفَصِيل: البِكْر الصغير، يريد التهكم بالصديق.

٦. ناحَب: راهَن.

٧. القلائص: جمع قَلُوص، وهي الفتيَّة من الإبل.

وإن ظهرت فارس على الروم غرمتَ إلى ثلاث سنين، فرجع الصديق أبو بكر إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال:"ما هكذا ذكرت، إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع، فزايده في الخطر[1] ومادَّه في الأجل"، فخرج أبو بكر فلقي أبيًّا فقال له: لعلك ندمت؟ فقال الصديق: لا، تعال أزايدك في الخطر، وأمادك في الأجل، فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين، قال: قد فعلت[2].

فظهر الروم على فارس قبل التسع، ففرح بذلك المسلمون؛ لأن الواقع جاء على ما أخبر به القرآن الكريم، وصدقت نبوءة النبي ﷺ، ونَصَرَ الله الروم أهل الكتاب على الفرس المجوس[3].

هذا هو موقف النبي ﷺ والصحابة من النصارى، ولنتأمل كلمة أبي بكر: أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا؟ ، نعم، إنها نظرة الأخوة!

أما الموقف الآخر الدال على تسامح النبي ﷺ مع النصارى، فهو موقفه ﷺ من نصارى نجران:

نَجْران: بلد كبير على بُعد سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن، كان يشتمل على ثلاث وسبعين قرية، مسيرة يوم للراكب السريع، وكان يؤلف مائة ألف مقاتل كانوا يدينون بالنصرانية.

وكانت وفادة أهل نجران سنة ٩هـ، وقوام الوفد ستون رجلًا منهم أربعة وعشرون من الأشراف، فيهم ثلاثة كانت إليهم زعامة أهل نجران. أحدهم: العَاقِب، كانت إليه الإمارة والحكومة، واسمه عبد المسيح. والثاني: السيد، كانت تحت إشرافه الأمور الثقافية والسياسية، واسمه الأيْهَم أو شُرحبيل. والثالث: الأسْقف، وكانت إليه الزعامة الدينية والقيادة الروحانية، واسمه أبو حارثة بن علقمة.

ولما نزل الوفد بالمدينة ولقي النبي ﷺ سألهم وسألوه، ثم دعاهم إلى الإسلام، وتلا عليهم القرآن فامتنعوا، وسألوه عما يقول في عيسى عليه السلام، فمكث النبي يومه ذلك حتى نزل عليه: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ (آل عمران).

ولما أصبح رسول الله ﷺ أخبرهم بقوله في عيسى ابن مريم في ضوء هذه الآية الكريمة، وتركهم ذلك اليوم؛ ليفكروا في أمرهم، فأبوا أن يقروا بما قال في عيسى. فلما أصبحوا وقد أبوا عن قبول ما عرض عليهم من قوله في عيسى، وأبوا عن الإسلام دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة[4][5].

وخرج النبي ﷺ ومعه علي والحسن والحسين وفاطمة ـ رضوان الله عليهم جميعًا، وقال: "وإذا أنا دعوتُ فأمِّنوا"، فائتمروا فيما بينهم، فخافوا الهلاك لعلمهم أنه نبي حقًّا، وأنه ما باهل قوم نبيًّا إلا هلكوا، فأبوا أن يلاعنوه، وقالوا: احكم علينا بما أحببت،

---

١. الخطر: الرِّهان.

٢. أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره، تفسير سورة الروم، الآية (١).

٣. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج١، ص٣٨٩، ٣٩٠.

٤. المباهلة: طلب نزول لعنة الله على الظالم.

٥. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، مرجع سابق، ص٤٥٠، ٤٥١.

فصالحهم على ألفي حُلَّة[١]، ألف في رجب، وألف في صَفَر، وعلى عارية ثلاثين درعًا، وثلاثين رمحًا، وثلاثين بعيرًا، وثلاثين فرسًا إن كان باليمن كيد، واشترط عليهم ألا يتعاملوا بالربا، وأمَّنهم على أنفسهم ودينهم وأموالهم وكتب لهم كتابًا جاء فيه: "ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أنفسهم وملَّتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وبِيَعِهم[٢]، لا يغير أسقف على سقيف، ولا راهب عن رهبانيته، ولا واقف عن وقفانيته". وأشهد على ذلك بعض المسلمين، ثم رجعوا إلى بلادهم، فلم يلبث العاقب والسيد إلا يسيرًا حتى رجعا إلى النبي ﷺ فأسلما، وأنزلهما دار أبي أيوب الأنصاري، وأقام أهل نجران على ذلك حتى توفَّى الله نبيه[٣].

هذه هي معاملة النبي ﷺ لأهل الكتاب اليهود منهم والنصارى، معاملة قامت على العفو والتسامح والإحسان، ولا يمكن لمنصف أن يزعم أن هذه المعاملة قد تغيرت من مرحلة إلى أخرى؛ لأن هذا الزعم لا يقوم على أي دليل أو حجة تستند إلى الواقع، بل هو مجرد خيال قائم في ذهن أصحابه تخالفه شواهد التاريخ وأدلة الواقع®.

ثانيا. لم يكن النزاع القائم بين النبي ﷺ واليهود بسبب كونهم يهودًا مخالفين له في الدين:

ليس صحيحًا ما يقال إن النبي ﷺ قد تنكَّر لأهل الكتاب بعد أن قويت شوكة الإسلام في المدينة، وقامت دولته، فأصبح يطاردهم ويشرِّدهم، ويحرِّض على قتالهم؛ لأن ما ذكرناه سابقًا من أدلة على تسامح النبي ﷺ معهم منذ بداية دعوته حتى توفاه الله تدحض هذا الزعم من أساسه، وقد يسأل سائل: إذا كان الأمر كما تقولون من أن محمدًا ﷺ لم يُغيِّر سياسته مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فلماذا حارب اليهود وطردهم من ديارهم وقتل سادتهم واستباح دماء بني قريظة؟!

وإننا نرد على هذا السائل بأن الأمر ليس كما تظن؛ لأن النبي ﷺ حين فعل ذلك مع اليهود، لم يكن بسبب كونهم يهودًا مخالفين له في الدين، بل بسبب نقضهم للعهود وغدرهم بالنبي ﷺ وأصحابه، وخوضهم في أعراض المسلمين، ومحاولاتهم المستمرة لقتل النبي ﷺ، وموالاتهم الكفار ضد المسلمين، وإننا لو أردنا أن نتتبع جرائم اليهود التي استحقوا بها ما حلَّ بهم من عذاب وعقاب على أيدي المسلمين، لما سمح المجال، ولكننا نكتفي بأقل القليل من هذه الجرائم التي لا يمكن العفو عن مرتكبيها بحال من الأحوال، وقد سبق أن تحدثنا عن بعض استفزازات اليهود للنبي ﷺ وللمسلمين، وعلى الرغم من أنها من الأمور التي يستحقون عليها أشد العقاب، إلا أن حسن خُلق النبي ﷺ وسعة صدره معهم قد حالت بينهم وبين هذا العقاب، ولكن هناك من الأمور التي لا يمكن لحليم أن يتجاوز عنها، والتي ارتكبها اليهود مع النبي ﷺ والمسلمين والتي واجهها

---

١. الحُلَّة: الثوب الجيِّد غليظًا أو رقيقًا، وكل ثوب له بِطانة.

٢. البِيَع: معابد النصارى.

٣. السيرة النبوية، د. محمد محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص٥٤٨.

® في **"تسامح النبي ﷺ مع أعدائه وعفوه عند المقدرة"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة عشرة، والوجه الثاني، من الشبهة السادسة عشرة، من الجزء الثاني (أخلاق النبي ﷺ). وفي **"عهد النبي ﷺ مع اليهود في المدينة"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الحادية والثلاثين، من الجزء السادس (تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده).

النبي ﷺ والمسلمون بالحزم منها:

ما حدث من بني قينقاع:

لقد سبق الحديث عما دار بين يهود بني قينقاع والنبي ﷺ بعد بدر، وقولهم للنبي ﷺ كما ذكر ابن هشام في سيرته: "لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس".

وعلى الرغم من هذه المقولة التي يعلن فيها اليهود الحرب على المسلمين إلا أن النبي ﷺ لم يلتفت إليها، لحرصه على السلام وأمن المجتمع، ولكن الشيء الذي لا يمكن أن يتهاون فيه النبي ﷺ هو اعتداؤهم على عرض إحدى المسلمات، فقد روى ابن هشام: أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديًا، وشدَّ اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهلُ المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع[1].

ومن ثم فإن القشة التي قصمت ظهر البعير هي حادثة المرأة المسلمة التي راودها اليهود عن كشف وجهها فأبت، ولم يكن مقتل المسلم أمرًا فرديًا، فلقد كان تمالؤًا عامًّا من اليهود وإعلانًا بنبذ العهد منهم، فلو كان حادثًا فرديًا لأمكن معالجته وقتل القاتل، ولكن الملأ من يهود هم الذين اجترءوا وقتلوا، فأنزل الله: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (الأنفال).

فاحتمال الغدر منهم قائم كل لحظة، ولئن سكت المسلمون على هذه الجريمة، فهذا يعني أنهم ضعاف، وبالتالي فهم معرَّضون للغزو في كل لحظة، فلم يكن هناك خيار من المعركة، فلهذا حاصرهم النبي ﷺ في بيوتهم، وحصونهم، وقد انتهى هذا الحصار بإجلائهم عن المدينة[2].

ما حدث من يهود بني النضير:

وكان يهود بني النضير ممن عاهدهم النبي ﷺ ووادعهم على أن يأمن كل فريق الآخر، لكنهم لم يَفُوا بالعهد وهمُّوا بقتل الرسول ﷺ، ذلك أن عمرو بن أمية الضمري الذي نجا من سرية القرَّاء، لقي أثناء رجوعه إلى المدينة رجلين من بني عامر، فقتلهما وهو يظن أنه أصاب بذلك بعض الثأر من بني عامر، الذين غدروا بهم، ولم يشعر بعهدهما الذي لهما من رسول الله ﷺ، فقال له الرسول ﷺ: "لقد قتلت رجلين أَدِيَنَّهُما"[3]. وكان بين بني عامر وبني النضير عهد.

فخرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية الرجلين في جماعة من صحابته منهم أبو بكر وعمر وعلي ﷺ، فلما جاءهم أظهروا له حسن الاستعداد لإجابته، ثم خلا بعضهم إلى بعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل هذه الحالة ـ وكان رسول الله ﷺ

---

١. المنهج الحركي للسيرة النبوية، د. منير محمد الغضبان، دار الوفاء، مصر، ط١٥، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٢٠٧.

٢. المرجع السابق، ص٢٠٩ بتصرف.

٣. أَدِيَنَّ: أدفع عنهما الدِّية.

جالسًا إلى جنب جدار لهم - فمن رجل يعلو على هذا البيت، فيلقى عليه صخرة ويريحنا منه؟ فانتُدب لذلك الشقي عمرو بن جحاش فقال: أنا لذلك.

فصعد ليلقي الصخرة، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعًا إلى المدينة، فلما استلبث النبيَّ ﷺ أصحابُه قاموا في طلبه حتى انتهوا إليه بالمدينة، فأخبرهم بما كانت اليهود اعتزمته من الغدر .

فبعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة إليهم يطلب منهم الخروج من جواره بالمدينة، وأمهلهم عشرة أيام وإلا حاق بهم الهلاك، فأيقنوا أن الله أطلعه على ما أرادوا، وصاروا متحيرين لا يدرون ما يفعلون، وبينما هم في حيرتهم وترددهم جاءهم رسل أهل النفاق ابن أُبَي وأتباعه، فقالوا لهم: اثبتوا وتمنَّعوا، فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم، فقويت عند ذلك نفوسهم، وحمي حيي بن أخطب، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أنهم لا يخرجون، ونابذوه بنقض العهود؛ لذلك أمر النبي ﷺ بالتهيؤ لحربهم وقتالهم، وحاصرهم ست ليالٍ، وقيل: خمس عشرة ليلة، وقاتلوهم، ثم أمر رسول الله ﷺ بقطع نخيلهم وتحريقها ليكون ذلك أدعى إلى تسليمهم، وعبثًا انتظر اليهود نصر ابن أُبي وجماعته، وخذلهم كما خذل بني قينقاع من قبل، فملأ الرعب قلوب اليهود واشتدَّ الحصار عليهم، فسألوا الرسول ﷺ الجلاء وتأمينهم على دمائهم ومتاعهم.

وبإجلاء بني النضير أراح الله المسلمين من شوكة ثانية، كانت تقض مضاجعهم[1].

١. السيرة النبوية، محمد محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج٢، ص٣٩٩، ٤٠٠ بتصرف.

ما حدث من يهود بني قريظة:

استطاع حيي بن أخطب - زعيم اليهود - في جماعة من بني النضير أن يؤلِّب العرب على محاربة الرسول ﷺ بالمدينة حتى كانت غزوة الخندق، وقد سعى إلى بني قريظة - والمشركون يحاصرون المدينة - أن ينقضوا ما بينهم وبين النبي ﷺ وقد نجح في ذلك حتى اشتدَّ الكرب على المسلمين، وأصبحوا بين نارين: نار المشركين ونار اليهود، حتى اضطر النبي ﷺ إلى أن يرسل بعض المسلمين لحراسة الذراري والنساء من غدر اليهود، بعد أن نقضوا العهد.

وبعد عودة النبي ﷺ من الخندق، تفرغ لبني قريظة، فأمر رسول الله ﷺ مناديًا ينادي في الناس: "ألا لا يصلِّينَّ أحد العصر إلا في بني قريظة"[2]، فحاصرهم النبي ﷺ حتى اشتد بهم الحال، ولم ير بنو قريظة فائدة من تحصنهم ، فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فحكَّم فيهم رجلًا من حلفائهم من الأوس، وهو سعد بن معاذ ﷺ، فحكم بأن يقتل الرجال، وتُسبى النساء والذرية[3].

وبالقضاء على بني قريظة تخلَّص المسلمون بالمدينة من آخر شوكة في ظهورهم، وأصبحت المدينة كلها - ما عدا المنافقين - على قلب رجل واحد موئلًا للإسلام،

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب صلاة الخوف، باب صلاة الطالب والمطلوب راكبًا وإيماء (٩٠٤)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من لزمه أمر فدخل عليه أمر آخر (٤٧٠١).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب إذا نزل العدو على حكم رجل (٢٨٧٨)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد (٤٦٩٥).

وحصنه الحصين[1].

ما حدث من يهود خيبر:

لئن كانت المدينة قد تطهَّرت من اليهود وغدرهم فها هي خيبر، لا تزال حصنًا حصينًا لليهود وأهلها، ومن نزح إليها من يهود بني النضير الذين يحملون الحقد والضغن على الإسلام والمسلمين، وغير بعيد عنا ما قام به زعماء بني النضير الذين اتخذوا خيبر مقامًا لهم، من تأليب العرب على المسلمين في الخندق، وحملهم بني قريظة على نقض العهود التي كانت بينهم وبينه ﷺ، ومن ثَمَّ نجد أن خيبر أصبحت مركزًا لتجمعات اليهود يقومون منها بما يريدون من غدر ومكايد.

ولئن كان المسلمون بعد فتح الحديبية قد أمنوا قريشًا والجنوب، لكنهم لم يأمنوا ناحية الشمال، ولا سيما أهل خيبر الذين لا ينسون ما فُعل بإخوانهم اليهود، وليس ببعيد أن يستعينوا بهرقل أو كسرى في النَّيل من المسلمين، وما كان رسول الله ﷺ - وهو السياسي المحنَّك - ليخفى عليه شيء من هذا؛ لذلك لم يكد يرجع من الحديبية ويستريح بالمدينة شهرًا أو نحوه حتى أمر بالتجهُّز للخروج إلى خيبر.

وخرج رسول الله ﷺ في مطلع عام سبع من الهجرة في جيش تعداده ألف وستمائة ومعهم مائتا فرس، وقد كانت يهود خيبر من أشد الطوائف اليهودية بأسًا، وأكثرها مالًا، وأوفرها سلاحًا.

وقد استطاع المسلمون أن يستولوا على حصون اليهود حصنًا بعد حصن، فاستولى اليأس على اليهود، فطلبوا من النبي ﷺ الصلح على أن يحقن دماءهم، فقبل الرءوف الرحيم، وصارت أرضهم لله ولرسوله وللمسلمين، فلما أراد النبي ﷺ إجلاءهم سألوه أن يقرَّهم على أن يعملوا في الأرض ولهم نصف التمر فقال لهم: "نقرُّكم على ذلك ما شئنا"[2].

وقد كان من إحسان النبي ﷺ في معاملة يهود خيبر أنه كان من بين ما غنم المسلمون منهم عدة صحف من التوراة، فطلب اليهود ردَّها، فأمر بتسليمها إليهم، ولم يصنع ﷺ ما صنع الرومان حينما فتحوا أورشليم وأحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم، ولا ما صنع النصاري في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حين أحرقوا كذلك صحف التوراة[3].

ما ذكرناه آنفًا هو بعض من جرائم اليهود التي ارتكبوها، واستحقوا بسببها ما نزل بهم من عقاب على يد النبي ﷺ والمسلمين، وما ذكرناه من هذه الجرائم هو جرائم جماعية اشترك فيها جموع غفيرة من اليهود، ولو أردنا أن نتتبع جرائمهم الفردية لطال بنا المقام.

ومن ثم لم يكن النزاع القائم بين النبي ﷺ وبين اليهود نابعًا من فراغ، بل كان اليهود دائمًا هم الذين يؤججون نار العداوة بينهم وبين النبي فكان لا بد أن يبادلهم النبي ﷺ عداءً بعداء كما بادلهم سلمًا بسلم.

هذا بالنسبة لليهود، أما بالنسبة للنصارى، فلم يكن

---

١. السيرة النبوية، محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج٢، ص٤٠٦: ٤٠٩ بتصرف.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحرث والمزارعة، باب إذا قال رب الأرض: أقرك ما أقرك الله. ولم يذكر أجلا معلومًا (٢٢١٣)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر والزرع (٤٠٤٧).

٣. السيرة النبوية، محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج٢، ص٤١٤: ٤١٩ بتصرف.

لهم تجمعات تذكر في جزيرة العرب إلا في نجران، وقد رأينا كيف اشتمل عهد النبي ﷺ إلى أهل نجران، أن لهم جوار الله وذمة رسوله على أموالهم وملتهم وبِيَعهم، ولم يصدر منهم أي بادرة عداء للنبي ﷺ ولا لدعوته، بل حافظوا على العهد، ودفع الجزية، فبادلهم النبي ﷺ سلامًا بسلام.

وهكذا يتضح لنا أن النبي ﷺ لم يغير سياسته مع أهل الكتاب، ولم يتنكر لهم كما يزعم الزاعمون، بل حرص النبي ﷺ أن تكون العلاقة معهم قائمة على التسامح، والعفو، والتعاون المشترك، ولم يبادل عداوة اليهود بعداوة، إلا بعد أن نقضوا عهودهم، وأعلنوا الحرب على الإسلام، وعاونوا المشركين على محاربة المسلمين، وأرادوا استئصال شأفة المسلمين، وقتل النبي ﷺ.

فكان لا بد أن يقف النبي ﷺ ضدهم هذا الموقف الحازم، الذي لم يخرج فيه النبي ﷺ ولا المسلمون عن مبدأ العدل، هذا الموقف الحازم الذي كان لا بد أن يتخذه؛ "لأن إدارة الخد الأيسر لمن ضرب الخد الأيمن، أمر يشق على النفوس، بل يتعذر على كثير من الناس أن يفعلوه، وربما جرَّأ الفجرة الأشرار على الصالحين الأخيار، وقد يتعيَّن في بعض الأحوال، ومع بعض الناس أن يُعاقَبوا بمثل ما اعتدوا ولا يُعفى عنهم، فيتبجحوا ويزدادوا بغيًا وطغيانًا"[1].

ولهذا تجلت واقعية النبي ﷺ حين شرع مقابلة السيئة بمثلها بلا حيف ولا عدوان، فأقرَّ بذلك مرتبة العدل، ودرء العدوان، وإن كان يؤثر دائمًا العفو، والصبر، والمغفرة، والتسامح، وقد شهد له بذلك غير المسلمين، ومن هؤلاء جوستاف لوبون العلامة الفرنسي إذ يقول عن سماحة محمد ﷺ مع أهل الكتاب: "إن سماحة محمد ﷺ لليهود والنصارى كانت عظيمة إلى الغاية، ولم يقل بمثلها مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله، كاليهودية والنصرانية على وجه الخصوص، وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوربا المرتابون أو المؤمنون القليلون الذين أمعنوا النظر في تاريخ العرب"[2].

وبهذا تبطل حجة من يزعم أن النبي ﷺ قد اضطهد أهل الكتاب، بشهادة التاريخ والواقع وشهادة غير المسلمين أنفسهم®.

الخلاصة:

- لقد اتسمت معاملة النبي ﷺ مع المخالفين له في الدين بالتسامح، والعفو، والرحمة، حتى مع المشركين فما بالنا بأهل الكتاب من اليهود والنصارى، وهم أهل كتب سماوية، ولهم صلة بالأنبياء قوية؟! ومن أكبر دلائل تسامحه ﷺ مع اليهود مفاتحته لهم في أن يدخلوا

---

١. سماحة الإسلام، د. عمر بن عبد العزيز قريشي، المكتبة الذهبية، مصر، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص٤٧، ٤٨.

٢. المرجع السابق، ص٩٧، ٩٨ بتصرف.

® في **"إجلاء يهود بني النضير وبني قريظة وبني قينقاع عن المدينة"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الحادية والثلاثين، من الجزء السادس (تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده). وفي **"تسامح النبي ﷺ مع أعدائه وعفوه عند المقدرة"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة عشرة، من الجزء الثاني (أخلاق النبي ﷺ). والوجه الثاني، من الشبهة الخامسة عشرة، من هذا الجزء. وفي **"شهادة منصفي الغرب بكمال عقل النبي ﷺ وصدقه وإخلاصه"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الرابعة، من الجزء الثاني (أخلاق النبي ﷺ). والوجه الأول، من الشبهة السادسة عشرة، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته). والوجه الثاني، من الشبهة الرابعة عشرة، من هذا الجزء.

معًا في معاهدة سلام يحترمونها جميعًا، وأن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، وقد كان من المنتظر أن تؤتي هذه المعاهدة ثمارها لولا طباع اليهود، التي جُبِلت على الغدر، فنقضوا هذه المعاهدة، ومن دلائل تسامحه كذلك تغاضيه ﷺ عن استفزازات اليهود الكثيرة مثل: محاولاتهم إحراجه بالأسئلة التي لا يهدفون منها إلا محاولة تعجيزه، وتعديهم على الذات الإلهية، وإيذائه في جسده عن طريق سحره، ومحاولات اغتياله.

- أما تسامحه ﷺ مع النصارى فلا يستطيع أحد إنكاره، ولا يستطيع أحد أن ينسى حزن النبي ﷺ والمسلمين لهزيمة الروم النصارى على يد الفرس المجوس، وكذلك موقفه من نصارى نجران، والعهد الذي أخذه معهم والذي أعطاهم فيه الأمان على أنفسهم ودينهم، وأموالهم، والسماح لهم بالصلاة في المسجد النبوي، وقد كان ذلك في العام التاسع من الهجرة بعد استتباب الأمر في المدينة وإقامة الدولة.
- إن العقاب الذي صبَّه النبي ﷺ على اليهود لم يكن بسبب مخالفتهم له في الدين كما يزعمون، وإنما بسبب نقضهم للعهود وغدرهم بالنبي ﷺ وأصحابه، وخوضهم في أعراض المسلمين ومحاولاتهم الدءوبة لقتل النبي ﷺ؛ وموالاتهم الكفار ضد المسلمين، وقد كانت هذه الجرائم من اليهود جرائم جماعية اشتركوا فيها جميعًا، وقد كانت الحكمة تقتضي أن يقف النبي ﷺ منهم هذا الموقف الحازم؛ لأن العفو عن بعض الناس قد يدفعهم إلى التعدي على الصالحين الأخيار ويزدادون بغيًا وطغيانًا.
- أما في حالات السلم فقد بادلهم سلمًا بسلم ومودة بمودة، وقد شهد بهذه السماحة الكثير من غير المسلمين من المنصفين، ومن ثم فليس صحيحًا أن النبي ﷺ قد تعامل مع أهل الكتاب بأسلوبين مختلفين كما يزعمون.



المصادر والمراجع

- أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة، د. أحمد عبد العزيز الحداد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، دار الفرقان، الأردن، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- الإسلام، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١٢، ١٩٩٧م.
- الإسلام في تصورات الغرب، د. محمود حمدي زقزوق، مكتبة وهبة، مصر، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- الإسلام والأديان الأخرى: نقاط الاتفاق والاختلاف، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- الإسلام والغزو الفكري، د. عبد المنعم خفاجي، د. عبد العزيز شرف، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، ترجمة: ظفر الإسلام خان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢٢، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.
- أضواء على المسيحية، أحمد ديدات، ترجمة: عادل جلول، دار القارئ، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- افتراءات المستشرقين على الإسلام: عرض ونقد، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- أمية محمد ﷺ، خالد محمد عبده، مكتبة النافذة، مصر، ط١، ٢٠٠٦م.
- بنديكت السادس عشر، د. عبد الودود شلبي، كتاب المختار، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- تاريخ الأمم والملوك، الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.
- تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م.
- تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- التبشير العالمي ضد الإسلام، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة النور، القاهرة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، د.ت.
- التعصب والتسامح بين الإسلام والأديان الأخرى، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م.
- التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، القاهرة، ط١، ١٩٩١م.

- ثورة الإسلام في ضوء ظروف البيئة التي ظهر فيها، ترجمة: د. إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٩٩م.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٤، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقاد، طبعة المؤتمر الإسلامي، مصر، ط١، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.
- حقيقة الكتاب المقدس تحت مجهر علماء اللاهوت، د. روبرت كيل تسلر، ترجمة: علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، مصر، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- حنق اليهود على الأنبياء، د. محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، الأردن، ١٩٩٨م.
- حياة وأخلاق الأنبياء، أحمد الصبَّاحي عوض الله، دار اقرأ، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- خاتم النبيين ﷺ، الإمام محمد أبو زهرة، ، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- خصائص المصطفى ﷺ بين الغلو والجفاء، د. الصادق محمد إبراهيم، مكتبة دار المنهاج، الرياض، ط١، ١٤٢٦هـ.
- الخصائص الكبرى، السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ، محمد روَّاس قلعه جي، دار النفائس، بيروت، ط٣، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- دلائل النبوة ومعجزات الرسول ﷺ، د. عبد الحليم محمود، دار الإنسان، القاهرة، ط٢، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، البيهقي، علَّق عليه: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- الدين العالمي ومنهج الدعوة إليه، الشيخ عطية صقر، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، دار المؤيد، الرياض، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- ردُّ القرآن والكتاب المقدس على أكاذيب القمص زكريا بطرس، إيهاب حسن عبده، مكتبة النافذة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، مطابع دار الصحيفة، مصر، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- الرد على د. مصطفى محمود في إنكار الشفاعة والرد على اللواء محمد شبل في إنكار يوم عرفة، د. عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٩٩م.

- رسالة من النبي إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود، د. طه حبيشي، مكتبة رشوان، القاهرة، ط٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- الرسل والرسالات، د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- الرسول ﷺ، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، الحسيني الحسيني معدي، دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- الرسول قائدًا، محمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل، القاهرة، ط٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.
- ركائز الإيمان، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- زوابع في وجه السنة قديمًا وحديثًا، صلاح الدين مقبول أحمد، دار عالم الكتب، الرياض، د. ت.
- سماحة الإسلام، د. عمر بن عبد العزيز قريشي، المكتبة الذهبية، مصر، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام، د. عماد السيد الشربيني، دار اليقين، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- السيرة النبوية، ابن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٣م.
- السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: الشيخ محمد بيومي، مكتبة الإيمان، مصر، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- السيرة النبوية: دراسة تحليلية، د. محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، الأردن، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث، د. علي الصلابي، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال الجبري، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٩٨م.
- شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة، خليل عبد الكريم، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٧م.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
- شمائل المصطفى ﷺ، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- صحيح مسلم بشرح النووي، الإمام النووي، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض، ط٢، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- صراع مع الملاحدة حتى العظم، عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط٤، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، د. ت.
- عالمية الإسلام، رجائي عطية، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط٢، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

- عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مطبعة الأمانة، مصر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- عظمة الرسول ﷺ، الشيخ محمد بيومي، دار مكة للنشر والتوزيع، مصر، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- عظمة الفطنة في نبوة محمد ﷺ، محمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل، القاهرة، ط٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.
- العقائد الإسلامية، السيد سابق، دار الكتب الحديثة، ط٣، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.
- عقيدة المؤمن، أبو بكر جابر الجزائري، دار الكتب السلفية، القاهرة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- عقيدة أهل السنة والجماعة، د. أحمد فريد، مكتبة فياض، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- عيسى رسول الإسلام، القس سليمان شاهد مفسر، ترجمة: أبو إسلام أحمد عبد الله، بيت الحكمة، مصر، د. ت.
- الغرب والإسلام: أين الخطأ وأين الصواب، د. محمد عمارة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.
- فترة التكوين في حياة الصادق الأمين، خليل عبد الكريم، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٠١م.
- فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، د. علي محمد الصلابي، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٢م.
- فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الدعوة الإسلامية، مصر، ط٧، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- فقه السيرة، محمد الغزالي، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٣م.
- الفكر الاستشراقي: تاريخه وتقويمه، د. محمد الدسوقي، دار الوفاء، مصر، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء، محمد الغزالي، دار الاعتصام، مصر، د .ت.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، خليل عبد الكريم، سينا للنشر، القاهرة، د. ت.
- قصة الحضارة، ول ديورانت، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠١م.
- قوانين النبوة، موفق الجوجو، دار المكتبي، دمشق، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- القيامة الصغرى، د. عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- القيامة الكبرى، د. عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- كيف نتعامل مع السنة النبوية، د. يوسف القرضاوي، دار الشروق، القاهرة، ط٤، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- اللفظ المكرم بخصائص النبي ﷺ، الحافظ قطب الدين الخضيري، تحقيق: محمود أحمد عبد المحسن، رسالة دكتوراه، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

- لكن محمدًا لا بواكي له، د. إبراهيم عوض، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ٢٠٠١م.
- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، ط١، ١٩٩٧م.
- مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤م.
- مجتمع يثرب، خليل عبد الكريم، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٧م.
- محمد أعظم البشر، د. حمزة النشرتي، دار النشرتي، مصر، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي الحسيني، دار الشروق، جدَّة، ط٣، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- محمد المثل الأعلى، توماس كارليل، ترجمة: محمد السباعي، مكتبة النافذة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م.
- محمد ﷺ المثل الكامل، أحمد جاد المولى، مكتبة دار المحبة، دمشق، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- محمد رسول الله، إتيين دينيه، سليمان بن إبراهيم، ترجمة: د. عبد الحليم محمود، د. محمد عبد الحليم، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٨٦م.
- محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
- محمد رسول الله ﷺ في الكتب المقدسة، سامي عامري، مركز التنوير الإسلامي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- محمد رسول الله ﷺ نبي الرحمة، سعيد عامر، طبعة خاصة، مصر، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
- محمد في حياته الخاصة، نظمي لوقا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.
- محمد في مكة، مونتجمري وات، ترجمة: د. عبد الرحمن الشيخ، حسين عيسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- محمد والأنبياء في المصادر اليهودية والمسيحية، السيد سلامة غنمي، طبعة خاصة، ٢٠٠٣م.
- المختصر القويم من أدلة نبوة الرسول الكريم، د. وليد نور، مكتبة الصفا والمروة، الإسكندرية، ط١، ٢٠٠٦م.
- المستشرقون والإسلام، محمد قطب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د. عبد المنعم فؤاد، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- المسيحية والإسلام والاستشراق، محمد فاروق الزين، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط٣، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- مفاهيم نصرانية خاطئة عن محمد والمسيح والرد عليها، د. سامي نجيب، دار الروضة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- مقدمات النبوة وإعداد الرسول مع معجزاته وخصائصه، د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء، مصر، ط٢، ١٩٨٥م.
- من مفاهيم القرآن في العقيدة والسلوك، د. محمد البهي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
- مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، د. محمد عبد العظيم الزرقاني، مكتبة نزار الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٩٩٦م.

- المنهج الحركي للسيرة النبوية، د. منير محمد الغضبان، دار الوفاء، مصر، ط١٥، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- موجز دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة مستشرقين، مركز الشارقة، الإمارات، ١٤١٨هـ/ ١٩٨٨م.
- الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية الكويتية، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.
- موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.
- نبوءات الرسول ﷺ ما تحقق منها وما يتحقَّق، محمد ولي الله عبد الرحمن الندوي، دار السلام، القاهرة، ط٢، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي المعاصر، د. لخضر شايب، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- النبوة المحمدية: دلائلها وخصائصها، د. محمد سيد أحمد المسيَّر، دار الاعتصام، القاهرة، ط٣، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، دار الصابوني، السعودية، ١٣٩٠هـ.
- النبي المرتقب: الانتظار والقدوم، محمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل، القاهرة، ط٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.
- نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، محمد الخضري بك، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
- الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، محمد ياسين مظهر صديقي، ترجمة: سمير عبد الحميد إبراهيم، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن القيم، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، د. ت.
- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن القيم، تحقيق: أحمد حجازي السقا، المكتبة القيمة، القاهرة، ١٤٠٧هـ.
- هذا هو الإسلام، د. محمد عمارة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- هل كان محمد ﷺ أميًّا؟ د. لخضر شايب، دار قتيبة، دمشق، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
- وامحمداه: الحميم والنار على من سب النبي المختار، محمد عبد الحليم عبد الفتاح، طبعة خاصة، ط١، ٢٠٠٦م.
- الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، د. محمود ماضي، دار الدعوة، القاهرة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، د. إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.



موسوعة

بيان الإسلام

الرد على الافتراءات والشبهات

القسم الثاني: الرسول

المجلد الثالث

ج ٥

شبهات حول

نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب



العنوان:
موسوعة بيان الإسلام
الرد على الافتراءات والشبهات
القسم الثاني: الرسول
المجلد الثالث (ج٥، ج٦)

إشراف عام:
داليـا محمـد إبراهيــم

الترقيم الدولي: 977-14-4275-9
رقم الإيداع: 2010/10889
الطبعة الأولى: يناير 2011



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

تليفـون: 33466434 - 02 33472864
فاكـس: 02 33462576
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة